النفاق والمنافقون
في ضوء القرآن الكريم

تأليف

الدكتور

السيد إسماعيل علي

مدرس التفسير وعلوم القرآن

بكلية أصول الدين ـ القاهرة

جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ — ١٩٩٢ م

مطبعة الحسين الإسلامية

٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر

تليفون : ٩١٩٧٢٤

أهـــــداء

إلى روح من عاش يتمـنى أن يكـون لـه ولـداً مـن حفـاظ القـرآن الكـريم وحمـلة العلم والـدى العـزيز ..

وإلى والـدتى الغـالية التى تحمـلت المشـاق وسـهرت الليـالى من أجـلى أهـدى هـذا الكتـاب ، وأسـأل الله تعـالى أن يجعـل ثـواب عمـلى فى مـيزان حسـناتهما يـوم القيـامة وأن يحـيزهما عـنى خـير الجـزاء إنـه نعـم المـولى ونعـم النصـير وبالإجابـة جـدير ..

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وصفيه من خلقه وخليله ، بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف الغمة ، وجاهد فى الله تعالى حق جهاده ، وتركنا على المحجة البيضاء : ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، ومن اهتدى بهديهم وسار على نهجهم إلى يوم الدين .

أما بعد ..

فهذا العالم الحائر المضطرب ، يموج بالأفكار ، ويمور بالحروب ، ويخيم عليه شبح الهلاك والدمار ، فهو كالسكران أعطيته سلاحا فقتل به نفسه وقتل به غيره ، والمسلمون جزء من هذا العالم : أمة عظيمة ، كثيرة العدد ، مترامية الأطراف . هى قلب هذا العالم وحسه ، ونبضه ، ووجدانه ، وحياته ، ولكنها استنامت لكيد عدوها ، واستناخت لمكره ودهائه ، فتمزقت شيعا وأحزابا ، وتوزعت إربا ، فسهل على عدوها ازدرادها والتهامها ، وانقسمت إلى دول ودويلات ترتبط فكرا وإحساسا ، كما ترتبط حاضرا ومستقبلا بالشرق أو الغرب . وأضحى غذاؤها وكساؤها ، بل وسلاحها الذى تدافع به عن نفسها ، بل ترفها ومتاعها كل ذلك مستورد من هنا أو هناك !!

وهذه الأمة الإسلامية أشرف الأمم وأعظمها فى تاريخ بنى الإنسان، وهى حاملة دعوة الخير للبشر ، وعليها تقع مسئولية انقاذ البشرية من أوحال الشرك وظلمات الجهل ، وحمأة الرذائل ، وعليها أن ترد القافلة الشاردة لطريق الحق ، والعدل ، والخير ، والسلام ، وهى الأمة التى ستشهد على الأمم وستشهد للأنبياء والرسل يوم القيامة ، قال تعالى : **(وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)(١) .**

فكيف لأمة هذا مكانها ، وتلك مكانتها أن تتخلف عن الركب ، وأن تطلب لقمة الخبز من أيدى غيرها ؟ هل لذلك من سبب ؟ وهل إذا عرفنا السبب ، هل هناك من علاج ؟ .

وفى صفحات هذا الكتاب - باذن الله تعالى - محاولة لاكتشاف أهم هذه الأسباب التى تكمن فى وجود طبقة عريضة من المنافقين على جميع المستويات فى بلاد الإسلام ، بل ويتخللون فى صفوف الحركات الإسلامية المتنوعة محسوبين على الإسلام وأهله ، والاسلام منهم براء فهم يوجدون بين قادة الفكر والسياسة ، ورجال الجامعات ، وأعلام الصحافة وأجهزة الاعلام ، وفى الأندية المشبوهة والجماعات السرية كالماسونية ، والروتارى ، وشهود يهوه ، ومحافل البهائية ، ومجموعات القاديانية وغيرها .

وما زالت أفواج المنافقين - فى عصرنا الحاضر - تتزايد ، عاملة فى جد واجتهاد على زلزلة العقائد السماوية ، والتمكين لعقائد الإلحاد، تارة باسم « الشيوعى المسلم » وتارة باسم « العلمانى المسلم » وتارة

---

(١) من الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

باسم « الفكر المتحرر » وتارة باسم « تجديد شرائع الإسلام » إلى غير ذلك من الأسماء التى زكمت منها العقول ، وأثقلت فكر الشباب بالشكوك والأوهام ، بل واستهوت الكثير من رجال الحكم فى دول الإسلام ، فاتخذوا من هؤلاء المرجفين أعوانا ، ومكنوا لهم من السلطة حتى أصبحت الكارثة باتت وشيكة الوقوع لولا يقظة العقل المؤمن ، وقدرته على كشف اللؤم والخداع ، وعلى بيان عظمة الإسلام ، وتفوقه على كل الشعائر والأفكار البشرية الزائفة .

ولما كان النفاق أخطر من الكفر على دولة الإسلام ، لأن الكفر واضح السلوك والمنطق ، أما النفاق فهو باطن لا يدرك إلا بضروب من الفحص والمراقبة والتحليل والتعليل ، لذلك فقد كثرت نصوص القرآن الكريم فى الحديث عن النفاق ، وبيان سماته وخصائصه ، ومناهجه ، بحيث لا تترك شاردة من شوارد النفاق فى أى عصر من عصور الزمان.

وقد ورد لفظ « النفاق » ومشتقاته فى القرآن ٣٧ مرة ، وقد تكرر ذكر المنافقين وأحداثهم فى سبع عشرة سورة من سور القرآن المدنية فيما يقرب من ٣٤٠ آية من آيات الكتاب العزيز البالغ عددها ٦٢٣٦ آية على العد الكوفى .

لذلك : فان كتاب « **النفاق والمنافقون فى ضوء القرآن الكريم** » يكشف عن أسباب النفاق وبواعثه ، ومنطق المنافقين ، وأهم صفاتهم وأساليبهم وأثرهم على المجتمع الإسلامى فى دراسة موضوعية لآيات القرآن الكريم والسنة النبوية التى وردت فى موضوع النفاق .

ولقد سلكت فى هذه الدراسة منهجا وسطا بين البسط والايجاز ، متحاشيا الحشو والتطويل ، مع السهولة فى الأسلوب ، والوضوح فى العبارة حتى تفى بالغرض المطلوب من أقرب طريق ، ثم قمت بربط

كل موضوع بالواقع الذى يعيشه المجتمع الإسلامى ، وذلك لربط الماضى بالحاضر ، وكشفا لأمراض المجتمع وكيفية علاجها ، حتى ينهض ويأخذ مكانه الحقيقى الذى رسمه القرآن الكريم .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل عملى هذا خالصا لوجهه الكريم ، كما أسأله سبحانه التوفيق والسداد ، وأن ينفع بعملى هذا كل طالب علم ، وصاحب دعوة ، وباحث عن الحق ، ومدافع عن عقيدة التوحيد إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المؤلف

أبو محمد

دكتور / السيد بن اسماعيل بن على

القاهرة فى ٩ جمادى الأولى ١٤١٣ هـ

الموافق ٤ نوفمبر ١٩٩٢ م

الفصل الأول

وفيه المباحث الآتية :

المبحث الأول : تعريف النفاق .

المبحث الثانى : نشأة النفاق .

المبحث الثالث : أسباب النفاق .

المبحث الرابع : الفرق بين المنافق والكافر .

المبحث الخامس : أنواع النفاق .

المبحث الأول

تعريف النفاق

أولا : معنى النفاق فى اللغة والاصطلاح :

لما كانت كلمة النفاق مشتقة من مادة « نفق » فإنها تدور ـ غالبا ـ حول الاستتار والاختفاء . فنفوق الدابة موتها ، وفى الموت اختفاء ، ويقال : نفق الشىء إذا نفد وفنى ، والنفق : سرب فى الأرض ينتهى إلى مكان . والنافقاء : جحرة اليربوع يكتمها ويظهر غيرها ، فإذا أتاه الخطر من جهة لاذ بالأخرى ، ونفاق الدين : ستر الكفر وإظهار الإيمان .

قال ابن منظور : النفاق الدخول فى الإسلام من وجه الخروج عنه من وجه آخر ، مشتق من نافقاء اليربوع ، وقد نافق منافقة ونفاقا ، وقد تكرر فى الحديث ذكر النفاق وما تصرف منه اسما وفعلا ، وهو اسم إسلامى لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به ، وهو الذى يستر كفره ويظهر إيمانه ، وإن كان أصله فى اللغة معروفا .

يقال : نافق ينافق منافقة ونفاقا : وهو مأخوذ من النافقاء لا من النفق ، وهو السرب الذى يستتر فيه لستره كفره .

قال أبو عبيدة : سمى المنافق منافقا للنفق وهو السرب فى الأرض . وقيل : إنما سمى منافقا ، لأنه نافق كاليربوع وهو دخوله نافقاءه . يقال : قد نفق به ونافق ، وله جحر آخر يقال له القاصعاء ، فإذا طلب ـ بضم الطاء وكسر اللام ـ قصع فخرج من القاصعاء ، فهو يدخل من النافقاء ويخرج من القاصعاء ، أو يدخل فى القاصعاء ،

ويخـرج من النافقاء ، فيقال هكذا يفعـل المنـافق ، يدخل فى الإسلام من وجه ثم يخرج منه من غير الوجه الذى دخل فيه .

وقال الجوهرى : والنافقاء إحدى جحـرة اليربوع يكتمها ويظهر غيرها وهو موضـع يرققـه ، فإذا أتى - بضم الهمـزة وكسر التـاء - من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق .

وفى حديث حنظلة : نافق حنظـلة ، أراد أنه إذا كان عند النبى ﷺ ، أخلص وزهـد فى الدنيـا ، وإذا خـرج عنه ترك ما كان عليـه ورغب فيها ، فكأنه نوع من الإظهـار والإبطـان ، ما كان يرضى أن يسـامح به نفسـه . وفى الحديث : أكثر منافقى هذه الأمـة قراؤها ، أراد بالنفـاق الرياء ، لأن كليهما إظهار غير ما فى الباطن .

ففى كل هذه الاستعمالات وغيرها من مادة النفـاق يكمن معنى التخفى ، وهـو ما يسمى فى فقـه اللغـة بدوران المـادة حـول معنى واحـد(١) .

ومن هذه الاستعمالات أخذ العلمـاء اصطلاح النفاق ووضعوه على الشخص الذى يخفى فى نفسـه الكفر ، ويتخذ من الإسـلام ، شعارا ظاهريا يحمى به نفسـه .

وأقرب الاستعمالات إلى الاصطـلاح الإسـلامى نافقـاء اليربوع ، فقد عرف العـرب اليربوع مخادعا مخاتلا ، يجيد حماية نفسه بالمبالغة فى التحفظ والاحتيـاط ، فيتخذ لنفسـه جحـرا ذا فتحتين فى طرفيه ، فإذا أتاه الخـوف من إحداهما وجد المهـرب فى الأخـرى ، وكثيـرا ما يجعل لنفسـه مدخلا واحدا فقط ، ثم يجعـل نهايته بحيث لا يفصلها

(١) راجع هذه المعانى فى كتاب لسان العرب لابن منظور ، مادة نفق : ٤٥٠٧/٦ وما بعدها ، طبعة دار المعارف .

من وجه الأرض إلا حاجز رقيق ، فإذا اقتحم جحره خطر استطاع أن يضرب برأسه هذا الحاجز الرقيق ، فإذا هو حر طليق فى الطرف الآخر من جحره .

وهذه الخصائص التى تميز بها اليربوع فى سلوكه ، كانت معروفة لدى العرب ، وكانت شبيهة بخصائص أولئك الذين عرفهم المسلمون يتفننون فى تغليف كفرهم بأغلفة شتى حتى لا يظهر عليه المسلمون .

فكلمة (النفاق) إذن شأنها فى ذلك شأن ألفاظ أخرى كثيرة نقلها الإسلام من دلالتها اللغوية إلى دلالة شرعية استحدثها . والاشتراك بين الأصل اللغوى والمعنى الشرعى يتمثل فى المصانعة والمداهنة ، وإظهار خلاف ما يبطن الكائن ، وهو شأن اليربوع فى الأصل(٢) .

ثانيا : النفاق فى معناه العام :

فإذا كان النفاق فى معناه الاصطلاحى - عند العلماء - هو إظهار الإيمان وإبطان الكفر ، أمكن أن نقول : إن النفاق فى معناه العام يدل على إظهار الإنسان خلاف ما يبطن فى كل شىء فى العقيدة ، والسلوك ، والتصرفات ، والأحوال فى جميع مجالات الحياة . وهو بذلك يتضمن الدخول فى الإسلام ظاهرا ، وذلك بالنطق بالشهادتين والتظاهر بالإسلام فى حين أنه لا يؤمن به فى باطنه ، كما يتضمن كل تصرف من قول وعمل وسلوك ، ومعاملة فى الحياة من شأنه أن يكون الظاهر فيه مخالفا للباطن فى جميع أحوال الإنسان من المعاملات ، والمحاورات ، والمشاعر ، والعواطف ، والانفعالات ... الخ .

---

(٢) راجع كتاب النماذج الإنسانية فى القرآن الكريم ص ٨٠ تأليف : أحمد محمد فارس ، طبعة دار الفكر .

المبحث الثانى

نشأة النفاق

بالرغم من أن جذور النفاق التاريخية قديمة منذ وجود آدم عليه السلام ، حيث أخفى إبليس عداوته لآدم وزجه وهما فى الجنة ، فتقدم إليهما بثياب الصديق الناصح ، وذكر لهما أن الشجرة التى نهاهما ربهما عن الأكل منها هى شجرة الخلد ، ومن أكل منها صار من الخالدين ، وأصاب ملكا لا يبلى ، وأقسم لهما على ذلك الأيمان ، حتى أكلا منها وعصيا ربهما ، فأخرجهما من الجنة .

قال الله تعالى : (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين)(١) .

وبذلك أطفأ إبليس بعمله ومكيدته التى كادها - شيئا - من نار حسده وبغضه لآدم وزوجه ، وحقده عليهما ، وظل بعد ذلك عدوا لذرية آدم يكيد لهم ، ليقذف بهم فى نار جهنم إذا استجابوا لوساوسه وكفروا بربهم وعصوه .

ولكن ما يهمنا فى هذا المقام هو بيان متى عرف الإسلام النفاق، **وأين نشأ ؟**

وللإجابة على ذلك نقول - وبالله التوفيق - : عرف الإسلام

---

(١) الآيات : من ١٩ - ٢٢ من سورة الأعراف .

اليهود والنفـاق مقترنين . ولم يعـرف الإسـلام المنافقين إلا بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، واحتك المسلمون باليهـود . قال تعـالى : **(وممن حولكم من الأعـراب منافقون ومن أهـل المدينـة مـردوا على النفـاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ..)(٢) .**

وهنا يتبـادر للذهن سؤال ذو أهمية هو : لمـاذا ظهـر النفـاق فى المدينة ، ولم يظهـر فى مكة ؟

وقد أجاب عن ذلك الحافظ ابن كثير بقوله : وإنمـا نزلت صفات المنافقين فى السـور المدنية ، لأن مكة لم يكن فيهـا نفـاق ، بل كان خـلافه ، من النـاس من كان يظهر الكفـر مستكرها ، وهو فى الباطن مؤمن ، فلمـا هاجر رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة ، وكان بها الأنصار من الأوس والخـزرج ، وكانوا فى جاهليتهم يعبدون الأصنام ، على طريقة مشـركى العـرب ، وبها اليهود من أهـل الكتاب على طريقة أسـلافهم ، وكانوا ثلاث قبـائل ، بنو قينقاع حلفـاء الخزرج ، وبنو النضـير ، وبنو قريظة حلفـاء الأوس ، فلمـا قدم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة، وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتى الأوس والخزرج، وقل من أسلم من اليهـود إلا عبد الله بن سلام ـ رضى الله تعـالى عنه ـ ولم يكن إذ ذاك نفـاق أيضـا ، لأنه لم يكن للمسلمين بعد شـوكة تخاف ، بل قد كان عليه الصـلاة والسلام وادع اليهود وقبـائل كثيرة من أحياء العرب حـول المدينـة .

فلمـا كانت وقعـة بدر العظمى ، وأظهـر الله كلمتـه ، وأعلى الإسلام وأهله ، قال عبد الله بن أبى بن سلول ، وكان رأسا فى المدينة

---

(٢) الآية : ١٠١ من سـورة التـوبة .

وهو من الخزرج ، وكان سيد الطائفتين فى الجاهلية ، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم ، فجاءهم الخير وأسلموا ، واشتغلوا عنه ، فبقى فى نفسه من الإسلام وأهله شىء ، فلما كانت وقعة بدر قال : « **هذا أمر قد توجه** »(٣) فأظهر الدخول فى الإسلام ، ودخل معه طوائف ممن هم على طريقته ونحلته ، وآخرون من أهل الكتاب ، فمن ثم وجد النفاق فى أهل المدينة ومن حولها من الأعراب(٤) .

ويؤكد هذا المعنى محمد عزة دروزة فيقول : وعلة ظهور تلك الحركة فى المدينة واضحة ، فالنبى ﷺ والمسلمون الأولون فى مكة لم يكونوا من القوة والنفوذ فى حالة تستدعى وجود فئة من الناس ترهبهم أو ترجو خيرهم ، فتتملقهم وتتزلف إليهم فى الظاهر ، وتتآمر عليهم وتكيد لهم وتمكر بهم فى الخفاء ، كما كان شأن المنافقين بوجه عام .

ولقد كان أهل مكة وزعماؤها خاصة يناوئون النبى جهارا ، ويتناولون من استطاعوا من المسلمين بالأذى الشديد ، ويقاومون الدعوة الإسلامية بكل وسيلة دون ما تحرز أو تحفظ ، وكانت القوة لهم حتى اضطر المسلمون إلى الهجرة فرارا بدينهم ودمهم إلى الحبشة أولا ، ثم إلى يثرب ، وحتى فتن بعضهم عن دينه بالعنف والإكراه ، أو بالإغراء والتهويش ، وحتى تزلزل بعضهم وتبرم ونافق المشركين ، وحتى مات بعض من ناله الأذى ممن ثبت على دينه نتيجة للتعذيب .

---

(٣) يعنى تولى وانقضى . ويعنى بالأمر ملكه .

(٤) راجع تفسير القرآن العظيم له : ٧٢/١ طبعة دار الشعب .

أما فى المدينة فقد كان الأمر مختلفا جدا . فالنبى - ﷺ - استطاع قبل أن يهاجر إليها أن يكسب أنصارا أقوياء من الأوس والخزرج ، ولم يهاجر إلا بعد أن استوثق من موقفه ، ولم يبق تقريبا بيت عربى فيها لم يدخله الإسلام .

ففى هذه الحالة لم يكن من الهين أن يقف الذين لم يؤمنوا به - إما عن جهالة وغباء ، وإما عن غيظ وحقد وعناد ، لأنهم رأوا فى قدوم النبى ﷺ حدا لنفوذهم وسلطانهم - موقف الجحود والعداء العلنى للنبى والمسلمين من المهاجرين والأنصار .

وكان للعصبية فى الوقت نفسه أثر غير قليل فى عدم الوقوف هذا الموقف ، لأن سواد الأوس والخزرج أصبحوا أنصار النبى ، ومرتبطين به بمواثيق الدفاع والنصر ، إلى أن جلهم قد حسن إسلامهم، وغدوا يرون فى النبى رسول الله ، وقائدهم الأعلى الواجب الطاعة ، ومرشدهم الأعظم الواجب الاتباع ، فلم يكن يسع الذين ظلت تغلبهم نزعة الشرك ، ويتحكم فيهم مرض القلب ، والمكابرة والحقد ، ويحملهم ذلك على مناواة النبى - ﷺ - ودعوته ونفوذه - أن يظهروا علنا فى نزعتهم وعدائهم ، ولم يكن أمامهم إلا التظاهر بالإسلام ، والقيام بأركانه ، والتضامن مع قبائلهم ، وجعل مكرهم وكيدهم ودسهم ومؤامراتهم بأسلوب المراوغة والخداع والتمويه (٥) .

يتبين لنا من خلال هذا الكلام أن ميزان التفاوت فى القوة بين المسلمين وأهل مكة لم يكن يستدعى ظهور النفاق ، بمعنى أن

---

(٥) راجع : سيرة الرسول ﷺ ، صورة مقتبسة من القرآن الكريم له : ٧٣/٢ ، طبع مطابع الدوحة الحديثة . الطبعة الثالثة ١٤٠٠ هـ .

أهـل مكة فى فترة الصراع بينهم وبين المسلمين كانوا هم أصحاب الشوكة والقـوة ، ولم تكن أمام الأفـراد قوة يخشونها حتى ينافقوها ، ولكن لما تغير هذا الميزان فى صف المسلمين بعد هجرتهم إلى المدينة ظهـر النفـاق فى أهـل المدينة حيث حـرص بعض الأفـراد على كفـرهم ، ولكنهم فى نفس الوقت يخشـون قوة المسلمين ، فاضطروا إلى النفاق معهم ، يظهرون لهم الإسـلام ليأمنوا قوتهم ، ويكشفوا للكافرين حقيقتهم لئلا تنقطـع بينهم المنفعـة والأواصـر .

وقد تبدو هذه الإجابة مقبولة فى ظاهرها ، ولكن الواقـع لا يسلم بهـا من جهتـين :

إحداهما : أن النفـاق كما يؤكد التـاريخ الإسـلامى ظهـر فى المدينة منذ أن وصـل إليهـا المسلمون ، وقبل أن يصبح الإسـلام فيهـا قوة مخيفـة ، أو قوة غالبـة ، ظهـر النفـاق وما زال الكافـرون هم القـوة الكبرى التى لا تخشى المسلمين ، ولا تضطر إلى منافقتهم ، وظهر النفـاق أيضـا فى أشخاص كانوا من القـوة والسيادة فى أقوامهم بحيث يملكون إظهـار كفـرهم وعدائهم للإسـلام دون أن يضطروا إلى النفاق ولو فى بعض فترات نفاقهم ، كعبد الله بن أبى بن سلول الذى يقول عنه الرواة : « قدم النبى ﷺ المدينة وسيد أهلها عبد الله بن أبى بن سلول لا يختلف عليـه فى شرفه اثنـان ، لم تجتمـع الأوس والخـزرج قبله ولا بعده على رجـل من أحد الفريقين .. وكان قـومه قد نظمـوا له الخـرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم »(٦) .

---

(٦) السـيرة النبوية لابن هشـام : ١٦١/٢ تحقيـق : محمـد فهمى السرجانى ، طبعة دار التوفيقية .

ومع هذا السلطان وهذه السيادة التى قلما حظى بها سيد فى العرب لم يقاوم عبد الله بن أبى الإسلام ، كما قاومته أهل مكة ، وإنما استكان فى كفره مليا ، ثم لجأ إلى النفاق غير ملجأ ولا مضطر إليه .

والجهة الأخرى : التى تجعل الواقع لا يسلم بالإجابة السابقة ، هى أن ميزان القوة بين كفار قريش والمسلمين قد انقلب منذ فتح المسلمون مكة ، وأصبح المسلمون هم القوة الوحيدة ، وأصبح أهل مكة جميعا فى قبضتهم ، ومع ذلك لم ينافقوا ، مع أن الإسلام لم يفرض عليهم حينئذ طفرة واحدة ، بل ظلوا فترة معينة ، وكل ما يطلب منهم هو عدم مقاومة المسلمين ، دون أن يجبر أحد منهم على الإسلام ، ومع هذا لم يحدثنا التاريخ عن ظهور نفاق قط بينهم، بل أسلم من أسلم منهم غير ملتو بإسلامه ، وظل من ظل منهم على كفره لا يستخفى به ، ولا يتلون فيه .

وهذه الصراحة التى اتصف بها أهل مكة فى عقيدتهم إيمانا أو كفرا ، لم تقتصر عليهم وحدهم ، بل أثبت العرب جميعا أن هذه الصراحة هى خلقهم فى كل مراحل صراعهم مع الإسلام ، وقد يكون هناك من دخلوا فى الإسلام بقوة الإسلام ، وعدم القدرة على مقاومته، ولكن لم يلتووا فى إسلامهم ، وإنما أسلموا إسلام المؤمن المعتقد .

وبعد وفاة النبى ﷺ ثارت فى النفوس عصبيات جاهلية ، وتنافس قبلى ، حين ظنت بعض القبائل - فى جهلها وبعدها عن الإحساس بروح الإسلام من موطن علمائه - أن الإسلام يحقق لقريش مجدا تتعالى به على القبائل ، وحين ظنت بعض القبائل الأخرى أن الزكاة مغرم مالى يجبى منهم لمصلحة قريش وبعض الناس ، ونحو ذلك من

الجهالات التي أدت إلى ردة العرب عن الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ ، بحيث لم يبق على الإسلام إلا مكة والمدينة ، وليس يعنينا من هذه الأحداث إلا أنها مظهرا لصراحة العرب فى عقيدتهم .

فقد أسلموا حين أسلموا مصارحين ، وارتدوا حين ارتدوا بوجه واحد أيضا ، ثم عادوا للإسلام مرة أخرى مصارحين غير منافقين ، وقد كان يمكن لهم فى بعض هذه الأحوال أن ينافقوا ، ولكنهم يؤثرون الصراحة سواء فى الكفر أو الإيمان .

ولكن النفاق نبع من المدينة وما حولها من الأعراب **كما قال الله تعالى : (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ..)**(٧) . وهذا لا ينفى وجوده فى أماكن أخرى سواء من العرب أو من غيرهم ، بل لابد أن يكون ، ولكن فى نطاق الشذوذ الفردى الذى لا يخلو منه مجتمع، ولا تشذ عنه قاعدة ، أما فى المدينة وما حولها فكان النفاق ظاهرة اجتماعية واضحة الكيان وواضحة الأثر أيضا .

ولما كان النفاق يقوم أساسا على فقدان الفرد الاستعداد للعقيدة فى طبعه ، ولما كان اليهود تنطبق عليهم هذه الصفة بصورة عامة ، ولما كانت المدينة وما حولها هى الموطن الرئيسى لتجمع اليهود فى الجزيرة العربية .

يمكن أن نفهم لماذا كانت المدينة وما حولها موطن النفاق ومنبعه فى الجزيرة العربية ؟ فالحقيقة كما يؤكدها التاريخ أن أول من سن

---

(٧) الآية : ١٠١ من سورة التوبة .

خلق النفـاق فى علاقته بالإسـلام هم اليهود ، وقد راق هـذا الخلـق لبعض العـرب من الأوس والخزرج والأعـراب القريبين من المدينـة ، فالتفوا حول اليهـود ، وتكونت منهم جبهة النفاق ضد الإسلام(٨) ٠

فالسبب الرئيسى فى ظهور النفاق والمنـافقين فى المدينة وانتشاره منهـا يرجع إلى طوائف اليهود التى كانت بها ، فان لليهـود تاريخا قديما وعريقا فى النفـاق ، وتدبير الدسائس والمكائد وإشعال الفتن ٠ هكذا كانوا منذ آلاف السنـين ولا يزالوا كما كانوا منتشرين فى أغلب بقـاع الأرض ٠ ويدل على ذلك ما ورد فى أسفارهم وفى التلمـود ، وما رواه التاريخ منذ عهد الفراعنة إلى الآن ٠

ومما ورد فى أسفار العهد القديم ما جاء فى الاصحاح التاسع من سفر إشعياء ما نصـه : « **وصـار مرشدوا هذا الشعب (السياق يفيـد انه شعب اسرائيل) مضلين ومرشدوه مبتلعين ٠ لأجـل ذلك لا يفرح السيد بفتيـانه ، ولا يرحم يتاماه وأرامله ، لأن كل واحد منهم منـافق وفاعل شر ، وكل فم يتكلم بالحمـاقة** »(٩) ٠

هذا وقد بين القـرآن أن اليهود اتخذوا من النفاق شريعة ومذهبا، فقال الله تعـالى : (**وقالت طائفـة من أهـل الكتاب آمنـوا بالذى أنزل**

---

(٨) راجع : كتاب أسـلوب السخـرية فى القـرآن : ص ٢٨١ ، ٢٨٢ للدكتور/ عبد الحليم حفنى طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ م ٠

(٩) انظر : الكتاب المقدس (إشعياء) الاصحاح التاسع ص ١٠٠٢ ، وكتاب النفاق والمنافقون فى عهد رسول الله ﷺ ودور اليهـود : ص ٧٦ للأستاذ ابراهيم على سالم طبعة دار الشعب ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م ٠

على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون)(١٠) ٠

وليس المقصود فى هذه الآية التقسيم الزمنى حقيقة ، بأن يؤمنوا فى وقت من النهـار ، ويكفـروا فى وقت آخـر ، وإنمـا المقصود أن يظهروا الإيمان حيث يخالطون الناس ، ليظهـروا أنهم مسلمون معهم ، وأن يظهروا على حقيقـة كفـرهم حين يخلون إلى أنفسهم ، أو يخلو بعضهم إلى بعض ، وهذا التناقض بين ما يبدو كأنه إيمـان حقيقى ، ثم ينقلب إلى كفـر حقيقى فى يوم ، بل فى نهـار واحـد شىء مثير للعجب ، ولكثير من المشـاعر ٠

ويروى المفسرون فى ذلك أنه : « **تواطأ اثنـا عشر رجلا من أحبار يهـود خيبر ، وقـرى عرينة ، وقال بعضهم لبعض : ادخلوا فى دين محمـد ـ أول النهـار ـ باللسـان دون الاعتقاد ، واكفـروا به آخـر النهـار ، وقولوا إنا نظـرنا فى كتبنا ، وشاورنا علمائنا فوجدنا محمدا ليس بذاك ، وظهـر لنا كذبه وبطـلان دينه ، فإذا فعلتم ذلك شـك أصحابه فى دينهم ، فقالوا : إنهم أهـل الكتاب وهم أعلم به ، فيرجعون عن دينهم إلى دينكم** »(١١) ٠

وروى أنهم فعـلوا ذلك عمـلا ولم يقفـوا عند حد القول ، فقد أخـرج ابن جـرير عن مجاهد قال : « **صلت يهـود مع محمد ـ ﷺ ـ صـلاة الصبح ، وكفـروا آخـر النهـار مكـرا منهم ، ليروا الناس أن قد بدت لهم منـه الضـلالة بعد أن كانوا اتبعوه** »(١٢) ٠

---

(١٠) الآية : ٧٢ من سـورة آل عمـران ٠

(١١) راجع تفسير روح المعانى للآلوسى : ١٩٩/٣، ٢٠٠ طبعة مصورة عن طبعة دار التراث ٠

(١٢) انظر : تفسير جامع البيان له : ٢٢٢/٣ طبعة دار الفكر ـ بيروت

ومن الآيات التى تبين أن النفاق كان إحدى خصائص اليهود قوله تعالى : (وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون) (١٣) .

فهذه الآية تبرز إحدى الخصائص التدميرية التى استعملوها فى إفساد الحقائق ، وتهديم الأخلاق ، وهى صفة (النفاق) والتلون بلون المواقف والأحداث ، مع الإصرار على الكفر الباطن فى كل حال !!

ومن تلكأ ، أو تردد فى فهم هذه الخصوصية الأساسية عند اليهود فقد تردى فى حبال خديعتهم اللئيمة ، ولذا يأتى ختام الآية الكريمة يستنفر العقيدة فى القلوب ، لتسارع بالفهم عن ربها الذى يعلم السر وأخفى ، والذى بين أعماق هذه النفسية المظلمة بيانا بالحق والعدل(١٤) .

ويزيد ابن هشام الأمر وضوحا فيحصر أسماء المنافقين من اليهود فيقول : وكان ممن تعوذ بالإسلام ، ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق من أحبار يهود ، ثم يذكر أسماءهم .

ثم يؤكد تضمينا وتصريحا أن المنافقين من العرب كانوا يلتفون حول هؤلاء الأحبار من اليهود ، ويتخذون منهم معلما للنفاق ، وركنا يأوون إليه ، حيث يقول : « وكان ممن انضاف إلى يهود ممن

---

(١٣) الآية : ٦١ من سورة المائدة .

(١٤) معركة الوجود بين القرآن والتلمود : ص ١٤٤، ١٤٥ للدكتور / عبد الستار فتح الله سعيد ، طبعة ثالثة بمطبعة دار الطباعة والنشر الإسلامية ، ١٤٠٥ هـ .

سمى لنا من المنافقين من الأوس والخزرج » ، ثم يذكر أسماءهم(١٥) أيضا .

وكانهم كانوا يعرفون أن مجرد حب شخص لليهود يوحى بالشك فى عقيدته واتهامه بالنفاق ، فيتحدث عن شخص من بنى عبد الأشهل فيقول : « ولم يكن فى بنى عبد الأشهل منافق ولا منافقة يعلم ، إلا أن الضحاك بن ثابت أحد بنى كعب رهط سعد بن زيد قد كان يتهم بالنفاق وحب يهود »(١٦) .

وهذا حسان بن ثابت يجعل كل جريمة الضحاك بن ثابت حبه لليهود ويتهمه فى دينه لذلك فيقول :

ومن مبلغ الضحاك أن عروقه

أعيت على الإسلام أن تتجمدا

أتحب يهدان الحجاز ودينهم

كبد الحمار ولا تحب محمدا

دينا لعمرى لا يوافق ديننا

ما استن آل فى الفضاء وخودا(١٧)

وصدر سورة البقرة صريح فى الحديث عن النفاق ، وصريح فى الإشارة إلى أن معلمى النفاق ، هم اليهود ، شياطين التلون الذين يلجأ إليهم المنافقون من العرب يتعلمون منهم ويتعاضدون بهم ، حيث قال تعالى : (**وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا**

---

(١٥) السيرة لابن هشام : ٢/١٠٣ - ١١٠ .

(١٦، ١٧) السيرة لابن هشام : ٢/١٠٩ .

إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون) (١٨) ٠

فالشياطين هم اليهود الذين كانوا يأمرونهم بالتكذيب ، ومنهم كعب بن الأشرف من بنى قريظة ، وأبى بردة من أسلم ، وعبد الدار فى جهينة ، وعوف بن عامر فى بنى أسد ، وابن السوداء فى الشام ٠ والقائلون لهم سائر المنافقين ، كما يقول الآلوسى : والمعية معنوية ، وهى مساوتهم فى اعتقاد اليهودية ، وهى أم الخبائث (١٩) ٠

ويقول الزمخشرى : (إنا معكم) معناه الثبات على اليهودية (٢٠)

وعن صلة المنافقين من العرب باليهود يقول ابن حزم : « وكفر جمهور اليهود وظاهرهم قوم من الأوس والخزرج منافقون يظهرون الإسلام مدارة لجمهور قومهم من الأنصار ، ويسرون ما يسخط الله تعالى من الكفر » (٢١) ٠

ونخلص من هذا كله إلى أن اليهود هم أول من تلقى الإسلام بخلق النفاق ، وأن المنافقين العرب إنما كانوا متأثرين بخلق اليهود فى طول عشرتهم ، ومتخذين منهم معلمين للنفاق ، وملجأ يأوون إليه ، ويدرسون فيه خططهم ، ومكايدهم ضد الإسلام ٠

وكل ذلك ما زال قائما حتى يومنا هذا ، فخلق النفاق حيلة مهرها اليهود مهارة فائقة ، وهم يعرفون كيف يوجهون ذرارى منافقيهم

---

(١٨) الآية : ١٤ من سورة البقرة ٠

(١٩) راجع تفسير روح المعانى : ١٥٧/١ ٠

(٢٠) تفسير الكشاف له : ٥٠/١ ، طبعة المكتبة التجارية الكبرى ، الطبعة الثانية ٠

(٢١) انظر : جوامع السيرة له : ص ٩٩ تحقيق : احسان عباس ، د/ ناصر الأسد ، طبعة دار المعارف ٠

داخل الأمم الأخـرى ، ويعرفون كيف ينتقون منهم من يقوم بدور الكيد العظيم دون أن تنكشف يهوديته الحقيقية المخفيـة ، وقد اتخذوا حيلة النفـاق هذه بشـكل واسـع جدا ضد النصـارى وضد المسلمين ، لأنهما الأمتـان اللتان حقد عليهما اليهـود حقدا كبيرا ، وأرادوا كيدهما كيدا عظيمـا(٢٢) .

ويؤكد الدكتور / عبد الحليم حفنى على أن خلق النفـاق أمـر طبعى عند اليهـود فيقول : « إن خلق اليهود بطبيعته أقـرب ما يكون إلى النفـاق ، وليس فى هذا الحكم تحامل طائفى أو عنصرى ، وإنما حقيقة يؤديها تاريخهم الطويل .

فالنفـاق كما قلنا يعتمد على دعامتين ، **إحداهما** : تجرد صاحبه من الشعور الدينى وما يستتبعه من المبـادىء والمثـل . **والأخـرى** : نظرته النفعية المـادية إلى كل ما يعرض له . واليهود وإن كنا لا نستطيع أن نقول بتجردهم من الشعور الدينى ، إلا أننا نقول إنهم لا يأخذون الدين مأخذ الروحيـة ، وإنما يأخذونه مأخذ المـادية النفعيـة ، فهم حين عرض عليهم الإيمـان بالله ، لم يستطيعوا أن ينظروا إليـه نظـرة روحية كما فعـل غيرهم من الشعوب ، بل أصروا على النظرة المـادية المحسوسة ، وقالوا : (**لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**) (٢٣) .

وحتى بعد دخولهم الدين أصـروا على أن ينظروا إلى ذات الله سبحانه نظـرة مادية نفعية ، فقالوا دون غيرهم من أصحاب الأديان

---

(٢٢) كتاب غـزو فى الصميم : ص ١٨٩ تأليف : عبد الرحمن حسن حنبكة الميدانى ، طبعة دار القلم ، دمشق ـ ١٤٠٥ هـ .

(٢٣) من الآية : ٥٥ من سـورة البقـرة .

كما وصفهم القـرآن الكريم : (**وقالت اليهود يد الله مغلولة ..**)(٢٤) كنـاية عن البخـل ، أى كل ما كانوا ينظرون به إلى الله سبحانه هو نظرة نفعية مادية ، ورفضوا كل تضحية فى سبيل دينهم دون أصحـاب الأديان جميعا ، فقالوا لنبيهم : (**فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قـاعـدون**)(٢٥) .

وأخيرا ارتدوا عن دينهم ، لا ليعتنقوا دينـا آخـر ، ولا ليدينوا حتى بدين باطل كما فعـل مرتدو العـرب ، وإنما ارتدوا ليعبدوا الذهب فى صـورة عجل ، حين اتخذ لهم السـامرى : (**من حليهم عجلا جسدا له خـوار ..**)(٢٦) ، وهم فى الواقـع لم يعبدوا العجـل ، وإنمـا عبدوا الذهب ، بالنظـرة النفعية نفسها ، وتقديس اليهـود للمـال ، وتضحيتهم فى سبيله بكل المثـل والفضـائل معـروف فى كل أنحـاء العـالم . وهذا المضمون فى طبيعتهم وأخلاقهم ، وإن لم يكن هو النفاق إلا أنه أقرب ما يكون إلى النفـاق »(٢٧) .

وإن كان النفـاق خلقـا طبعيـا لدى اليهـود إلا أن ذلك لا ينفى وجود الاستعداد الطبعى أيضـا عند بعض العرب ، ولكننا لو افترضنا عدم وجود اليهود فى بيئتهم ، لكان من المنطقى أن نقيسهم على غيرهم من العـرب ، والعـرب كما هو واضح لم يتضح النفـاق فيهم كظاهرة اجتماعية ، فكان المسلم به منطقيا أن يأخذ عرب المدينة وما حولهـا حكم سـائر العرب ، لأنهم جميعـا عنصـر واحد ، والعنصـر الواحد

(٢٤، ٢٥) من الآية ٦٤ ، ٢٤ من سورة المـائدة .

(٢٦) من الآية : ١٤٨ من سـورة الأعـراف .

(٢٧) أسلوب القـرآن في كشف النفاق له : ص ٢٦، ٢٧ ، **طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب** .

يلاحظ فيه اشتراكه فى الخصائص العامة كما يقرر ذلك علماء النفس والاجتماع .

وحيث اشترك العرب فى صفة الصراحة فى العقيدة ، فليس من المعقول أن تشذ جماعة منهم عن هذه الصفة - كعرب المدينة - إلا بسبب خارجى أو محدود ، ولسنا نجد سببا لشذوذ عرب المدينة وما حولها عن خلق العرب إلا مجاورتهم لليهود وتأثرهم بهم .

وتقليد الغير والتأثر به قانون اجتماعى لا يشذ عنه الأفراد ولا الجماعات ، فلا تخلو مخالطة بين فردين أو مجتمعين من التأثر أو التأثير ، ولذلك لم يكن عجيبا أن يتأثر خلق أهل المدينة بخلق اليهود ، وأن يساعد هذا التأثر على ظهور النفاق فى عدد كبير من أهل المدينة ، بعضهم من العرب وبعضهم من اليهود .

وحتى الأمثلة والحكم الشعبية العامة تعرف هذا القانون الاجتماعى فى التأثر والتأثير بالمجاورة والمخالطة ، فمن هذه الأمثلة الشائعة : « من جاور القوم أربعين يوما صار منهم »(٢٨) على أن مجاورة المنافقين لليهود لم تكن مجرد مواطنة ، وإنما كانت تتسم فى كثير من الأحيان بالصلاة الشخصية كما تحدثنا الروايات ، فمن ذلك **ما يروى من أن النبى صلى الله عليه وسلم حين عاد عبد الله بن أبى ابن سلول فى مرض موته قال له « أهلكك حب يهود »(٢٩) . وفى رواية أخرى : « قد كنت أنهاك عن حب يهود »(٣٠) .**

---

(٢٨) المصدر السابق .

(٢٩) انظر : تفسير ابن كثير : ١٣٤/٤ ، وفتح البارى لابن حجر : ١٨٥/٨ .

(٣٠) مسند الإمام أحمد : ٢٠١/٥ ، وتفسير ابن كثير : ١٢٦/٣ .

المبحث الثالث

أسباب النفاق

لعله من الواضح بعد أن عرفنا نشأة النفاق ، وأهم جذوره ، وأنه خلق طبعى عند اليهود ، تأثر به بعض عرب المدينة ومن حولها من الأعراب . أن الأسباب الظاهرة للنفاق هى وقوف الإسلام عقبة أمام آمال شخص أو قوم لا يستطيعون تحطيم هذه العقبة علانية ، فيحاولون أن ينخروا فيها لتنهار من حيث لا يظهرون ، حتى تخلو لهم الطريق إلى آمالهم .

حيث كان اليهود يستفتحون على جيرانهم العرب من الأوس والخزرج مفاخرين إياهم بأنه سيظهر منهم نبى يجعل لهم الغلبة والسلطان والمجد على العرب ، وإذ بالنبى يظهر من العرب لا من اليهود . فقد روى ابن اسحاق بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ قال : « أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه . فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه . فقال لهم معاذ بن جبل ، وبشر بن البراء ابن معرور ، أخو بنى سلمة : يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك ، وتخبروننا بأنه مبعوث ، وتصفونه لنا بصفته . فقال سلام بن مشكم أخو بنى النضير : ما جاءنا بشىء نعرفه ، وما هو بالذى كنا نذكر لكم ، فأنزل الله فى ذلك من قولهم : (**ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم**

ما عرفوا كفـروا به فلعنـة الله على الكافرين) (١) ٠

نعم ظهـر النبى ﷺ من العـرب لا من اليهود ، وانقلب الحال ، وأصبح الأوس والخـزرج والعـرب عموما هم أصحاب المجد والغلبـة والسلطان ، لا اليهـود كما كانوا يأملون ، وماذا يفعـل اليهود وليس فى استطاعتهم تحطيم الإسـلام الذى خيب أمالهم ، وعكس آمانيهم ، ماذا يفعـلون ، وليس فى مقدورهم تحطيمه علانية أو مواجهة ؟

إذن ليس أمامهم إلا النفـاق الذى يستطيعـون من خلف أستاره أن يحققوا ما يريدون ، وأن يدبروا فى ظلمـاته أكثر مما يدبرون فى وضح النهـار ، حيث يظهـرون للمسلمـين أنهم مسلمـون مثلهم ، ثم يستديرون فيطعنـوهم فى الظهـور ، ويكتسبون مـن مظهـر النفـاق سـلاحا آخـر ، حين يختلطون بالمسلمـين ، فيعـرفون من أخبـارهم وأحوالهم ما يشـاءون ، ويروجون بينهم من الفتن ما يستطيعون ٠

وكذلك الأمـر بالنسبة لبعض الأفـراد ، فقد كان منهم من له آمال ومنـافع ، رأوا الإسـلام حائلا بينهم وبينها ، وذلك مثل عبد الله بن أبى بن سلول الذى أوشك أن يكون ملكا على الأوس والخـزرج ، فجـاء الإسلام فبدد آماله ، بعد أن كان قومه قد نظموا له الخـرز ليتوجـوه ملـكا عليهم ٠

قال ابن هشـام : فأما عبد الله بن أبى فكان فى قـومه قد نظمـوا له الخـرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله تعـالى برسول الله ﷺ ، وهم على ذلك ، فلمـا انصـرف قـومه عنه إلى الإسلام ضغن ،

---

(١) انظر : تفسير القـرآن العظيم لابن كثير : ١٧٨/١ ، وسيرة ابن هشام : ١٢٨/٢ ، والآية : ٨٩ من سورة البقرة ٠

ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكا ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارها مصرا على نفاق وضغن(٢) .

فعبد الله بن أبى لم تطب له نفسه عن الإسلام الذى دخل فيه ، لأنه رأى فيه خيبة لآماله ، ولم يستطع أيضا أن يقاومه علانية ، لأنه لم يجرؤ على ذلك ، فسلك طريق النفاق ، وانحاز إلى اليهود، وصار بعد ذلك زعيم المنافقين العرب ، وحلقة الاتصال بينهم وبين اليهود ، ومن الرءوس البارزة فى كل فتنة ضد الإسلام ، ومنها فتنة الإفك الذى رميت به السيدة عائشة زوج النبى ﷺ ، فهو الذى تولى كبره ، كما أخبرت هى بذلك رضى الله تعالى عنها حيث قالت : « وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبى بن سلول فى رجال من الخزرج »(٣) وهو الذى توعده الله تعالى بقوله : (**والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم**)(٤) .

إذن : فأهم الأسباب التى كانت تدفع المنافقين إلى النفاق ، هى خيبة أمل مصدرها الإسلام فى رأيهم ، مع عدم القدرة على مقاومته بالمواجهة ، ولا يلزم فى عدم القدرة أن يكون عجزا أو ضعفا حقيقيا ، بل هو عدم القدرة النفسية ، بمعنى فقدان الجرأة على المواجهة بالعداء ، وعدم الجرأة لا يلزم فيه الضعف المادى ، أو الكمى ، فقد يكون أحد الخصمين أكثر عددا وعتادا ، ولكنه يفتقد الشجاعة والجرأة، ويكون خصمه أقل منه عددا وعتادا ، ولكنه يتمتع بالشجاعة والإقدام، فيكون هو صاحب القوة الحقيقية ، وهكذا كان الوضع بين المسلمين وأعدائهم من المنافقين بالمدينة فى أول عهدهم .

---

(٢) السيرة لابن هشام : ١٦١/٢ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢١٤/٣ .
(٤) من الآية ١١ من سورة النور .

فقد كان المسلمون قلة فى العدد والعتاد والمال أول أمرهم ، بينما كان المنافقون على اختلافهم من اليهود والعرب فيهم كثرة العدد، وفيهم السلطة التقليدية كما كان عبد الله بن أبى ، وفيهم الثراء من أموال اليهود ، ولكنهم جميعا جبنوا عن مواجهة هذه القلة القليلة من المسلمين ، ولم يواجهوهم بمقاومة صريحة ، أو عداء مكشوف ، ولجئوا إلى التظاهر بالإسلام ، والقيام بأركانه ، والتضامن مع قبائلهم . وجعلوا مكرهم وكيدهم ودسهم ومؤامراتهم بأسلوب المراوغة والخداع والتمويه .

وإذا كانوا وقفوا أحيانا مواقف علنية فيها كيد ودس ، وعليها طابع من النفاق بارز ، فانما كان هذا منهم فى بعض الظروف ، والأزمات الحادة التى كانت تحدق بالنبى والمسلمين ، والتى كانوا يتخذونها حجة لتلك المواقف بداعى المصلحة والمنطق والاحتياط ، ولم يكونوا على كل حال يعترفون بالكفر أو النفاق ، غير أن نفاقهم وكفرهم فى الكيد والدس والتآمر لم تكن لتخفى على النبى ﷺ والمخلصين من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، كما أن المواقف العلنية التى كانوا يقفونها فى فرص الأزمات كانت مما تزيد من كفرهم ونفاقهم فضيحة ومقتا . وقد كانت الآيات القرآنية توجه إليهم كذلك الفضائح المرة بعد المرة ، وتدل عليهم بما يفعلون أو يمكرون ، وتدفعهم بشرورهم وخبثهم ومكايدهم ، وتحذر النبى ﷺ والمسلمين منهم فى كل ظرف ومناسبة.

وبالرغم من أن هذه الأسباب التى يكاد يجمع عليها العلماء من المفسرين وغيرهم إلا أن الدكتور / عبد الحليم حفنى يرى أنها لا تصلح أن تكون علة مقبولة مقنعة للنفاق ، لأن هذه الأسباب وما يشابهها لم

يقتصر الشعور بها على الذين نافقوا وحدهم ، وإنما شاركهم فيها أعداء آخرون للإسلام ، ومع ذلك لم ينافقوا ، وأن السبب الحقيقى للنفاق ، هو فقدان غريزة التدين والاعتقاد طبعا وتكوينا عند المنافقين، بمعنى أنهم ولدوا فاقدين لهذه الغريزة ، وأن هذا من باب الشذوذ الطبعى فى الإنسان .

حيث قال بعد كلام طويل فى هذا الصدد : « ومن هنا يمكن أن نقول : إن النفاق هو فقدان هذه الغريزة الفطرية للتدين والاعتقاد عند المنافقين ، وذلك من باب الشذوذ الطبعى فى الإنسان، بمعنى أنه بينما يحمل الناس فى طبعهم وبفطرتهم غريزة الشعور بالإله واعتقاد وجوده ، نجد المنافق فاقدا لهذه الغريزة أصلا وتكوينا ، وهو حينئذ شاذ عن الفطرة السوية للبشر »(٥) .

ودلل فضيلته على ذلك بأن مبدأ الشذوذ غير منازع فيه ، لأنه فى كل قاعدة ، وفى كل أمر ، وقد شاءت سنة الله تعالى فى خلقه ألا يخلو أمر من الشذوذ ، ثم قال : « وإذا كان الشأن فى الناس أن يكونوا عقلاء ، ولكن منهم من يشذون فيولدون مجانين ، وأن يكونوا ذوى حواس سليمة ، ولكن منهم من يشذون فيولدون فاقدين لبعض هذه الحواس كالسمع أو البصر ، وكذلك الأمر فى العقيدة فحيث كان الشأن فى الناس أن تكون لديهم غريزة التدين والاعتقاد ، فان منهم من يشذون فيولدون فاقدين لهذه الغريزة »(٦) .

---

(٥) راجع أسلوب السخرية فى القرآن ص ٢٩٢ .
(٦) المصدر السابق .

ونقول إن هذا الكلام مردود من عدة وجوه :

الأول : لو كان الأمر كما قال فضيلته ، إذن فالمنافقون لا حساب عليهم ولا عقاب ، لأن من شذ من البشر فولد مجنونا لا يحاسب على أفعاله ، ومن شذ منهم فولد فاقدا للبصر أو السمع لا يعاب عليه ، ولا يكلف إلا بقدر طاقته ، كما قال الله تعالى : **(لا يكلف الله نفسا الا وسعها ...)(٧) وقال تعالى : (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض ...)(٨) .**

وأما قوله : بأن الله تعالى سيحاسب المنافق على نفاقه كما يحاسبه على نوازع الشر فيه التى تدعوه إلى أن يسلك سلوكا ملائما لها وهو الشر(٩) .

فنقول : إن هذا قياس مع الفارق ، لأن هذه النوازع الشريرة فى الإنسان يقابلها نوازع خيرية أخرى ، والضوابط التى حددها الشرع ، أو خلقها الله تعالى فى الانسان كالعقل - والإرادة - هى التى تحدد سلوك الإنسان نحو الخير أو الشر تبعا لنوازعه ، فهو يحاسب من أجل ذلك ، **كما قال الله تعالى : (ونفس وما سواها . فالهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها)(١٠) وقال تعالى : (وهديناه النجدين)(١١)** ، وهذا غير النفاق ، لأن نزعة النفاق عند المنافقين - على حد قوله - لا يوجد لها مقابل ، وهى نزعة الاعتقاد سواء كانت هذه النزعة الاعتقادية صحيحة أو باطلة .

---

(٧) من الآية ٢٨٦ من سورة البقرة .
(٨) من الآية ١٧ من سورة الفتح .
(٩) اسلوب السخرية فى القرآن ص ٣٠١ .
(١٠) الآيات ٧ - ١٠ من سورة الشمس .
(١١) الآية ١٠ من سورة البلد .

الثانى : أن الإسلام قد أتى هؤلاء المنافقين وهم على عقيدة من العقائد ، فالمنافقون من اليهود كانوا على يهوديتهم ، والمنافقون من العرب كانوا على عقيدة الشرك وعبادة الأوثان . فلما رأوا أن الإسلام قد حال بينهم وبين آمالهم دخلوا فيه ظاهرا وهم على عقيدتهم التى كانوا عليها ، ولذلك عرف العلماء النفاق فى الشرع بأنه : إظهار الإيمان وإبطال الكفر(١٢) .

الثالث : أن الله تعالى فتح أبواب التوبة أمام هؤلاء المنافقين - ومنهم من تاب بالفعل(١٣) - **كما فى قوله تعالى : (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فان يتوبوا يكن خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير)(١٤) وقوله تعالى : (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا . إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما)(١٥) .**

والتوبة فى حق هؤلاء المنافقين معناها ترك ما هم عليه من النفاق ، والعمل على إخلاص العقيدة لله تعالى ورسوله ﷺ ، والتزام

---

(١٢) انظر : الكشاف للزمخشرى ٤٥٠/١ ، وروح المعانى للآلوسى ١٤٣/١ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى ص ١٧٠ ، طبعة دار الشعب .

(١٣) مثل الجلاس بن سويد بن صامت . السيرة لابن هشام ١٠٩/٢ .

(١٤) الآية ٧٤ من سورة التوبة .

(١٥) الآية ١٤٥ ، ١٤٦ من سورة النساء .

الغمل الصالح ، وكيف يتسنى لهم هذا وهم فاقدون له أصلا وتكوينا ؟ فهل يطالب فاقد العقل أن يعقل ، أو فاقد البصر والسمع أن يرى ويسمع ، لا أظن أحدا يقول بذلك ، إذن هؤلاء المنافقين كان لديهم نزعة الاعتقاد شأنهم شأن إخوانهم من اليهود ومشركى العرب ، وليسوا شواذ ، أى ولدوا فاقدين لهذه الغريزة .

الرابع : أن هذا القول فيه مخالفة صريحة **لما رواه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول : (فطرة الله التى فطر الناس هل تحسن فيها من جدعاء ؟ ثم يقول : (فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) (١٦) .**

قال الآلوسى بعد أن أورد هذا الحديث عند تفسير الآية : والمراد بالناس جميعهم .. واستشكل الاستغراق بأنه ورد فى الغلام الذى قتله الخضر عليه السلام أنه طبع على الكفر . وأجيب بأن معنى ذلك أنه قدر أنه لو عاش يصير كافرا بإضلال غيره له أو بآفة من الآفات البشرية ، وهذا على ما قيل هو المراد **من قوله عليه الصلاة والسلام : « الشقى شقى فى بطن أمه »** وذلك لا ينافى الفطر على دين الإسلام ، بمعنى خلقه متهيأ له مستعدا لقبوله »(١٧) .

ومخالف أيضا لما رواه عياض بن حمار المجاشعى ـ رضى الله تعالى عنه ـ أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم فقال فى خطبته :

---

(١٦) الحديث : أخرجه البخارى فى التفسير ، باب تفسير سورة الروم ١٤٣/٦ ، والآية ٣٠ من سورة الروم .

(١٧) راجع روح المعانى له ٤٠/٢١ .

« إن ربى عز وجل أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى فى يومى هذا : كل مال نحلته عبادى حلال . وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وانهم أتتهم الشياطين فاضلتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطانا ... »(١٨) .

ونخلص من كل ما تقدم إلى أن النفاق خلق تخلق به المنافقون من اليهود وغيرهم من العرب حتى صار طبعا ملازما لهم ، ولذلك سماه الله تعالى : مرضا ، **كما فى قوله تعالى : (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا)(١٩)** ، والمرض على ما ذهب إليه علماء اللغة حالة خارجة عن الطبع ضارة بالفعل(٢٠) .

* * *

---

(١٨) الحديث : أخرجه مسلم فى كتاب الجنة ، باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار ٢٧١/٨ من صحيح مسلم بشرح النووى ، والإمام أحمد فى مسنده ١٦٢/٤ ، وابن كثير فى تفسيره ٦٦/٣ .

(١٩) الآية ١٠ من سورة البقرة .

(٢٠) روح المعانى للآلوسى ١٤٨/١ .

المبحث الرابـع

الفرق بين المنافق والـكافر

لما كان المنافق مظهرا للإيمان كاتما للكفر اختلف العلماء فى حكم كل منهما ، حيث قال الرازى : واختلفوا فى أن كفـر الكافر الأصـلى أقبح ، أم كفر المنافق ؟ قال قوم : كفر الكافر الأصلى أقبح ، لأنه جاهل بالقلب كاذب باللسان ، والمنافق جاهل بالقلب صادق باللسان .

وقال آخرون : بل المنافق أيضا كاذب باللسان ، فانه يخبر عـن كونه على ذلك الاعتقـاد مع أنـه ليس عليـه ، ولذلك قـال تعـالى : **(قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكـم)(١) وقـال الله تعـالى : (والله يشـهد إن المنافقـين لكاذبون)(٢) .**

ثم إن المنافق اختص بمزيد أمور منكـرة . أحـدها : أنه قصـد التلبيس والكافر الأصلى ما قصد ذلك .

وثانيها : أن الكافر على طبـع الرجـال ، والمنـافق على طبـع الخنوثة .

ثالثها : أن الكافر ما رضى لنفسه بالكذب بل استنكف منه ولم يرض إلا بالصدق ، والمنافق رضى بذلك .

ورابعها : أن المنافق ضم إلى كفره الاستهزاء بخلاف الكافر الأصلى،

---

(١) الآية ١٤ من سورة الحجرات .

(٢) الآية الأولى من سورة المنافقون .

ولأجل غلظ كفره قال تعالى : (**إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار**)(٣) ٠

وخامسها : قال مجاهد : إنه تعالى ابتدأ بذكر المؤمنين فى أربع آيات ، ثم ثنى بذكر الكفار فى آيتين ، ثم ثلث بذكر المنافقين فى ثلاث عشرة آية ، وذلك يدل على أن المنافقين أعظم جرما ، وهذا بعيد ، لأن كثرة الاقتصاص بخبرهم لا توجب كون جرمهم أعظم ، فإن عظم فلغير ذلك ، وهو ضمهم إلى الكفر وجوها من المعاصى كالمخادعة ، والاستهزاء، وطلب الغوائل إلى غير ذلك ، ويمكن أن يجاب عنه بأن كثرة الاقتصاص بخبرهم تدل على أن الاهتمام بدفع شرهم أشد من الاهتمام بدفع شر الكفار ، وذلك يدل على أنهم أعظم جرما من الكفار(٤) ٠

ومن الفروق التى يوضحها القرآن بين المنافقين والكافرين ، أن توبة الكافرين أخف شرطا من توبة المنافقين حيث قال الله تعالى فى حق الكافرين : (**قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف**)(٥) وقال تعالى : (**والذين لا يدعون مع الله إلاها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ٠ يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ٠ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما**)(٦)٠

فلم يطلب الله تعالى من الكافرين ليتوب عليهم سوى الإقلاع عن

---

(٣) الآية ١٤٥ من سورة النساء ٠

(٤) تفسير مفاتيح الغيب للرازى ٤٣٥/١ طبعة دار الغد الأولى ١٩٩١ م - ١٤١٢ هـ ٠

(٥) الآية ٣٨ من سورة الأنفال ٠

(٦) الآيات ٦٨ - ٧٠ من سورة الفرقان ٠

الكفر والشرك ولزوم العمل الصالح . أما بالنسبة لتوبة المنافقين فقد قيدها الله تعالى بما لم يقيدها لأى نوع من أنواع الكفر ، **حيث قال تعالى:**

(إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا . إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما)(٧) .

فتوبة المنافقين مقيدة بقيود شديدة غير مألوفة فى حديث القرآن الكريم عن توبة أى طائفة أخرى ، فلا تقبل توبتهم إلا إذا كانت مصحوبة بالإصلاح ، والاعتصام بالله ، وإخلاص الدين لله تعالى .

والسبب فى ذلك أنه تعالى أمرهم أولا بترك القبيح ، وثانيا : بفعل الحسن ، وثالثا : أن يكون غرضهم فى ذلك الترك والفعل طلب مرضاة الله تعالى ، ورابعا : أن يكون ذلك الغرض وهو طلب مرضاة الله تعالى خالصا ، وأن لا يمتزج به غرض آخر(٨) .

ومن الفروق التى يوضحها القرآن بين المنافقين والكافرين أيضا أن الكفار المجاهرين بكفرهم أخف عقابا من المنافقين ، وهم فوقهم فى دركات النار ، لأن الطائفتين اشتركتا فى الكفر ومعادة الله ورسله ، وزاد المنافقون عليهم بالكذب والنفاق ، وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين ، **ولهذا قال تعالى : (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا)(٩) .**

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - : « وإنما كانت هذه الطبقة

---

(٧) الآية ١٤٥ ، ١٤٦ من سورة النساء .
(٨) تفسير الرازى ٥٠٢/٥ .
(٩) الآية ١٤٥ من سورة النساء .

فى الدرك الأسفل لغلظ كفرهم ، فإنهم خالطوا المسلمين وعاشروهم ، وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيمان ما لم يباشره البعداء ، ووصل إليهم من معرفته وصحته ما لم يصل إلى المنابذين بالعداوة ، فاذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفرا وأخبث قلوبا ، وأشد عداوة لله ولرسوله من البعداء عنهم ، وإن كان البعداء متصدين لحرب المسلمين .

ولهذا قال تعالى فى حق المنافقين : (**ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون**)(١٠) **وقال تعالى فيهم : (صم بكم عمى فهم لا يرجعون**)(١١) **وقال تعالى فى حق الكافرين : « صم بكم عمى فهم لا يعقلون** »(١٢) . فالكافر لم يعقل ، والمنافق أبصر ثم عمى ، وعرف ثم تجاهل ، وأقر ثم أنكر ، وآمن ثم كفر ، ومن كان هكذا كان أشد كفرا وأخبث قلبا ، وأعتى على الله ورسله ، فاستحق الدرك الأسفل من النار »(١٣) .

وقال ابن الأنبارى : إنه تعالى قال فى صفة المنافقين إنهم فى الدرك الأسفل ، وقال فى آل فرعون : (**أدخلوا آل فرعون أشد العذاب**)(١٤) فأيهما أشد عذابا ، المنافقون أم آل فرعون ؟ وأجاب بأنه يحتمل أن أشد العذاب إنما يكون فى الدرك الأسفل ، وقد اجتمع فيه الفريقان .

---

(١٠) الآية ٣ من سورة المنافقين .

(١١) الآية ١٨ من سورة البقرة .

(١٢) الآية ١٧١ من سورة البقرة .

(١٣) انظر : كتاب « طريق الهجرتين وباب السعادتين له : ص ٧٠٠ مطبعة الدوحة الحديثة بقطر ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

(١٤) الآية ٤٦ من سورة غافر .

قال الرازى : لما كان المنافق أشد عذابا من الكافر ، لأنه مثله فى الكفر ، وضم إليه نوع آخر من الكفر ، وهو الاستهزاء بالإسلام وبأهله، وبسبب أنهم لما كانوا يظهرون الإسلام يمكنهم الاطلاع على أسرار المسلمين ثم يخبرون الكفار بذلك ، فكانت تتضاعف المحنة من هؤلاء المنافقين ، فلهذه الأسباب جعل الله عذابهم أزيد من عذاب الكفار (١٥) .

وهذا السبب الذى ذكره الرازى وهو أن المنافق ضم إلى كفره نوعا آخر من الكفر ، وهو الاستهزاء بالإسلام وبأهله سبب عادى يسير إذا فهم من الاستهزاء السخرية التى تصدر من بعضهم ضد الإسلام والمسلمين، بل يمكن أن يعترض عليه بأن الكافرين الآخرين صدر منهم أيضا الاستهزاء والسخرية بالإسلام والمسلمين ، كما يقرر القرآن الكريم ذلك فى كثير من آياته .

وهذا المعنى الذى يسوقه الإمام الرازى يسوقه مفسرون آخرون حيث يقول الزمخشرى : « فإن قلت لم كان المنافق أشد عذابا من الكافر؟ قلت : لأنه مثله فى الكفر ، وضم إلى كفره الاستهزاء بالإسلام وأهله ومداجاتهم »(١٦) .

ولكن هذا المعنى يكون ذا قيمة أكبر إذا فهمناه على أن المراد بالاستهزاء الاستهانة ، وعدم التقدير والاهتمام ، وعلى أنه شعور نفسى، بمعنى أن المنافق يشعر نحو الإسلام بالاستهانة وعدم التقدير فى نفسه، وينظر إليه على أنه أمر لا يعنيه كثيرا ، ولا يتعارض مع مصلحته أو

---

(١٥) تفسير الرازى ٥٠٠/٥ ـ ٥٠١ .

(١٦) تفسير الكشاف له ٤٥٠/١ ، وانظر هذا المعنى أيضا فى تفسير النسفى ٢٥٩/١ ، وتفسير روح المعانى للآلوسى ١٧٧/٥ ، والتفسير الوسيط ٩٤٧/٥ .

اتجاهه الحقيقى ، بخلاف الكافر الآخر ، فإنه ينظر إلى الإسلام رغم كراهيته له نظرة اهتمام ومبالاة ، والاهتمام والمبالاة يدلان على التقدير، وعلى نوع من الإكبار .

فالمنافق والكافر رغم اشتراكهما فى كراهية الإسلام ، إلا أن المنافق يستهين بالإسلام ولا يعنى به ، مما يسهل عليه مصانعته والتودد إليه ، أما الكافر فإنه يهتم بالإسلام ويعنى بأمره ، مما يدل على أنه يحمل له فى نفسه نوعا من الإكبار الذى يتمثل فى أى معنى من الخوف منه ، أو الشعور بخطره ، أو نحو ذلك .

والفرق كبير بين الاستهانة والاهتمام ، فإننا حين نعادى شخصا فنظهر له الخصومة ونعلن له العداء والتحدى ، نكون قد وضعناه فى منزلة من التقدير والاهتمام ، أما حين نتجاهله أو نتجاهل عداوته ، فإننا نكون قد وضعناه فى منزلة الاحتقار والازدراء .

* * *

المبحث الخامس

أنواع النفـــاق

حين ننظر إلى ما ورد فى القرآن الكريم والسنة النبوية عن النفاق والمنافقين ، نرى من ظاهر هذه النصوص أن الإسلام يقسم النفاق إلى نوعين : نفاق فى العقيدة ، ونفاق فى العمل .

ولعل الآيات التى تشير إلى ذلك قوله تعـالى : (**إن المنافقـين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا . مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا**)(١) .

فالناظر فى هذه الآيات بشىء من التأمـل يرى أنهـا تشـير إلى أسس النفاق فى العقيدة وفى السلوك معا ، ولما كان هذا يحتاج إلى شىء من البيان ، فاليك توضيح كل نوع بشىء من التفصيل فيما يأتى :

أولا : نفـاق العقيـــدة :

والمقصود بالعقيدة هنا العقيدة الدينية ، وهى معرفة الله تعـالى والإيمان به وبكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره حلوه ومره، بحيث تكون معرفة يقينية ، والمراد بالمعرفة اليقينية : الجزم المطـابق للواقع الناشىء عن دليل(٢) ، فلا تقبل معرفة مبنية على ظن أو شك

---

(١) الآية ١٤٢ ، ١٤٣ من سورة النساء .

(٢) إن كانت المعرفة جزما مطابقا للواقع ناشئا عن غير دليل ـ وإن كانت لا تسمى معرفة فى هذه الحالـة ، وتعتبر تسـميتها بذلك تجاوزا ـ وذلك كالتقليد ، وقد اختلف العلماء فى أن هذه المعرفة كافية أو لا على أقوال كثيرة أصحها أنها كافية مع العصيان إن كان فيه أهلية للنظر ، وإلا فلا عصيان .

أو وهم ، أو تكون جزما غير مطابق للواقع كاعتقاد النصارى التثليث ٠

ولا شك أن النفاق فى العقيدة من أخطر أنواع الكفر مهما اختلفت الآراء فى المقارنة بينه وبين الكفر الصريح ٠ لأن الأساس الذى يقوم عليه هذا النوع من النفاق هو عدم الاستعداد للاعتقاد والإيمان أصلا مع الخداع والتمويه ، كما يدل على ذلك **قوله تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون)(٣)** ٠

وهذا النوع من المنافقين لا يرجى منهم قط أن يؤمنوا ، مهما وجه إليهم من تذكير ، ومهما بذلت معهم المحاولات فى هدايتهم إلى الإيمان، فهذه المحاولات كلها فى غير طائل ، لأنهم مردوا على النفاق حتى تمكن من قلوبهم ، ولذلك يؤكد القرآن على أن نفاق هؤلاء ليس فى السلوك العملى ، ولا فى مجرد المظهر ، بحيث يمكن التحكم فيه ، وإنما هو متغلغل فى قلوبهم وطبعهم حتى الموت كما فى قوله تعالى : **(فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون)(٤)** ٠

ولئن كان المفسرون يذكرون عند تفسير هذه الآية أنها نزلت فى شأن شخص معين هو ثعلبة بن حاطب ، الذى يروى أنه طلب من الرسول ﷺ وألح عليه فى أن يدعو له بسعة الرزق فدعا له ، فلما كثر ماله ضن بالزكاة ووصفها بأنها جزية ، مستأنسين فى ذلك بسياق الآيات السابقة

---

(٣) الآية ٨ ، ٩ من سورة البقرة ٠
(٤) الآية ٧٧ من سورة التوبة ٠

التى يبدو من ظاهرها أنها تشير إلى شخص أو أشخاص معينين ، فى قوله تعالى : (**ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون**)٠ إلا أن علماء الحديث يذكرون أن حديث ثعلبة هذا اسناده ضعيف جدا(٥) ٠

وإذا كان هذا هو شأن الرواية فليس هناك إذن فيما يرجح سبب مباشر لنزول الآية ، أعنى ليس المقصود بها شخصا معينا ، على أنه حتى مع فرض إشارة الآية إلى حادث وقع من شخص معين ، وصحة الرواية ، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما صرح بذلك علماء الأصول ٠

وكل ما يمكن أن يؤخذ من هذه الآيات أن هذا الحكم يعنى فريقا من المنافقين وليس كل المنافقين ، كما يفهم من قوله تعالى فى سياق الآيات السابقة : « **ومنهم من عاهد الله ٠٠٠** » على اعتبار أن النفاق وإن كانت تجمعه صفة واحدة هى إظهار الإيمان وإبطان الكفر ، إلا أن هذه الصفة ليست بدرجة واحدة فى كل المنافقين ، وإنما يتفاوتون فيها كما يحدث التفاوت فى كل صفة من الصفات ٠

وهؤلاء الذين تتحدث عنهم الآيات هم الذين اكتمل فيهم النفاق، وتحققت فيهم صفاته كاملة ، ولذلك كان نفاقهم مستحكما فى قلوبهم لا ينفك عنهم أبدا حتى الموت كما يقول أصحاب التفسير الوسيط :

---

(٥) راجع : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى ٣٢/٧ ٠ ولباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ١٥٤/١ ، والمحلى لابن حزم ٢٠٨/١١ ٠

« نفاقا متمكنا فى قلوبهم كالداء العضال ، يظل فيها إلى يوم يموتون ويلقون الله »(٦) ٠

بل يؤكد القرآن الكريم أن النفاق تمكن من قلوب هذا الفريق من المنافقين حتى جعل كل حواسهم مغلقة عن تقبل أى توجيه إلى الإيمان، أو تذوق أى موعظة تهدى إلى العقيدة الصحيحة والسلوك القويم ، فيقول سبحانه فى سياق الحديث عن المنافقين : (صم بكم عمى فهم لا يرجعون)(٧) ٠ والتعبير فى قوله تعالى : (فهم لا يرجعون) صريح فى فقدان أى أمل فى إيمان المنافقين أو اهتدائهم ٠

يقول الرازى : إنهم لا يرجعون عما تقدم ذكره ، وهو التمسك بالنفاق الذى لأجل تمسكهم به وصفهم الله تعالى بهذه الصفات فصار ذلك دلالة على أنهم يستمرون على نفاقهم أبدا ٠ وأنهم لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه ، وعن الضلالة بعد أن اشتروها(٨) ٠

وحيث كان هذا النوع من النفاق بهذه المثابة ، فإن صاحبه لن ترجى له مغفرة قط من قبل الله تعالى ، ولن تنفعه شفاعة أى شفيع ، ولو كانت شفاعة الرسول ﷺ ، لأن الله تعالى تأذن أن لا يغفر الكفر والشرك لمن مات عليهما كما يقول تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا)(٩) ٠

ويقول سبحانه فى حق المنافقين الذين ماتوا على النفاق : (استغفر

---

(٦) انظر : التفسير الوسيط ٠
(٧) الآية ١٨ من سورة البقرة ٠
(٨) مفاتيح الغيب ٤٥٧/١ ٠
(٩) الآية ١١٦ من سورة النساء ٠

لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين)(١٠) • وقوله تعالى : (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين)(١١) •

فيروى أن هذه الآية نزلت فى شأن عبد الله بن أبى بن سلول المنافق حين كان مريضا فجاء ابنه عبد الله وكان من الصالحين فسأل رسول الله ﷺ أن يستغفر لأبيه ففعل رسول الله ﷺ إكراما لهذا الصحابى الجليل(١٢) •

وروى البخارى بسنده عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : **« لما توفى عبد الله بن أبى جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه • ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه ، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله فقال : يا رسول الله ، أتصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما خيرنى الله فقال : استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة ، وسأزيده على السبعين • قال : إنه منافق • قال فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره)(١٣) •**

---

(١٠) الآية ٨٠ من سورة التوبة •

(١١) الآية ٦ من سورة المنافقون •

(١٢) التفسير الوسيط ١٧٣٩/٢ •

(١٣) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير ، باب « استغفر لهم أو لا =

ومهما ما يكن من سبب النزول ، فإن الحكم عام يشمل كل منافق كما يفيده عموم الألفاظ ، فلن يرجى من المنافقين إيمان فى الحياة ، وبالتالى لن ترجى لهم مغفرة من الله تعالى بعد الموت ، بل هم كما قال سبحانه : (**إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا**) .

ثانيا : نفاق العمل :

وأما نفاق العمل فنجده فى بعض الأحاديث النبوية التى تتحدث عن بعض صفات المنافقين ، وذلك فى مثل **ما رواه البخارى ومسلم بسندهما عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:«آية المنافق ثلاث:إذا حدث كذب،وإذا وعد أخلف،وإذا ائتمن خان »(١٤) وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر »(١٥)** .

=

تستغفر لهم .. » ١٨٤/٨ من كتاب فتح البارى لابن حجر طبعة دار الريان ، والآية ٨٤ من سورة التوبة .

(١٤،١٥) الحديثان : أخرهما البخارى فى كتاب الإيمان ، باب «علامة المنافق» ١١١/١ من كتاب فتح البارى بشرح صحيح البخارى، وأخرجهما مسلم فى كتاب الإيمان باب « بيان خصال المنافق» ٥٩٩/١ ـ ٦٠١ من صحيح مسلم بشرح النووى . وفى رواية أخرى عند مسلم:«آية المنافق ثلاث..وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم » .

قال النووى عند شرحه لهذا الحديث : هذا الحديث مما عده جماعة من العلماء مشكلا من حيث إن هذه الخصال توجد فى المسلم المصدق الذى ليس فيه شك . وقد أجمع العلماء على أن من كان مصدقا بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال لا يحكم عليه بكفر ولا هو منافق يخلد فى النار ، فإن أخوة يوسف عليه السلام جمعوا هذه الخصال ، وكذا وجد لبعض السلف والعلماء بعض هذا ، أو كله .

وهذا الحديث ليس فيه بحمد الله إشكال ، ولكن اختلفت العلماء فى معناه .

فالذى قاله المحققون والأكثرون - وهو الصحيح المختار - أن معناه أن هذه الخصال خصال نفاق ، وصاحبها شبيه بالمنافقين فى هذه الخصال ، ومتخلق بأخلاقهم ، فإن النفاق هو إظهار ما يبطن خلافه ، وهذا المعنى موجود فى صاحب هذه الخصال ، ويكون نفاقه فى حق من حدثه ، ووعده ، وائتمنه ، وخاصمه ، وعاهده من الناس ، لا أنه منافق فى الإسلام فيظهره وهو يبطن الكفر ، ولم يرد النبى ﷺ بهذا أنه منافق نفاق الكفار المخلدين فى الدرك الأسفل من النار .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « كان منافقا خالصا » معناه شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال .

وقال بعض العلماء : وهذا فيمن كانت هذه الخصال غالبة عليه ، فأما من يندر ذلك منه فليس داخلا فيه ، فهذا هو المختار فى معنى الحديث .

وقد نقل الإمام أبو عيسى الترمذى - رحمه الله تعالى - معناه عن

العلماء مطلقا فقال : إنما معنى هذا عند أهل العلم نفاق العمل(١٦) .

وقال ابن حجر بعد أن أورد كلام النووى : ومحصل هذا الجواب الحمل فى التسمية على المجاز ، أى صاحب هذه الخصال كالمنافق ، وهو بناء على أن المراد بالنفاق نفاق الكفر . وقد قيل فى الجواب عنه: إن المراد بالنفاق نفاق العمل كما قدمناه . وهذا ارتضاه القرطبى ، واستدل له بقول عمر لحذيفة - رضى الله تعالى عنهما - هل تعلم فى شيئا من النفاق ؟ فانه لم يرد بذلك نفاق الكفر ، وإنما أراد نفاق العمل(١٧) .

وإذا نظرنا لهذا الحديث بشىء من التأمل فيما هو أبعد من ظاهره، نجد أنه لا يعنى إثبات أن هناك نفاقا فى العمل منفصلا عن نفاق العقيدة ، وإنما يعنى أن هذه الصفات من أخلاق المنافقين فى عقيدتهم، وأنها دليل على نفاق العقيدة ، وأن من اكتملت فيه هذه الخصال بحيث تكون خلقا ملازما له ، فلا شك أن قلبه لا يحمل عقيدة ولا إيمانا ، وحين يدعى الإسلام مع هذه الصفات يكون منافقا كافرا فى حقيقته ، غير مصدق فى دعواه الإيمان ، لأن الإيمان لا يتفق مع هذا الخلق .

وأما من كانت فيه إحدى هذه الخصال فهو مع كونه غير كافر ، ولا متهم فى عقيدته بالنفاق ، إلا أنه شبيه بالمنافقين فى أخلاقهم ، فعليه أن يقاوم هذه الخصلة فى نفسه حتى يتخلى عنها ، أو ليبعد عن شبهة النفاق والتشبه بالمنافقين .

---

(١٦) راجع المنهاج فى شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٥٩٩/١ ، ٦٠٠، طبعة دار الغد العربى الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

(١٧) راجع فتح البارى له ١١٣/١ .

ولذا قال الخطابى فى بيان معنى الحديث : إن معناه التحذير للمسلم أن يعتاد هذه الخصال التى يخاف عليه أن تقضى به إلى حقيقة النفاق(١٨) .

إذن فوصف المتخلق بإحدى هذه الخصال بالمنافقين ليس لاتهامه فى عقيدته ، وإنما لتنفيره من هذه الخصلة بأقبح ما ينفر به وهو النفاق ، وهذا لا ينفى أن التخلق بإحدى تلك الخصال وهن فى الإيمان، وضعف فى التدين ، ولكنه لا يبلغ اتهام العقيدة بالنفاق ، كما يقول النبى ﷺ فى حديث آخر عن دلالة الكذب على وهن الإيمان ، لأنه لا يتفق مع الإيمان الكامل ، حين سأله بعض أصحابه : « **أيكون المؤمن جبانا يا رسول الله ؟ قال نعم ، قيل له أيكون المؤمن بخيلا ؟ قال : نعم، قيل له : أيكون المؤمن كذابا ؟ قال : لا** »(١٩) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « يطبع المؤمن على كل خلة غير الخيانة والكذب »(٢٠) .

وليس فى هذه الأحاديث وغيرها مجرد صدور الكذب من الشخص، وإنما المراد أن يكون الكذب صار صفة ملازمة وخلقا ثابتا ، وحين يبلغ الكذب من شخص هذا المبلغ ، فقد لا يكون دليلا على وهن الإيمان

---

(١٨) راجع المنهاج فى شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٦٠٠/١ .

(١٩) الحديث : ذكره الحافظ المنذرى فى الترغيب والترهيب ٢٨/٤ وقال : رواه مالك هكذا مرسلا .

(٢٠) الحديث : ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب ٢٨/٤ وقال : رواه البزار وأبو يعلى ورواته رواة الصحيح . وذكره الدارقطنى فى العلل مرفوعا وموقوفا وقال الموقوف أشبه بالصواب ، ورواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى من حديث ابن عمر مرفوعا .

فحسب ، بل قد يكون دليلا على نفاق العقيدة أيضا ، لأن الاعتماد على الكذب أبرز صفات المنافقين كما يأتى بيان ذلك قريبا ٠

إذن : قد يكثر نفاق العمل ويصبح صفة ملازمة لصاحبه بحيث يكون قرينة قوية تدل على وجود خلل فى الاعتقاد ، أو يكون العمل مما لا يمكن تأويله الا بحمله على سوء الاعتقاد بالله أو برسوله أو باليوم الآخر ، فيكون صاحبه من الصنف الأول ، وهو نفاق العقيدة ٠

* * *

الفصل الثانى

صفات المنافقين

من أهم مواضع الخطر فى المنافقين أنهم غير ظاهرين ، حيث يحاولون دائما أن يقنعوا أنفسهم بأقنعة كثيفة ليبدو للمسلمين أنهم منهم ، بل قد يغبطهم بعض المسلمين على قوة تدينهم ، وعلى قوة استعدادهم لعمل كل ما هو خير ، وذلك نتيجة لمبالغة المنافقين فى إخفاء أمرهم ، وهذه المبالغة فى الإخفاء تعتمد على قوة محاولتهم التشبه بالمسلمين فى أعمالهم وعبادتهم ، وكل ما يبعد عنهم شبهة النفاق ، ومن هذا الموضع الذى يندسون فيه بين المسلمين يدبرون فتنهم ودسائسهم ، وينفثون سمومهم .

لأن عداوة العدو حينما تكون ظاهرة مكشوفة ، فان الناس يتخذونه عدوا ، فيتعاملون معه على هذا الأساس ، يحذرونه ويتقونه ، ولا يصدقون أقواله ، ويشكون فى نصائحه إن نصحهم بشىء ، ويتهمونه فى انتقاداته ، ويعلمون أن شتائمه الظاهرة أو المتوارية التى يوجهها ضدهم ، إنما يقذف بها من مخازن العداوة والبغضاء لديه ، فلا تخرجهم عن مواقعهم الفكرية والاعتقادية والخلقية والعملية ، ، ولا توهن عزائمهم فى التمسك بها ، بل قد تثبتهم وتشد عزائمهم ، ثم تولد لديهم دوافع الانتقام والمغالبة والمقاتلة ، ورد الكيد بمثله ، وهذه الدوافع تزيد فى ثباتهم وإصرارهم على مواقفهم .

ولكن حين يكون هذا العدو كاتما لعداوته ، متظاهرا بالمودة والإخاء ، مندسا فى صفوفهم كأنه منهم ، يلبس لباس الانتماء ،

ويداهن بالنصرة والولاء ، فإن الناس يتخذونه حينئذ أخا وليا ، وكلما برع فى إخفاء عداوته ، والمداهنة بمودته تدلى إلى قلوبهم ، فاستخلصوه ، فكان عندهم صفيا .

وحينئذ تنام عنه عيون الحذر والاتهام ، فيأمنونه ولا يتقون غوائله ، ويصدقون أقواله ، ويرونه فى نصائحه مخلصا ، وإذا انتقدهم بشىء لم يتهموه فى أهدافه ومقاصده ، وإذا طرح بينهم أفكارا جديدة حسبوه مجتهدا فى الرأى باحثا عن الحقيقة ، سواء أكان فيها من وجهة نظرهم مصيبا أم مخطئا .

وهو بهذه الثقة التى اكتسبها يستطيع أن يكيدهم كيدا كبارا ، فيدس بينهم بمكر شديد ، وخبث عظيم ، أفكارا وعقائد ومفاهيم ، وأنماط سلوك يجعلها تتسلل إليهم تسللا ببطء شديد ، وتتدرج تدرجا وفق طباع الأشياء فى تحولاتها وتغيراتها التدرجية التى تمر دون إثارة ، ودون أن تلتفت إليها الأنظار ، حتى يصل إلى أهدافه كلها أو بعضها ، من دس وتشويه وتحريف وإفساد من الداخل .

وقد كان يمكن فى حياة النبى ﷺ أن يطلع الله تعالى نبيه على المنافقين عن طريق الوحى ، فيحدد له أشخاصهم ، وبذلك يمكن أن يؤخذ كل منافق ليلقى جزاءه ، ويتقى شره ، ولكن الإسلام دين خالد ، وليس موقوتا بحياة النبى ﷺ ، ولا بعصر معين ، ولذلك لم يكن كشف الوحى للمنافقين - لو حدث - مفيدا إلا فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم .

أما والإسلام قائم مستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فقد آثر القرآن الكريم أن يضع قائمة بصفات المنافقين فى كل عصر ،

وفى كل مكان ، ليمكن كشفهم على ضوء هذه الصفات ، وهذه الصفات قد أغنت النبى ﷺ وأصحابه عن الحاجة إلى الوحى فى تحديد أشخاص المنافقين ، **كما يقول الله تعالى : (ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم)** (١) .

وهذه الصفات التى حددها القرآن الكريم لا تختص بفريق معين من المنافقين ، ولا بنوع خاص وإنما هى أعراض عامة تلازم النفاق حيث يوجد فى زمان أو مكان ، وفى القرآن الكريم سورة سميت باسمهم ، وهى سورة (المنافقون) ، وقد جمعت هذه السورة أهم صفات النفاق وأعراضه ، كما بينت الأساس التى يرتكز عليه النفاق فى النفس ، وينبع منه ، وتدور حوله الصفات .

وهذه الصفات التى بينها القرآن الكريم بعضها يدل على غياب الإيمان من قلوب أصحابها ، ومن ارتكس فى شىء منها كان من الكافرين المخلدين فى جهنم ، إذا مات عليها ولم يتب منها ، ومنها ما يتعلق بالعمل ، ويدل على ضعف الإيمان ، وإن لم يكن قرينة قاطعة على غيابه بالكلية ، وهو بمفرده من أكبر الذنوب . فإن كان ضمن حد لا يدل على خلل فى العقيدة لم يخرج صاحبه من دائرة الإيمان ، وإن عد كبيرة من الكبائر .

وإليك طائفة من هذه الصفات ، وما دل عليها من القرآن الكريم :

* * *

---

(١) الآية : ٣٠ من سورة محمد .

الصفة الأولى: مرض القلب

والمرض فى اللغة : بمعنى الوهن ، والضعف ، والشك ، والنقص ، والفتور .

قال ابن منظور : والمرض - بفتح الراء وسكونها - الشك ، ومنه قوله تعالى : (**فى قلوبهم مرض**)(٢) أى شك ونفاق وضعف يقين . وقوله تعالى : (**فزادهم الله مرضا**)(٣) قال أبو اسحق : فيه جوابان ، أى بكفرهم كما قال تعالى : (**بل طبع الله عليها بكفرهم**)(٤) . وقال بعض أهل اللغة : فزادهم الله مرضا بما أنزل عليها من القرآن فشكوا فيه كما شكوا فى الذى قبله ، والدليل على ذلك قوله تعالى : (**وإذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون**)(٥) .

قال أبو اسحق : يقال المرض والسقم فى البدن والدين جميعا كما يقال الصحة فى البدن والدين جميعا ، والمرض فى القلب يصلح لكل ما خرج به الإنسان عن الصحة فى الدين .

ويقال : قلب مريض من العداوة ، وهو النفاق . وقال ابن الأعرابى ، أصل المرض النقصان ، وهو بدن مريض ناقص القوة ، وقلب مريض ناقص الدين .

(٢،٣) الآية : ١٠ من سورة البقرة .
(٤) من الآية : ١٥٥ من سورة النساء .
(٥) الآية : ١٢٤ ، ١٢٥ من سورة التوبة .

وقال ابن عرفة : المرض فى القلب فتور عن الحق ، وفى الأبدان فتور الأعضاء ، وفى العين فتور النظر . وعين مريضة فيها فتور ، (**فيطمع الذى فى قلبه مرض**)(٦) أى فتور عما أمر به ونهى عنه(٧) .

وقال الراغب الأصفهانى : والمرض هو الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان ، وذلك ضربان :

الأول : مرض جسمى ، وهو المذكور فى قوله تعالى : (**ولا على المريض حرج**)(٨) .

والثانى : عبارة عن الرذائل كالجهل ، والجبن ، والبخل ، والنفاق وغيرها من الرذائل الخلقية - بضم الخاء واللام - وذلك نحو قوله تعالى : (**فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا**)(٩) .

ويشبه النفاق والكفر ونحوهما من الرذائل بالمرض ، إما لكونهما مانعة عن إدراك الفضائل كالمرض المانع للبدن عن التصرف الكامل، وإما لكونها مانعة عن تحصيل الحياة الأخروية المذكورة فى قوله تعالى : (**وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون**)(١٠) .

وإما لميل النفس بها عن الاعتقادات الرديئة كميل بدن المريض إلى الأشياء المضرة ، ولكون هذه الأشياء متصورة بصورة المرض ، قيل :

---

(٦) من الآية : ٣٢ من سورة الأحزاب .
(٧) راجع لسان العرب لابن منظور : ٤١٨١/٦ .
(٨) من الآية : ١٧ من سورة الفتح .
(٩) من الآية : ١٠ من سورة البقرة .
(١٠) من الآية : ٦٤ من سورة العنكبوت .

دوى صدر فلان ونغل قلبه(١١) .

ونقول : المرض فى أصل اللغة : خروج البدن عن اعتدال مزاجه وصحة أعضائه ، فيتعرض البدن للآلام . ويطلق مجازا على شك القلوب وارتيابها . فمرض قلوب المنافقين فى قوله تعالى : (**فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا**)(١٢) مراد به تردد فى العقيدة ، وعدم وصولها إلى الحق مع قيام الأدلة عليه ، فلما عموا عن النور ، زادهم الله مرضا . فالنفاق عرض ظاهرى لمرض قلبى هو : **الشك والجبن** .

وذهب بعض المفسرين إلى الجمع بين الحقيقة والمجاز ، بل الحمل على الحقيقة أولى عند فخر الدين الرازى حيث قال فى سياق رده على المعتزلة : الخامس : أن يحمل المرض على ألم القلب ، وذلك أن الإنسان إذا صار مبتلى بالجسد والنفاق ومشاهدة المكروه ، فإذا دام به ذلك ، فربما صار ذلك سببا لتغير مزاج القلب وتألمه ، وحمل اللفظ على هذا الوجه حمل له على حقيقته ، فكان أولى من سائر الوجوه(١٣) .

والأولى ما ذهبنا إليه ، وهو حمل اللفظ على المجاز ، وهذا رأى كثير من المفسرين(١٤) ، ومنهم الآلوسى حيث قال فى تفسيره :

---

(١١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى : ص ٤٦٦ ، طبعة مصطفى الحلبى .

(١٢) الآية : ١٠ من سورة البقرة .

(١٣) تفسير مفاتيح الغيب : ١/٤٤١، ٤٤٢ .

(١٤) راجع تفسير القرطبى : ص ١٧ ، وحاشية الجمل على الجلالين: ١/١٧ ، وتفسير المنار : ١/١٣٠ ، والوسيط : ١/٣٨ .

والمرض حالة خارجة عن الطبع ضارة بالفعل ، وعند الأطباء ما يقابل الصحة ، وهى الحالة التى تصدر عنها الأفعال السليمة ، والمراد من الأفعال ما هو متعارف ، وهى إما طبيعية كالنمو ، أو حيوانية كالنفس ، أو نفسانية كجودة الفكر ، فالحول والحدب مثلا مرض عندهم دون أهل اللغة ، وقد يطلق المرض لغة على أثره وهو الألم كما قاله جمع ممن يوثق بهم ، وعلى الظلمة كما فى قول الشاعر :

فى ليلة مرضت من كل ناحية

فما يحس بها نجم ولا قمر

وعلى ضعف القلب وفتوره كما قاله غير واحد . ويطلق مجازا على ما يعرض المرء مما يخل بكمال نفسه كالبغضاء والغفلة وسوء العقيدة والحسد وغير ذلك من موانع الكمالات المشابهة لاختلال البدن المانع عن الملاذ ، والمؤدية إلى الهلاك الروحانى الذى هو أعظم من الهلاك الجسمانى ، والمنقول عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وقتادة وسائر السلف الصالح حمل المرض فى الآية على المعنى المجازى . ولا شك أن قلوب المنافقين كانت ملأى من تلك الخبائث التى منعتهم مما منعتهم وأوصلتهم إلى الدرك الأسفل من النار .

ولا مانع عند بعضهم أن يحمل المرض أيضا على حقيقته التى هى الظلمة كقوله تعالى : **(ومن لم يجعل الله نورا فما له من نور)**(١٥) ، وقوله تعالى : **(والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات)**(١٦) . وكذا على الألم ، فان

---

(١٥) من الآية : ٤٠ من سورة النور .

(١٦) من الآية : ٢٥٧ من سورة البقرة .

فى قلوب أولئك ألما عظيما بواسطة شوكة الإسلام ، وانتظام أمورهم غاية الانتظام ، فالآية على هذا محتملة للمعنيين ، ونصب القرينة المانعة فى المجاز إنما يشترط فى تعيينه دون احتماله ، فاذا تضمن نكتة ساوى الحقيقة فيمكن الحمل عليهما نظرا إلى الأصالة والنكتة ، إلا أنه يرد هنا أن الألم مطلقا ليس حقيقة المرض ، بل حقيقته الألم لسوء المزاج ، وهو مفقود فى المنافقين ، والقول بأن حالهم التى هم عليها تفضى إليه فى غاية الركاكة ، على أن قلوب أولئك لو كانت مريضة لكانت أجسامهم كذلك ، أو لكان الحمام عاجلهم ، ويشهد لذلك الحديث النبوى والقانون الطبى .

أما الأول فلقوله ﷺ : « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب »(١٧) .

وأما الثانى : فلإن الحكماء بعد أن بينوا تشريح القلب قالوا : إذا حصلت فيه مادة غليظة ، فان تمكنت منه ومن غلافه ، أو من أحدهما عاجلت المنية صاحبه ، وإن لم تتمكن تأخرت الحياة مدة يسيرة ، ولا سبيل إلى بقائها مع مرض القلب ، فالأولى دراية ورواية حمله على المعنى المجازى ـ ومنه الجبن والخور ـ وقد داخل ذلك قلوب المنافقين حين شاهدوا من رسول الله ﷺ والمؤمنين ما شاهدوا(١٨)

ومن ناحية أخرى ، فان المعهود عند العرب التعبير عن العقول بالقلوب ، والمرض : ما يطرأ على العقول فيضعف تعلقها وإدراكها ، والشك والوهم من أعراض هذا المرض ، فهو ظلمة تعرض للعقل

---

(١٧) الحديث : أخرجه البخارى من كتاب الإيمان : ٢٠/١ من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

(١٨) انظر : روح المعانى : ١٤٨/١، ١٤٩ .

فتقف بشعاعه أن ينفذ إلى ما وراء التكاليف والأحكام من الأسرار والحكم . وهذا النفوذ : هو التفقه فى الدين الذى يسوق النفس إلى الأخذ به ظاهرا وباطنا ، وقد عبر القرآن عن فقد أمثال هؤلاء لهذا بقوله تعالى : (**لهم قلوب لا يفقهون بها**) (١٩) .

وربما كان التعبير عن العقول بالقلوب فى مثل هذا المقام ، لأن القلب يظهر فيه أثر الوجدان الذى هو السائق إلى الأعمال « يظهر ذلك بما تجده من اضطراب قلبك عند اشتداد الخوف أو اشتداد الفرح ، فانك تحس بزيادة ضرباته وشدة نبضاته » .

فصورة الاعتقاد إذا تناولها العقل من طريق التقليد والتسليم فجعلها فى زاوية من زوايا الدماغ ، ولم يكن لها سلطان على القلب ولا تأثير فى الوجدان ، واعتقاد لا يصحبه هذا السلطان ، ولا يصدر عنه هذا التأثير ، لا يعتد الله تعالى به ، ولا يستفيد الانسان منه ، فمن لم يطرق الإيمان قلبه بقوة البرهان ، ولم يحل مذاقه منه فى الوجدان ، بحيث يكون هو المصرف له فى أعماله ، لا ينفعه إيمانه إلا إذا تمرن على الأعمال الصالحة عن فهم وإخلاص ، حتى يحدث لقلبه الوجدان الصالح .

فأهل اليقين يبعثهم يقينهم على العمل الصالح ، وأهل التقليد تلحقهم أعمالهم الصالحة بأهل اليقين فى الانتفاع بإيمانهم . وهذا الفريق الذى تحكى عنه الآيات وتصفه بمرض القلب والكذب والخداع ، فقد الأمرين معا ، ولا صحة للقلب إلا بهما ، فمن فقدهما مرض ولا يلبث مرضه أن يقتله(٢٠) .

---

(١٩) من الآية : ١٧٩ من سورة الأعراف .

(٢٠) انظر : تفسير المنار لرشيد رضا : ١٢٩/١ ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

والمراد من زيادة المرض فى قوله تعالى : (**فزادهم الله مرضا**) نمو حال النفاق عندهم . وذلك أن المنافق يبتدىء فيكذب على الناس ويرائيهم ، فان استمر على ذلك ، صار النفاق من أحواله الملازمة ، وهذا معنى قوله تعالى : (**وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ..**)(٢١) .

وقيل : زادهم مرضا بأن طبع على قلوبهم لعلمه تعالى بأن لا يؤثر فيها التذكير ،والانذار ، كقوله تعالى : (**ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون**)(٢٢) أى طبع على قلوبهم بعد أن كفروا بالله تعالى ، ولم يكن الطبع ابتداء ، لأنه سبحانه غنى عن خلقه ، **فقال تعالى : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)**(٢٣) .

وقيل : زادهم كفرا بزيادة التكاليف الشرعية ، لأنهم كانوا كلما ازدادت التكاليف بنزول الوحى يزدادون كفرا(٢٤) ، **كقوله تعالى : (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون)**(٢٥) .

ولقد آثر القرآن الكريم وصف المنافقين بمرض القلب فى آيات كثيرة - فى غير ما تقدم - كما فى قوله تعالى : « **فترى الذين فى**

---

(٢١) الآية : ١٠١ من سورة التوبة .
(٢٢) الآية : ٣ من سورة المنافقون .
(٢٣) من الآية : ٢٩ من سورة الكهف .
(٢٤) حاشية الجمل على الجلالين : ١٧/١ .
(٢٥) الآية ١٢٤، ١٢٥ من سورة التوبة .

قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ٠٠)(٢٦) وقوله تعالى : (أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون)(٢٧) ، وقوله تعالى : (فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت ٠٠)(٢٨) ، وقوله تعالى : (أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم)(٢٩) ٠

فهذه الآيات وغيرها آثرت وصف المنافقين بمرض القلب ، لما فى هذه الصفة من إيحاءات كثيرة ، حيث توحى بتأصل علة النفاق واستحكامها ، وأنها غدت آفات ثابتة يعز علاجها على الطب ، ويصعب تغييرها على المجتمع ، كما توحى بأمر آخر ، وهو الفرار والنفور من أصحاب هذه العلة ، لأن علة القلب إذا كانت حسية كانت منفرة ، فكيف الحال إذا كانت معنوية ؟ وتوحى باجتمال العدوى ، فان من خالط المريض انتقلت إليه العلة غالبا ، وتوحى بالضعف ، لأن المريض لا يجتمل مقاومة ، وبخاصة إذا كان المرض قلبيا ، وكذلك المنافقون ضعاف مهازيل ، ولذا يتسترون فى كل الظروف ، ومرض القلب باطنى ، وكذلك آفات المنافقين مخبوءة ٠ وهكذا إيحاءات لا تنتهى !!

---

(٢٦) الآية : ٥٢ من سورة المائدة ٠

(٢٧) الآية : ٥٠ من سورة النور ٠

(٢٨، ٢٩) الآية : ٢٠، ٢٩ من سورة محمد ٠

ولعل قوله تعالى : (فزادهم الله مرضا) يؤكد الانطباع السابق ، وهو اليأس من علاج المنافقين ، لأن الله تعالى قد زادهم خبالا ومرضا ، حيث لم يأخذوا أنفسهم بالعلاج ، وإنما أهملوا الأسباب ، وجروا فى طريق الشيطان ومن ثم (فلهم عذاب أليم) .

وإذا كان مريض القلب يستدعى عزله فى مصحة حتى يبرأ من مرضه ، فإن على المجتمع الإسلامى أن يكشف عن المنافقين (مرضى القلوب) وعزلهم عن حياة الناس حتى لا تنتقل العدوى إلى غيرهم من الأصحاء .

الصفة الثانية : الخداع

ومن معانى الخداع فى اللغة : الكتمان ، والإخفاء ، والمنع ، والإمساك ، والنقصان ، والحبس ، والاحتيال(٣٠) .

قال الراغب : الخداع إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يبديه على خلاف ما يخفيه(٣١) .

وأصل الخداع : بفتح الخاء وكسرها الإخفاء والإيهام ، وقيل بالفتح اسم مصدر ، ومنه المخدع للخزانة . والأخدعان : عرقان فى العنق ، لأنهما خفيان فى موضع الحجامة . وقالوا : خدع الضب خدعا إذا توارى فى جحره واختفى فلم يظهر إلا قليلا . وطريق خيدع وخادع إذا كان مخالفا للمقصد بحيث لا يفطن له .

والخدع : صفة فعلية قائمة بالنفس عقيب استحضار مقدمات

---

(٣٠) راجع هذه المعانى فى لسان العرب لابن منظور : ١١١٢/٢ مادة خدع .

(٣١) المفردات فى غريب القرآن : ص ١٤٣ .

فى الذهن متوصل بها توصلا يستهجن شرعا أو عقلا أو عادة إلى استجرار منفعة من نيل معروف لنفسه ، أو إصابة مكروه لغيره مع خفائهما على الموجه نحوه القصد بحيث لا يتأتى ذلك النيل أو الإصابة بدونه ، أو لو تأتى لزم فوت غرض آخر حسب تصوره ، وعليه يكون الحرب خدعه (٣٢) .

وإن كان فى هذا التعريف غرابة فإن الإمام الرازى عرفه بقوله : وأما حده فهو إظهار ما يوهم السلامة والسداد ، وإبطان ما يقتضى الإضرار بالغير والتخلص منه ، فهو بمنزلة النفاق فى الكفر ، والرياء فى الأفعال الحسنة ، وكل ذلك بخلاف ما يقتضيه الدين ، لأن الدين يوجب الاستقامة والعدول عن الغرور والإساءة ، كما يوجب المخالصة لله تعالى فى العبادة (٣٣) .

وقد جاء وصف المنافقين (**بالخداع**) صراحة فى قوله تعالى : **(إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ..)(٣٢) وفى قوله تعالى : (يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون)(٣٥)** .

فهذه الآيات تبين أن المنافقين مخدوعون فى رأيهم مغرورون فى ذكائهم ، يظنون بأنفسهم الذكاء وهم الأغبياء ، يتوهمون أنهم قادرون على خداع الله تعالى والذين آمنوا ، بينما الحقيقة التى لا تقبل الشك أنهم لا يخدعون إلا أنفسهم ، وإن كانوا لا يشعرون .

---

(٣٢) روح المعانى للآلوسى : ١/١٤٥، ١٤٦ .
(٣٣) تفسير مفاتيح الغيب له : ١/٤٣٨ .
(٣٤) من الآية : ١٤٢ من سورة النساء .
(٣٥) الآية : ٩ من سورة البقرة .

فقوله تعالى : (**إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم**) أى مستدرجهم وتاركهم فى غيهم ، لا يقرعهم بمصيبة تنبهم ، ولا يوقظهم بقارعة تفتح عيونهم . تاركهم يمضون فى طريق الهاوية حتى يسقطوا ، وذلك هو خداع الله تعالى لهم .

فالقوارع والمحن كثيرا ما تكون رحمة من الله تعالى حين تصيب العباد ، فتردهم سريعا عن الخطأ ، أو تعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وكثيرا ما تكون العافية والنعمة استدراجا من الله تعالى للمذنبين الغاوين ، لأنهم بلغوا من الإثم والغواية ما يستحقون معه أن يتركوا بلا قارعة ولا نذير حتى ينتهوا إلى شر مصير .

وفى قوله تعالى : (**يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون**) تهديد رهيب للذين يحاولون خداع المؤمنين ، والمكر بهم ، وإيصال الأذى إليهم ، تهديد لهم بأن معركتهم ليست مع المؤمنين وحدهم ، إنما هى مع الله تعالى القوى الجبار ، وإنهم إنما يحاربون الله تعالى حين يحاربون أولياءه .

حيث يسخر القرآن من المنافقين ومن خداعهم ، ويصور لهم أنهم إذا كانوا يعتقدون فى أنفسهم المهارة فى الخداع ، فإن الله تعالى أقدر على أن ينتقم منهم بذات الوسيلة التى يسلكونها فى مخادعة الناس، فيخدعهم سبحانه عن أنفسهم وعن حالهم حتى يظنوا أنهم قد نجحوا فى خداعهم ، وحققوا آمالهم ، وإذا عقاب الله تعالى ينصب عليهم من كل جهة ، وإذا كل وسائلهم وأقنعة نفاقهم تصير هباء منثورا ، وحينئذ يعلمون أن الله تعالى أعظم منهم مكرا ، وأقدر منهم على إنفاذ ما يريد .

يقول الشهيد سيد قطب : إن هؤلاء المنافقين من الغفلة بحيث لا يخدعون إلا أنفسهم فى غير شعور !! أن الله تعالى بخداعهم عليم ، والمؤمنون فى كنف الله تعالى ، فهو حافظهم من هذا الخداع اللئيم ، أما أولئك الأغفال فهم يخدعون أنفسهم ويغشونها ، يخدعونها حين يظنون أنهم أريحوها وأكسبوها بهذا النفاق ، ووقوها مغبة المصارحة بين المؤمنين . وهم فى الوقت ذاته يوردون أنفسهم موارد التهلكة بالكفر الذى يضمرونه ، والنفاق الذى يظهرونه وينتهون بها إلى شرمصير !!(٣٦)

ولذلك ختم الله تعالى الآية بقوله : (وما يشعرون) ، وحين ينفى عنهم الشعور ، ينفى عنهم أول مراتب الإدراك ، وهو الإدراك الحسى ، لأن الإدراكات أنواع : إدراكات حس ، وإدراكات علم ، وإدراكات عقل . فإدراكات العقل تثبت لصاحبها أنه يعقل ويعلم ويشعر ، وتليها إدراكات العلم ، لأنها تثبت لصاحبها أنه يعلم ويشعر ، وثالثها : إدراكات الحس ، وهى تثبت لصاحبها أنه يشعر فقط بالأمور المحسة ، وتلك المحسات هى بداية الإدراك فى البشر . فإذا نفى عنهم الشعور ، فقد نفى عنهم جميع الإدراكات التى فى البشر(٣٧) .

وفى بيان الغرض من خداع المنافقين قال الرازى : فيه وجوه :

الأول : أنهم ظنوا أن النبى - ﷺ - والمؤمنين يجرونهم فى التعظيم والإكرام مجرى سائر المؤمنين إذا أظهروا لهم الإيمان وإن أسروا خلافه فمقصودهم من الخداع هذا .

---

(٣٦) فى ظلال القرآن : ١/٤٣ .

(٣٧) خطر الكفر والنفاق على المجتمع الإسلامى للشيخ محمد متولى الشعراوى : ص ٤٢، ٤٣ .

الثانى : يجوز أن يكون مرادهم إفشاء النبى ﷺ والمؤمنين إليهم أسرارهم فينقلونها إلى أعدائهم من الكفار ٠

الثالث : أنهم دفعوا عن أنفسهم أحكام الكفر مثل القتل ، لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله »(٣٨) ٠

الرابع : أنهم كانوا يطمعون فى أموال الغنائم(٣٩) ٠

وإذا كان هذا هو موقف القرآن فى بيان حال المنافقين وخداعهم، فنقول : إن كل إنسان منا يريد أن يكون شيئا مذكورا عند الناس ، وعلى الأقل ألا ينتقدوه فى تصرفاته ، ولا يتناولوه بالذم فى ألسنتهم، بخاصة إذا كان نجاحه فى عيشه ومهنته يتوقف على ثقة الناس فيه ٠

لذلك ينبغى الشك والريب فى دخيلة كل إنسان من هذا الصنف من الناس ، وإن لم يبد من أمره ما يريب ، لأنه معرض دائما للخداع والرياء حرصا على مصلحته ٠ ومهما يكن ، فإن كل من يؤثر الاستخفاء من الناس ، ويتظاهر بما ليس فيه ، ويخشى أن ينكشف الستر عن

---

(٣٨) الحديث : أخرجه البخارى بسنده عن أبى هريرة فى كتاب الزكاة: ٣٠٨/٣ من فتح البارى رقم ١٣٩٩ ، وأخرجه مسلم بسنده عن أبى هريرة أيضا فى كتاب الايمان : باب (الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله) الحديث ١٢٤ ، ٤٥٥/١ ، من شرح النووى ٠ وأخرجه أبو داود فى الزكاة : ٩٣/٢ الحديث ١٥٥٦ ، وأخرجه الترمذى فى الايمان باب ما جاء أمرت أن أقاتل الناس : ٣/٥ الحديث ٢٦٠٧ ، وأخرجه النسائى فى الزكاة ، باب مانع الزكاة : ١٤/٥ ٠

(٣٩) مفاتيح الغيب : ٤٣٨/١، ٤٣٩ ٠

حقيقته ، فهو كذاب منافق ، ومـراء مخادع ، حتى ولو حاز ثقة الناس أجمعين ، بل إن هذه الثقـة تضاعف من جريمته ، وتكون وبالا عليـه عند الله وعند الناس أيضـا إذا انكشف عنه حجب الخداع .

ولا سبب لهذا الخداع إلا أن المنـافق (مريض القلب) ، ولا وازع عنده من دين أو عقـل ، ولا من حق أو عـدل ، ولا يتحـرك ضميره لشيء ما دام بعيدا عن أعين النـاس ، ومن كان هذا شـأنه فمن الصعب أن يؤوب إلى خير .

ولمـا كان المنـافقون مرضى القلوب مخادعين ، فقد اتخذوا لستر خداعهم ودسهم على المؤمنين عدة أسلحة يدارون بها حقيقتهم ، حتى أصبح كل سلاح منها صفة ملازمة للمنافقين ، وذلك مثل الكذب ، والحلف بالله ، والاعتمـاد على حسن المظهـر ، وإليك بيان كل صفة من هـذه الصفات التى اتسم بها المنافقون فى ضـوء آيات القـرآن الكريم .

الصفة الثالثـة : الـكذب

والكذب : هو الإخبار عن الشيء على خلاف مطابقة الخبر للواقع.

وجاء فى المعجم الوسيط : كذب كذبا ، وكذابا : أخبر عن الشيء بخلاف ما هو عليه فى الواقع ، وكذب عليـه : أخبر عنه بما لم يكن فيـه ، وكذب الظن ، والسمع والعين والرأى : أخطـأ ، وكذب الشيء : لم يتحقق ما ينبيء عنه وما يرجى منـه ، وكذب فـلان فلانا : أخبره بالكذب ، ويقال : كذبه الحديث ، ويقال : كذبت فـلانا نفسـه : حدثته بالأمانى البعيدة ، ويقال : كذب نفسـه وكذبته عينـه : أرته ما لا حقيقة له فهو كاذب ، وكذب بالأمـر تكذيبا وكذابا : أنكـره ، وفى التنزيل العـزيز : (**وكـذب به قومك وهـو الحق**)(٤٠) ومنـه : (**وكـذبوا**

بآياتنا كـذابا)(٤١) . والأكذوبة : الخبر الكـاذب وجمعـه أكاذيب ، والكذبة : المـرة من الكذب ، وفى المثل : **إن كنت كذوبا فكن ذكورا**(٤٢)

وقال الزبيدى : الكذب : هو الإخبـار عن الشىء بخـلاف ما هو سـواء فيه العمد والخطـأ إذ لا واسطة بين الصدق والكذب على ما قرره أهـل السنة والبيانيون(٤٣) .

والصدق والكذب أصلهما فى القول ماضيا أو مستقبلا ، وعدا كان أو غيره ، ولا يكونان بالقصد الأول إلا فى القول ، ولا يكونان فى القول إلا فى الخبر دون غيره من أصناف الكلام . وقد يكونان بالعرض وفى غيره من أنواع الكلام كالاستفهام والأمر والدعاء(٤٤) .

والكذب أنواع وفنون يتصـاعد بعضها فوق بعض من التافه اليسير إلى الخطـر العسـير ، والنفـاق : نوع من أنواع الكذب غير أنه ينحط إلى أسفل دركات الكذب ، ويدعو إلى الحقد والحسد والضغينة ، وسائر أخـلاق السـوء من الخبث والمكـر السىء ، والدهاء وأكل الحقوق واتباع الهـوى .

والكذب من الصفات التى تقضى على كـرامة الإنسـان ومـروءته ، **وهو كما قال رسول الله ﷺ : « .. وإن الكذب يهدى إلى الفجـور ،**

---

(٤٠) من الآية : ٦٦ من سـورة الأنعـام .

(٤١) الآية : ٢٨ من سـورة النبـأ .

(٤٢) راجـع المعجم الوسيط : ٧٨٠/٢، ٧٨١ بتصرف للدكتور ابراهيم أنيس وآخـرين ، الطبعة الثانية بدار المعارف .

(٤٣) راجع تاج العروس له : ٤٥٣/١ طبعة دار ليبيا .

(٤٤) المفردات فى غريب القـرآن للراغب : ص ٢٧٧ .

وإن الفجـور يهدى إلى النـار ، وإن الرجـل ليكذب حتى يكتب عند الله كـذابا »(٤٥) ٠

والكذاب إنسـان فقد مصداقيته عند نفسـه وعند الناس ، وإذا فقد الإنسـان مصداقيته عند نفسـه وعند النـاس أصبح إنسانا لا يؤبه به ، ولا يلتفت إليـه ، ولا يصدقه أحد ، ولا يستمع إليـه أحد إلا من كان على شـاكلته ٠

ولقد جاء وصف المنـافقين بالكذب فى القـرآن الكريم فى ثمانى آيات تسجل عليهم أقـوالهم وادعاءاتهم ، وتخبر عنهم بالأساليب المؤكدة أنهم لكاذبون ٠

وليس المـراد مجـرد صدور الكذب من المنافقين ، فهذا القدر ليس قاصرا عليهم ، بل هو واقع أو جائز على كل النـاس إلا من عصم الله ، وإنما المـراد أن الكذب صفة ملازمة لهم ، وهم بطبعهم مهيئون له ، فإن النفـاق نفسـه كذب صـريح ، حيث يعتمد على تكلفهم شيئا ليس فيهم، وادعائهم أمـرا هو منهم برىء ، وهو الإيمـان وبما أن النفـاق ملازم لهم ، فالكذب إذن ملازم لهم أيضـا ٠

ولكننا لا نقصد بصفة الكذب النفـاق ، أو حصرها فى النفـاق من حيث العقيدة ، وإنما نقصد الكذب فى الحديث ، وكونه صفـة مميزة للمنافقين ، والنفـاق بطبعه يهيىء صـاحبه لهذه الصفـة ، ذلك لأن المنـافق يعلم أنه يخفى أمـره عن الناس ، وأنه مخالف للناس جميعا ،

---

(٤٥) الحديث : أخرجه البخارى فى كتاب الأدب ، باب (قول الله تعـالى : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) ، وما ينهى عنه من الكذب : ٣٠/٨ ، وأخرجه مسلم فى كتاب البر، باب (قبح الكذب وحسن الصدق وفضـله) : ٢٩/٨ والإمـام أحمد فى مسنده : ٣٨٤/١ ٠

مؤمنهم وكافرهم ، فهو ليس مع المؤمنين ، ولكنه يكذب عليهم ويدعى أنه منهم ، وليس مع الكافرين ، ولكنه أيضا يكذب عليهم ويدعى أنه منهم ، والحقيقة أنه ليس مع أحد قط ، وليس مع شىء قط إلا نفسه ومصلحته الشخصية ، كما قال الله تعالى : (**مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء**).(٤٦) .

وشعور المنافق بأنه يخفى حقيقته عن الناس ، وتغلغل هذا الشعور فى نفسه ، يجعله يلتمس دائما أغطية وحجبا يزيد بها من إخفاء نفسه وحقيقته ، والوسيلة المباشرة فى صلته بالناس الكلام ، فيضع فى ذهنه دائما أن كلامه يجب أن يكون هذا الستار الذى يحجب حقيقته عن الناس ، بأن يصور لهم الصورة التى يريدها المنافق ، وهى اصطناع مظهر يخالف حقيقته .

وكون المنافق يبنى نظرته إلى كلامه على هذا الأساس ، يجعل كلامه نفسه متجها إلى مخالفة الواقع ، سواء أكان فيما يتعلق بالعقيدة أم بغيرها ، أعنى أن الأصل فى كذب المنافق ، هو التماسه وسائل لاخفاء حقيقته ، وأهم هذه الوسائل الكلام .

وإذا كانت الحقيقة المهمة التى يحرص المنافق على إخفائها تتعلق بالعقيدة ، ويتركز الكذب حولها ، فإن الكذب عند المنافق لا يقتصر على جانب العقيدة ، بل يصبح خلقا له سواء فى العقيدة أو فى غيرها ، لأنه يعتبر كلامه من حيث المبدأ غطاء له ، فإذا كلامه كله يصطبغ بهذه الصبغة ، فيصبح الكذب صفة له .

---

(٤٦) الآية : ١٤٣ من سورة النساء .

ومن العجيب الغريب ما ينقله الرازى عن بعض المختلفين حول النفاق والكفر الصريح من قولهم : إن ادعاء المنافق للإيمان يعتبر صدقا وليس كذبا ، حيث يقولون فى هذه المقارنة : « الكافر الأصلى أقبح ، لأنه جاهل بالقلب كاذب باللسان ، والمنافق جاهل بالقلب صادق باللسان »(٤٧) ، وكأنهم يريدون أن يدخلوا المسألة فى فلسفة سفسطية ، هل الصدق مطابقة الحقيقة ، أم مطابقة ما فى نفس المتكلم ؟ ولكن الواقع أن مقياس الصدق والكذب هو مطابقة ما فى نفس المتكلم أو عدم مطابقته ، وبهذا يكون الكافر الصريح صادقا ، لأنه أخبر عما فى نفسه بصدق ، ويكون المنافق هو الكاذب ، لأن كلامه يخالف ما فى نفسه . وبنحو هذا يرد الإمام الرازى على القائلين بصدق المنافقين فى ادعائهم الإسلام مقررا أن المنافقين كاذبون وليسوا صادقين فى هذا .

وحين ننظر إلى الكذب من الناحية الخلقية نجد أنه من أسوأ الصفات الخلقية ، إن لم يكن أسوأها على الاطلاق ، لأنه بالإضافة إلى كونه من أبرز الرذائل الخلقية ، وإلى كونه يمحو ثقة الناس فى صاحبه ، فإنه لا ينبع من نفس كريمة ، ولا من نفس يعتز بها صاحبها .

فحتى لو صرفنا النظر عن الناحية الدينية ، فان الكذب من الناحية الشخصية الذاتية يمثل فقدان الثقة بالنفس ، وفقدان الشعور بالكرامة والعزة ، لأن الذى يعتز بنفسه ، لا يرى غضاضة فى أن يظهر ما فيها للناس ، حتى ولو كان يعلم أن ما يقوله لا يرضى الناس،

---

(٤٧) أنظر مفاتيح الغيب له : ١/٤٣٥ .

وكل الناس يعلم أن الكذب رذيلة ، ومنقصة لصاحبه بين الناس ، والذى يعتز بنفسه يأبى أن يؤثر عنه كذبا .

ولذلك كثيرا ما نجد فى أخبار سادة العرب فى الجاهلية إيثارهم الصدق ولو كان فيه إضرار أو هلكة ، وحين يسألون عما الجأهم إلى هذا الصدق الذى يجلب عليهم ضررا ، أو يفوت عليهم نفعا كبيرا يكون جوابهم المألوف : (**خشيت أن يأثر الناس عنى كذبا**) .

ومن ذلك قصة أبى سفيان بن حرب حينما كان من زعماء المشركين فى مكة ، وقد استدعاه هرقل ملك الروم فى نفر من مشركى قريش ، وظل يسأله عن الرسول ﷺ ودينه وخلقه ، وقد كان أبو سفيان حينئذ يتمنى أن يقدم إلى هرقل وقومه صورة سيئة عن رسول الله ﷺ ودينه ، ولكن اعتزازه بنفسه حال بينه وبين الكذب ، وحين سئل عما منعه من أن يقول أمام هرقل عن محمد ما يشاء ، قال قولة سادة العرب المشهورة : « **فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على كذبا لكذبت عليه** » .

قال ابن حجر : وفى قوله : (يأثروا) دون قوله يكذبوا دليل على أنه كان واثقا منهم - أى أصحابه الذين معه - بعدم التكذيب أن لو كذب ، لاشتراكهم معه فى عداوة النبى ﷺ ، لكنه ترك ذلك استحياء وأنفة من أن يتحدثوا بذلك بعد أن يرجعوا فيصير عند سامعى ذلك كذابا(٤٨) .

وهذا المدلول للكذب ، وهو فقدان الثقة بالنفس أكثر ما يكون

---

(٤٨) راجع صحيح البخارى وشرحه فتح البارى لابن حجر كتاب بدء الوحي ، باب (٧) ١/٤٢ - ٤٦ .

انطباقا على النفـاق ، فإن المنـافق أعلم الناس بدخيلة نفسـه ، ومن هذه الدخيلة يعلم أنه شخص مذبذب لا قـرار له ولا ثبات ، ويعلم أنه شخص وحيد منبوذ ، لا صديق له ولا نصـير ، لأنه عدو لكل النـاس ، ويعلم أنه شخص أجـوف لا يحمـل أى مبدأ أو عقيدة ، فليس لنفسـه فى نظـره قيمة يحرص عليهـا ، مما يمنعه من الإساءة إليها بالكذب ، وليس فى نفسـه عقيدة أو مبادىء أو خلـق معين يمنعـه من مـزاولة الكـذب(٤٩) .

ولذلك استثنى النبى ﷺ صفة الكذب من بين الصفات الأخرى ، مبينـا أن هذه الصفة لا تناسب الإيمـان ، ولا تتفق معـه ، **وذلك حين سئل : « أيكون المؤمن جبـانا ؟ فقال : نعم ، فقيـل له : أيكون المؤمن بخيلا ؟ فقال : نعم ، فقيل له : أيكون المؤمن كذابا ؟ فقال : لا»(٥٠)**

وذلك مع مراعاة الفـارق بين كاذب وكذاب ، فان لفظ (كاذب) يفيد مجـرد صدور الكذب ، وهذا لا يتعـارض مع الإيمـان ، وإنمـا يتعارض معه أن يكون الكذب صفة وخلقـا لصاحبه ، ولهذا عبروا فى سؤالهم بلفظ (كذابا) الذى هو من صيغ المبـالغة .

والمنـافقون كذبوا على أنفسهم وكذبوا على المؤمنين وكذبوا على رسول الله ﷺ ، ولم يكتفوا بالكذب ، وإنما أكدوا كذبهم **بالحلف بالله تعـالى ، كما قال تعـالى : (ألم تر إلى الذين تولوا قـوما غضب الله**

---

(٤٩) انظر أسلوب السخرية فى القـرآن : ص ٣١٣، ٣١٤ .

(٥٠) الحديث : أخرجه الامام مالك فى الموطأ بسنده عن صفوان بن سليم : ص ٨٤٢ ، الطبعـة الأولى ، ١٩٧٩ ، منشـورات دار الآفاق الجديدة ببيروت ، وانظر تخريج الحديث ص ٥٠ من هذا الكتـاب .

عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون)(٥١) ، وقال تعالى : (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم ..)(٥٢) .

وهكذا سجل القرآن الكريم الكذب على المنافقين فى كثير من آياته التى توحى بأن الكذب فى المنافقين ليس عارضا ، أو وليد أحداث معينة ، وإنما هو صفة ملازمة لهم ، وأنه متوقع دائما منهم .

ولذلك نلمس من الأخبار التى تتحدث عن المواقف التى انكشف فيها كذبهم ، أنهم لا يخجلون من الكذب ، ولا من نسبته إليهم ، وأقصى ما يفعلونه حينئذ أن يحاولوا نفى تهمة الكذب عنهم بكذب آخر ، دون أن يبدوا خجلا أو تحرجا ، لأن الحياء كما يقول الرازى : تغير وانكسار يعترى الانسان من خوف ما يعاب به ويذم(٥٣) ، والمنافقون بطبعهم فى التلون والنفاق لا يخافون عيبا ولا ذما ، وبالتالى لا يخافون الكذب ولا يستحيون منه .

ومن صور الكذب التى سجلها القرآن الكريم على المنافقين ما يأتى :

١ - ادعاء الإيمان بالله واليوم الآخر

فقد ادعى المنافقون كذبا الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر ، وهم فى الحقيقة ليسوا بمؤمنين ، إنما هم منافقون لا يجرؤون على الإنكار والتصريح بحقيقة شعورهم فى مواجهة المؤمنين .

---

(٥١) الآية : ١٤ من سورة المجادلة .
(٥٢) من الآية : ٧٤ من سورة التوبة .
(٥٣) مفاتيح الغيب للرازى : ٥٣٤/١

لذلك أعد الله تعالى لهم العذاب الأليم بسبب كذبهم فى دعوى الإيمان ، واستهزائهم بآيات الرحمن . قال تعالى : (**ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون**)(٥٤) .

ومن خبث هؤلاء المنافقين أنهم ادعوا الإيمان بالله وباليوم الآخر ، ولم يذكروا الإيمان بالرسالة التى أرشدتنا إلى صحيح الإيمان ، ولذا كذبهم الله تعالى بقوله : « **وما هم بمؤمنين** » ، وهو تكذيب على أبلغ وجه حيث عبر سبحانه بالجملة الاسمية التى تفيد انتفاء الإيمان عنهم فى جميع الأزمنة ، بخلاف الفعلية الموافقة لدعواهم ، فلا تفيد إلا نفيه فى الماضى ، ثم أكد سبحانه النفى بالباء ، لأنه سبحانه يريد نفى الإيمان عنهم نفيا قاطعاً ، كقوله تعالى : (**يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها** ..)(٥٥) وصدق الله العظيم إذ يقول : (**إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون**)(٥٦) .

٢ ـ ادعاء شهادتهم للرسول ﷺ بالرسالة

إن أخطر أنواع الكذب على الإطلاق هو الكذب على رسول الله ﷺ لما رواه البخارى ومسلم عن المغيرة بن شعبة رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن كذبا على ليس ككذب

---

(٥٤) الآيات : ٨ ـ ١٠ من سورة البقرة .

(٥٥) الآية : ٣٧ من سورة المائدة .

(٥٦) الآية : ١٠٥ من سورة النحل .

على أحـد ، فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النـار »(٥٧) .

وإذا كان الكـذب على رسـول الله ﷺ بمعنى أن يتقـول عليـه الإنسـان بما لم يقل من أكبر الكبائر ، وأقبح القبائح بإجماع المسلمين الذين يعتـد بهم فى الإجمـاع كما قال النووى(٥٨) .

فإن القرآن الكريم قد سـجل على المنافقين كذبا أشـد منه جرمـا وأعظـم قبحـا ، وهو تكذيبهـم رسـالة الرسـول ﷺ ، حيث قال الله تعالى : « **إذا جاءك المنـافقون قالوا نشهد إنك لرسـول الله والله يعـلم إنك لرسـوله والله يشـهد إن المنافقين لكـاذبون**)(٥٩) .

حيث أرادوا بهذا الأسـلوب شهادة وأطأت فيها قلوبهم ألسنتهم ، والله تعالى الخبير بخفايا النفوس يعلم أن المنافقين كاذبون فى ادعائهم المواطأة ، أو أنهم كاذبون فيه ، لأنه إذا خلا عن المواطأة لم يكن شهادة فى الحقيقة ، فهم كاذبون فى تسميته شـهادة ، أو أنهم كاذبون عنـد أنفسـهم ، لأنهم كانوا يعتقدون أن قولهم : « **إنك لرسول الله** » كـذب وخبر على خـلاف ما عليـه حال المخبر عنـه .

قال الشـيخ الطاهـر بن عاشـور : ومعنى كون المنافقين كاذبون هنا أنهم كاذبون فى أخبارهم عن أنفسهم بأنهم يشهدون بأن محمدا ﷺ رسـول الله ، لأن خبرهم ذلك مخالف لما فى نفوسهم ، فهم لا يشهدون ،

---

(٥٧) الحـديث : أخرجه البخارى فى كتاب الجنائز ، باب ما يكـره من النياحة على الميت : ١٩١/٣ من كتاب فتح البارى . وأخرجه مسـلم فى المقدمة ، باب « التحـذير من الكـذب على رسـول الله ﷺ » ٢٢٤/١ من صـحيح مسلم بشرح النووى .

(٥٨) ٢٢٨/١ من المنهاج بشرح صحيح مسـلم بن الحجاج .

(٥٩) أول سـورة « المنافقون » .

ولا يوافق قولهم ما فى نفوسهم (٦٠) .

فالمنافقون كانوا يجيئون لرسول الله ﷺ فيشهدون بين يديه برسالته شهادة باللسان ، لا يقصدون بها وجه الحق ، وإنما يقولونها للتقية ، وليخفوا بها أمرهم وحقيقتهم على المسلمين . فهم كاذبون فى أنهم جاءوا ليشهدوا هذه الشهادة ، فقد جاءوا ليخدعوا المسلمين بها ، ويداروا أنفسهم بقولها ، ومن ثم كذبهم الله تعالى فى شهادتهم بعد التحفظ الذى يثبت حقيقة الرسالة (**والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكاذبون**) .

فالتعبير القرآنى فيه من الدقة والاحتياط ما يثير الانتباه حيث يبادر باثبات الرسالة قبل تكذيب مقالة المنافقين ، ولولا هذا التحفظ لأوهم ظاهر العبارة تكذيب المنافقين فى موضوع شهادتهم وهو الرسالة . وليس هذا هو المقصود ، إنما المقصود تكذيب إقرارهم ، فهم لا يقرون الرسالة حقا ، ولا يشهدون بها خالص الضمير !!(٦١) .

وللإنسان أن يتساءل وهو يقرأ قولهم : « **نشهد إنك لرسول الله**) ما الذى يدعوهم الى الحرص على أن يكون أول ما يبدأون به النبى ﷺ وحين يواجهونه هو تأكيد أنهم مسلمون ، مع أن المفروض أنهم معدودون بين المسلمين ، والمسلمون أنفسهم يعدونهم منهم ؟ ومع أن المقام لم يقتض منهم هذا الحديث ، فلم يسألهم سائل : هل أنتم مسلمون ؟ وهل تعتقدون أن محمدا رسول الله ؟ وليس من المألوف أن المسلمين حينما يأتون إلى النبى ﷺ يؤكدون له إسلامهم ، ويقولون له : نشهد إنك رسول الله .

---

(٦٠) تفسير التحرير والتنوير له : ٢٣٥/٢٨

(٦١) فى ظلال القرآن : ٣٥٧٤/٦

ولكن كما يقول العرب « يكاد المريب أن يقول خذونى » ، وكما يقول علماء النفس ، ان الذى يركز حديثه دائما على نفى شىء عن نفسه يدل على أنه متصف بهذا الشىء ، فالذى يحدثك دائما عن إخلاصه وحبه ، وينفى دائما عن نفسه سوء النية يدل على أنه يشعر نحوك بعكس ذلك . والذين يتشدقون دائما بنزاهتهم وينفون عن أنفسهم دائما الانحراف والزيغ عن الأمانة هم أبعد الناس عن الأمانة ، وبمقدار ما يكون من قوة تأكيدهم ونفيهم يكون اتصافهم بهذه الصفة التى ينفونها عن أنفسهم .

وكذلك المنافقون ، لما كانوا أبعد الناس عن الإسلام ، وهم يعرفون ذلك من أنفسهم ، فيخيل إليهم أن الناس يكادون يطلعون على ما فى نفوسهم ، فيسارعون إلى إخفاء ما يتوهمون ظهوره ، ملتمسين كل وسائل الإخفاء ، ولذلك كان حديثهم مشتملا على عدة تأكيدات ، فبالإضافة إلى أنهم جعلوا هذا الحديث فى أحاديثهم ، وحتى بدون تمهيد له كأنهم يخشون كل لحظة تمضى أن ينكشف فيها أمرهم ، فبالإضافة إلى ذلك حرصوا على أن يحملوا حديثهم كل ألوان التأكيد ، وليس أدل على ذلك من أن تشتمل ثلاث كلمات على ثلاث تأكيدات هى « نشهد إنك لرسول الله » فنشهد قسم وهو تأكيد ، وإن واللام كلاهما تأكيد ، وكما هو معروف فى علم البلاغة من أن التأكيد لا يكون إلا فى مقام الإنكار أو توقع الانكار .

كذلك المنافقون لما كانوا يعلمون من أنفسهم أنهم كاذبون ، فيخيل إليهم أن كل مستمع سير تاب فيهم ، وأن الأمر الذى يخفونه أمر عظيم ، لذلك اندفعوا يحملون الكلام كل ما يمكن حمله من أنواع التأكيد .

٣ - ادعاء إرادة الخير من بناء مسجد الضرار

رأى جماعة من منافقى المدينة أن أفضل وسيلة يكيدون بها للإسلام ونبيه ﷺ أن يبنوا مسجدا تحت ستار التجمع لعبادة الله تعالى ، والمناداة فيه بأن محمدا رسول الله ، وتحت هذا الشعار يعملون للكفر بالله ورسوله ، والإضرار بالإسلام والمسلمين وتفريق كلمتهم .

وبالفعل بنوا هذا المسجد ، وأحكموا بنيانه ، وبعد إتمامه ذهبوا إلى رسول الله ﷺ ، وقالوا : إن بيوتنا قاصية عن مسجدك ، ويصعب علينا الحضور فيه ، ونكره الصلاة فى غير جماعة ، وقد بنينا مسجدا لهذه الغاية ، وللضعفاء وأهل العلة ، فان رأيت أن تصلى فيه لنتيمن ونتبرك بالصلاة فى موضع صلاتك .

وهذا هو شأن الخائنين والمنافقين فى كل عصر ، يحملون شعارات البناء ، ويهدفون من وراءها الهدم والتخريب . ولكن سرعان ما تتكشف عوراتهم ، ويفتضح أمرهم أمام الناس كما أفتضح أصحاب مسجد الضرار ، حيث أنزل الله تعالى : (**والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون . لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين . أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين . لا يزال**

بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم)(٦٢) ٠

اتفق المفسرون وكتاب السيرة النبوة على أن المقصود بهذا العدو اللعين الذى حارب الله ورسوله من قبل هو رجل من الخزرج يقال له : أبو عامر الراهب(٦٣) ، وكان قد تنصر ، وكانت له رئاسة ومكانة بين قومه ، ولما قدم النبى ﷺ إلى المدينة بارزه هذا اللعين بالعداوة ، وكان رسول الله ﷺ يسميه الفاسق ، وحين رأى اللعين أمر النبى ﷺ فى ارتفاع فر إلى مكة يحرض قريشا على النبى ﷺ ، وبعد فتحها فر إلى الطائف ، ولما أسلم أهلها فر إلى الشام ، ومن هناك كتب إلى المنافقين من أنصاره أن يستعدوا ويبنوا له مسجدا ، لأنه سيأتيهم بجنود قيصر لحرب النبى ﷺ ٠

ولما نزلت هذه الآيات قال النبى ﷺ لبعض أصحابه انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه ، ففعلوا ذلك ، وأمر ﷺ أن يتخذ مكانا لإلقاء الجيف والقمامة حتى لا تقوم له قائمة بعد ذلك ٠

هذا وإنك إذا تأملت فى خطوات هذا الكيد المتلصص من المنافقين ، وكيفيته ووسائله ، علمت أن طبيعة النفاق واحدة فى كل عصر وزمن ، وأن وسيلة المنافقين لا تتبدل ولا تختلف ، وأنهم دائما فى جبنهم الذليل وكيدهم الحقير ، وفى ابتعادهم عن النور وتعلقهم بالظلام ٠

فهم دائما يسجدون بجباههم على أقدام المستعمر الأجنبى ليعينهم وسيلة حرب ضد إسلام المسلمين فى بلدهم ، حتى إذا انفلتوا

---

(٦٢) الآيات : ١٠٧ ـ ١١٠ من سورة التوبة ٠

(٦٣) والد الصحابى الجليل حنظلة بن أبى عامر غسيل الملائكة ٠

إلى بنى قومهم من المسلمين المؤمنين ، تظاهروا بالاسلام ، واصطنعوا مظهر الإعجاب به والدعوة إليه . فاذا أمكنتهم الفرصة من خنق حقيقة من حقائق هذا الدين والقضاء على بعض دعاته أعلنوا أنهم يقومون برسالة تطويره ، وإنما يقضون على مستغليه من أعداء الأمة !! والحقيقة أنهم أعدى أعداءه .

ولا يزالون يتخذون كثيرا من مساجد الضرار فى صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة التى ظاهرها الإسلام وباطنها هدمه والقضاء عليه ، أو تشويهه وتمويهه وتمييعه !! .

وذلك مثل التشكيلات والتنظيمات والكتب والبحوث التى تتحدث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون أن الإسلام يذبح ويمحق ؟ فتخدرهم هذه التشكيلات والتنظيمات وتلك الكتب إلى أن الإسلام بخير ولا خوف عليه ولا قلق !! .

ومنذ أن ظهر النفط فى البلاد العربية ، وقامت من أجله الشركات الأجنبية ظهر معها المئات أيضا من مساجد الضرار فى صور وأشكال شتى ، منها ما يحمل اسم المعبد أو معهد الدراسات ، ومنها اسم المكتبة العامة ، أو الجمعية الدينية ، ومنها اسم النادى الثقافى أو الرياضى أو الاجتماعى ، ومنها ماظهر فى شكل كتاب أو صحيفة أو محاضرة تذاع وتنشر باسم الدين والوطن ، ولا هدف من ورائها إلا محق الدين والوطن .. وما إلى ذلك من المشاريع التى ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب . **(وليحلفن ان أردنا الا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون)** .

وبعد فقد دل موقف رسول الله ﷺ من مسجد الضرار وهدمه ، على ضرورة تعطيل أو هدم أو تحريق أماكن المعصية التى يرتكب الناس فيها معصية الله تعالى ورسوله وإن اختبأت حقيقة هذه الأماكن عن أنظار الناس وراء مظاهر الخير والبر .

وإذا كان هـذا هو ما فعلـه رسـول الله ﷺ ، بمسـجد الضرار ، فما بالك بأماكن المعاصى والفواحش التى يعصى الله فيها جهارا وعلنا ؟! وقد أحـرق عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قرية بكاملها كان يباع فيها الخمـر ، وحرق حانـوت رويشـد الثقفى وسـماه فويسقا(٦٤) ، وهـذا ما لم يقع فيـه أى خـلاف بين علماء المسـلمين .

٤ ـ إدعاء عدم قـدرتهم على الجهاد فى سبيل الله

ومن صـور كذب المنافقين التى كشـفها القرآن الكريم ، وبينهـا أجـل بيان تخلفهم عن الخروج للجهـاد فى سـبيل الله ، واعتذارهـم كذبا أنهم لا يستطيعون الجهاد بسـبب ضـعف أبدانهم وقلـة أموالهـم . قال الله تعـالى : (**لو كان عرضـا قـريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشـقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون . عفا الله عنك لمـا أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين**)(٦٥) .

أى لو كان ما دعـوا إليه نفعـا دنيويا قريب المنال سهل المـأخذ ، وسـفرا متوسطا لا مشـقة فيه لاتبعوك طمعا فى الحصول على المغانم السـهلة القريبة ، ولكن بعدت عليهم المسافة الشاقة من المدينة إلى تبوك ، فلهذا تخلفوا عن اتباعك وآثروا الراحة والدعة .

وسـيحلفون بالله لكم معتذرين بأعذار كاذبـة ـ عند عودتكـم ـ لو كنا نستطيع الخروج معكم ـ إلى تبوك ـ لمـا تأخرنا ، يريدون بذلك

---

(٦٤) راجع زاد المعاد فى هـدى خير العباد : ١٧/٣ لابن قيم الجوزية طبعة المطبعة المصرية ، وفقه السيرة : ص ٣٢٦ للدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطى . الطبعة السابعة ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م .

(٦٥) الآية : ٤٢ ، ٤٣ من سـورة التوبة .

أنهم لم تكن لهم قدرة على الجهاد لضعف أبدانهم ، أو لعدم وجود المال والراحلة ، أو غير ذلك من الأعذار .

وقد أوقعوا أنفسهم فى الهلاك بأيمانهم الكاذبة ، لأن الله تعالى يعلم أنهم كاذبون فى دعواهم واعتذارهم حيث كانوا مستطيعين للخروج للجهاد ولم يخرجوا .

وقال تعالى أيضا فى حق المنافقين وتخلفهم عن الجهاد فى سبيل الله واعتذارهم : (وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم)(*) .

وهكذا يتخذ المنافقون من الكذب وسيلة يسترون بها نفاقهم ويدارون جبنهم وخداعهم ، وذلك عن طريق الأيمان الكاذبة ، والحيل المصطنعة ، ولكن أنى لهم ذلك ، والقرآن الكريم يكشف أستارهم ، ويفضح أسرارهم .

الصفة الرابعة . الحلف بالله تعالى

لما كان المنافقون واثقين من كذبهم ، ويسيطر عليهم الشعور بشك الناس فيهم ، لذلك كان كلامهم دائما يعتمد على الحلف والتأكيد ، والقرآن يؤكد هذا فى كثير من آياته ، ومن ذلك قوله تعالى : (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون)(٦٦) .

فهم دائما يحلفون على كلامهم ويؤكدونه لسيطرة التوجس على نفوسهم ، والخوف من أن يكتشف أمرهم ، فيجعلون من أيمانهم وتأكيداتهم محاولة أخرى لتضليل السامعين لهم ، وصرفهم عن الشك فى أمرهم ، ولكن القرآن الكريم يرد هذا السهم إلى نحورهم ،

(*) الآية : ٩٠ من سورة التوبة .
(٦٦) الآية : ٥٦ من سورة التوبة .

ويجعل الوسيلة التى أرادوا أن يغطوا بها نفاقهم هى نفسها وسيلة لكشف نفاقهم .

ويسخر القرآن الكريم من الأيمان التى يحلفها المنافقون ، ويجهدون أنفسهم بها ليرضوا المسلمين عنهم ، وليحاولوا رفع الشك من نفوسهم ، فيبين لهم القرآن أن رضى الناس ليس غاية المؤمنين ، وإنما غاية المؤمنين رضى الله تعالى ، فلو كانوا مؤمنين كما يزعمون لما نافقوا ، بل لحرصوا على إرضاء الله تعالى بالتزام الإيمان وصدق العقيدة ، وحينئذ يكونون قد حققوا بالإضافة إلى رضى الله تعالى الغاية التى ينشدونها بالحلف، فحين يرضى عنهم الله تعالى سيرضى عنهم الرسول ﷺ، ومن البدهى أنه حين يرضى عنهم الرسول سيرضى عنهم المسلمون الذين يبذل المنافقون أيمانهم لينالوا رضاهم . قال تعالى : (**يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين**)(٦٧) .

وكذلك فى قوله تعالى : « **يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير**)(٦٨) وقوله تعالى : (**سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فاعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون**)(٦٩) .

ففى هاتين الآيتين تهكم واحتقار شديد بالمنافقين ، حيث إن الآية الأولى تتهكم بهم موبخة إياهم على سوء الخلق ، وإنكار الجميل ،

(٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩) الآيات : ٦٢ ، ٧٤ ، ٩٥ من سورة التوبة .

وجزاؤهم للمعروف بالإساءة . فالنبى ﷺ قد أحسن إليهم ، وغض الطرف عن نفاقهم رجاء أن يتوبوا إلى الله تعالى ، حيث أعطاهم ويسر لهم من الرزق ما لم يكونوا ليصلوا إليه لولاه ، فكان المتوقع أن يثمر هذا المعروف فى قلوبهم خيرا ، ولكنهم ردوه نفاقا وكفرا وعداء للرسول والمسلمين ، فيؤنبهم القرآن على هذا الخلق ثانيبا مرجعا بقوله : (**وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله**) كان إحسان الرسول إليهم كان هو مصدر نقمتهم .

وسواء كان سبب نزول الآية أحد المنافقين وهو الجلاس بن سويد كما ينقل المفسرون أو غيره ، فإن المعنى لا يخلو من عموم يشير إلى خلق المنافقين .

وأما الآية الثانية : فإنها تصب على المنافقين احتقارا شديدا ، وتأمر المسلمين بأن يعاملوهم بهذا الاحتقار ، فهم يحلفون للمسلمين كل هذه الأيمان حين يتخلفون عن الجهاد مع المسلمين ، مدعين أن لهم أعذارا لم يستطيعوا معها أن يشاركوا فى الجهاد ، ليصدق المسلمون هذه الأيمان فلا يؤاخذونهم ، ولا يعاتبونهم .

والقرآن الكريم يوجه المسلمين إلى الإعراض عنهم فعلا ، لكن لا بمعنى العفو والصفح ، إنما بمعنى الإهمال والاجتناب ، فهم أهون وأحقر من أن يرفعوا إلى مرتبة العتاب ، معللا ذلك بأنهم دنس يتجنب ويتوقى ، (**فأعرضوا عنهم إنهم رجس**) .

وهذا التجسيم الحسى للدنس المعنوى . فهم ليسوا رجسا - أى دنسا - بأجسادهم وذواتهم ، إنما هم رجس بأرواحهم وأعمالهم . ولكنها الصورة المجسمة أشد بشاعة وأبين قذارة ، وأدعى إلى

التقزز والاشمئزاز ، وإلى الاحتقار كذلك والازدراء (٧٠) .

ولئن كان القرآن الكريم يأمر المسلمين بالإعراض عن عتاب المنافقين أو توبيخهم احتقارا لهم ، فإنه يحذر المسلمين من أن تطمئن نفوسهم إلى المنافقين ، أو أن يشعروا نحوهم بالرضى ، لأن الله تعالى ساخط عليهم ، ولا ينبغى للمسلمين أن يرضوا عمن سخط الله عليه ، قال تعالى : **(يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين)** (٧١) .

فالله سبحانه يقرر أنهم فسقوا عن دين الله بهذا القعود الناشىء عن النفاق ، وأن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين حتى ولو استطاعوا أن يحلفوا ويعتذروا حتى يرضى عنهم المسلمون ! .. وحكم الله فيهم هو الحكم . ورضا الناس - ولو كانوا هم المسلمين - فى هذه الحالة لا يفيد من غضب الله عليهم ، ولا يجديهم فتيلا . إنما السبيل إلى رضا الله تعالى هو الرجوع عن هذا الفسق ، والعودة إلى دين الله القويم .

وحتى المنافقون الذين بنوا مسجد الضرار لينافسوا به مسجد الرسول ﷺ ، ويصرفوا فريقا من المسلمين فى محاولة لتضليلهم وغوايتهم ، يحلفون أيضا مؤكدين أنهم لم يقصدوا ببناء هذا المسجد إلا الخير ، ولكن القرآن يكذبهم ويكشف نفاقهم ، قال تعالى : **(والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون)** (٧٢) .

---

(٧٠) فى ظلال القرآن : ص ١٦٩٦

(٧١) الآية : ٩٦ من سورة التوبة .

(٧٢) الآية : ١٠٧ من سورة التوبة .

فالمنافقون يعتمدون فى كلامهم على التأكيد والحلف ، وكما يقول علمـاء البلاغة عن أسـلوب التأكيد أنه نابع من شعورهم بشك السامعين فيهم ، وارتيابهم بهم ، فيجعـل المنافقون من أيمـانهم التى يحلفونها سـتارا يحاولون به سـتر نفاقهـم .

وإذا نظرنا إلى اعتماد المنافقين على الحلف والتأكيد من الناحية النفسية نراه يخفى وراءه شـيئا آخر هـو ضـعف الثقـة بالنفس ، لأن الشخص الواثق من نفسـه لا يرى هناك ما يدعـوه إلى التماس وسائل غير عادية ليحمل غيره على تصديقه ، وحتى عند تأزم المواقف ، فإن الواثق من نفسه يجد عنده القدرة على الثبـات ، والاستعداد لتحمـل ما ينجلى عنـه الموقف أيا كانت النتيجـة ، ولا يفقد مع ذلك ثباته .

ولذلك يسـوق القرآن الكريم أحـد المواقف للثقة بالنفس ، وهـو موقف نبى الله يوسـف عليه السـلام حين اتهمته امرأة العزيز أمام سيده بمحاولة الاعتداء على عرضها ، طالبة له أسـوأ العقـاب ، قائلـة : (ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم)(٧٣) فنجد ثقـة يوسـف من نفسـه تجعلـه ينفى عن نفسـه التهمـة فى أسـلوب عادى يخلـو من أى حلف أو تأكيد حين قال هـذه الكلمـة الوجيـزة : (هى راودتنى عن نفسى)(٧٣) .

ومع أن هـذا الأسـلوب مخالف للقواعد التى تعارف عليها علماء البلاغة من حيث أن موقف الإنكار يقتضى التأكيد ، وموقف يوسف عليه السـلام حينئذ محاط بكل أنواع الإنكار ، فكان المتوقع أن يحـاول أن يؤكـد براءته ، إلا أن مراعاة الاعتداد بالنفس ، والاستهانة بكل إنكار

---

(٧٣) الآية : ٢٥ ، ٢٦ من سـورة يوسف .

كأنه عـدم ، يجعل هذا الأسـلوب فى قمة البلاغة (٧٤) .

ولمـا كان المنافقون يفقدون الثقة بالنفس ، فإنهم يتخـذون من أيمانهم وقاية يسترون بها أنفسهم أمام المؤمنين . قال تعالى : (**اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون**) (٧٥) .

والتعبير بلفظ (جنـة) واختيـاره فى هـذا المقـام يوحى بأن المنافقين فيما بينهم وبين أنفسـهم يعتبرون أنفسـهم فى حالة حرب مع المؤمنين مهما يكن مظهر توددهم أو تقربهم إلى المؤمنين ، وهم بشعور الحرب يتخذون أسـلحة لها ، وقد اختاروا الحلف بالله تعالى ليكـون سلاح وقاية لهم من المؤمنين ، كما يلبس المقاتل جنته ليتبقى بها طعنات الأعـداء .

فالمنافقون فى حرب خطيرة ضد المؤمنين ، غاية الأمر أنها حرب من طرف واحـد ، هـو المنافقون فى حالة عدم اكتشاف نفاقهم ، إنهم لا شـك يعدون أنفسـهم فى حـرب مع المؤمنـين ، رغـم أن المؤمنـين لا يبادلونهم هذا الشعور ، لأنهم لا يعرفون حينئذ أن هؤلاء منافقون ، ومن المعروف أن الحـرب نوعان : حرب عسكرية ، وحـرب نفسـية أو خفيـة ، وحرب المنافقين هى الحرب النفسية أو الخفيـة ، ولذلك كان من دقة تعبير القرآن استخدام صورة الحرب فى التعبير بالدرع (الجنة) ومن غـاية الدقـة أن يشـير إلى أنهـا حرب نفسـية وليست عسكرية ، بأن جعـل الدرع منسـوجة من الحلـف وليس من الحـديد (**اتخـذوا أيمانهـم جنـة**) .

---

(٧٤) أسلوب القرآن فى كشف النفاق : ص ٤١

(٧٥) الآية : ٢ من سـورة المنافقون .

وفى تعبير القرآن بأن درع المنافقين (الجنة) مصنوعة من الحلف الكاذب ، واعتقادهم أنها تحميهم ، إنما هو وهم زائف يتخيلونه تخيلا ، حيث يتوهمون أن هذه الأيمان تحميهم من الله ورسوله والمؤمنين ، والحقيقة أنه لا توجد حولهم (جنة) ولا توجد لهم حماية أصلا ، وهم مكشوفون ومعرضون لما يصيبهم من الله ورسوله والمومنين(٧٦) .

الصفة الخامسة : الإعتماد على المظهر

ليس المقصود بذلك مجرد العناية بالمظهر ، فذلك القدر غير معيب ، بل هو أقرب إلى الحسنة منه إلى السيئة ، ولكن المنافقين لا يقفون بمظهرهم عند هذا الحد ، ولا يكتفون منه بالقدر الذى يدعو إلى الرغبة ، ولا يحمل على النفور ، وإنما يصرفون إليه همهم ، ويفرغون فيه كل طاقتهم ، لأنه من أهم الوسائل التى يسترون بها حقيقة نفاقهم وكفرهم وخداعهم للناس .

فلشعور المنافقين بالريبة فى نفوسهم ، ولخوفهم من أن يكشف الناس أمرهم يلتمسون كل وسيلة لزيادة تضليل الناس عن حقيقتهم ، وصرفهم عن الشك فى أمرهم ، ومن ذلك حسن المظهر الذى يفرغون فيه كل همهم لتنشغل به عيون الناس وأفكارهم عن التفكير فى أمرهم ، وكأنهم يجعلون هذا المظهر حاجزا وحجابا بين ما تنطوى عليه نفوسهم وبين الناس .

---

(٧٦) التصوير الساخر فى القرآن الكريم : ص ٩٣ ، ٩٤ بتصرف شديد للدكتور/ عبد الحليم حفنى . طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢

ويتمثل اعتماد المنافقين على المظهر فى ناحيتين ، إحداهما : الملبس وسائر ما يتعلق بالمظهر الجسمى ، والآخر : الكلام ، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : (**وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون**) (٧٧) .

أى : إذا نظرت إلى هؤلاء المنافقين راقك منظرهم ، واستحسنت هيئتهم ، وأخذتك فصاحة ألسنتهم وبلاغة حديثهم ، حيث كان عبد الله ابن أبى بن سلول رأس المنافقين فى المدينة رجلا جسيما صبيحا فصيحا ذلق اللسان ، وقوم من المنافقين فى مثل صفته ، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيستندون فيه ، ولهم جهارة المنظر وفصاحة الألسن ، فكان النبى - ﷺ - ومن حضر من المؤمنين يعجبون بأجسامهم ويسمعون إلى كلامهم .

ومع أن الآية قد نزلت فى شأن عبد الله بن أبى وجماعة من المنافقين ممن كانوا يحضرون مجلس الرسول ﷺ إلا أن العبرة فى أحكام القرآن الكريم بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب كما قرر ذلك علماء الأصول .

فإن قيل : إن النفاق معنى نفسى ، وهذان الوصفان حسيان ظاهران فما العلاقة بينهما ؟

نقول : إنه بصرف النظر عن الناحية الخاصة ، من أن الذين يتوقع أن يرتادوا مجلس النبى ﷺ بالذات من المنافقين إنما يكونون من وجهاء القوم وقادتهم ، لأن شعور المنافق بالخوف من انكشاف

---

(٧٧) الآية : ٤ من سورة المنافقون .

خبيئته ، وشعوره بالعداء يجعله لا يقدم على مواجهة شخصية النبى - ﷺ - بالذات بما لها من قوة ومهابة وجلال الا الخاصة من المنافقين ، فانهم بما أوتوا من تفوق فى النفاق ، وقدرة على التفكير فى أحلك الظروف يستطيعون أن يجازفوا بهذه المواجهة .

نقول : مع صرف النظر عن ذلك ، لو نظرنا إلى هذا الوصف من الناحية النفسية نجده من أبلغ ما يوصف به المنافقون ، ومن أيسر ما يعرفون به أيضا ، وذلك أنه من المعروف نفسيا أن الشخص الذى يشعر فى نفسه بشىء من النقص ، يحاول أن يعوضه فى سلوكه ، فيتخيل هذا الشخص أن نقصه سيحمل الناس على عدم تقديره واحترامه ، فيلتزم تصرفات يتخيل أيضا أنها سترفع من شأنه ، وتحمل الناس على حسن رأيهم فيه ، فيتأنق فى ملبسه وفى كلامه ، ويتعمد أن يتقدم الناس فى مشيه أو حديثه ، ويتخذ نحو ذلك فى كل سلوكه مع الناس وأمامهم .

ولذلك نجد أصحاب المهن الذين يعتمدون على رأى الناس فيهم ، وتتأثر أوضاعهم وأرزاقهم برأى الناس فيهم ، نجدهم يبالغون فى أناقة الملبس وحسن المظهر ، وذلك كالمغنين والممثلين ، ومحترفى قراءة القرآن الكريم ، فهؤلاء إن حسن رأى الناس فيهم نجحوا ، وإن ساء انهارت حياتهم ، وأغلق مورد رزقهم ، وتبخرت آمالهم ، وأظلم مستقبلهم ، وهذه الاعتبارات كلها قائمة فى نفوسهم ، لذلك نجدهم يلتمسون كل وسيلة تكسبهم رضى الناس ، ويفرغون فى هذه الوسائل كل جهدهم ، ومن هذه الوسائل المظهر .

وليس الكلام عن قيمة المظهر فى حقيقته ، وإنما عن نظرة هذا النوع من الناس إليه ، وشعوره بالاعتماد عليه ، فأصحاب هذه المهن

يحرصون كل الحرص على المظهر ، لأنهم يشعرون أنه وسيلة إلى رضى الناس ، وعيشهم يقوم على رضى الناس .

وإذا كان أصحاب هذه المهن بهذا الوضع ، لأن عيشهم أو آمالهم مرتبطة برضى الناس عنهم ، فكيف الحال بالمنافقين الذين لا يرتبط عيشهم أو آمالهم فحسب برضى الناس ، وإنما قد ترتبط حياتهم نفسها برضى الناس ، فمثلا المنافقون الذين يعيشون بين المسلمين يحاولون خداعهم ، ويضربون بمعاولهم فى أساس بنيانهم ، وينفثون بينهم كل ما تحمل نفوسهم من سموم ، لذلك هم يشعرون دائما بأن حياتهم مهددة ، وأن أرواحهم فى خطر لو انكشف أمرهم ، وعرف المسلمون حقيقتهم ، فهم يبذلون أقصى ما فى نفوسهم من جهد لالتماس كل وسيلة ، ولو كان فيها بصيص ضعيف من الأمل فى أن ينالوا رضى المسلمين ، ويصرفوهم عن الشك فيهم ، أو التفكير فى أمرهم ، ومن هذه الوسائل التأنق فى الملبس وما وسعهم التأنق ، والتصنع فى الحديث ما وسعهم التصنع .

وقد يقال : إن التعبير بأجسامهم دون ملابسهم فى قوله تعالى : **(وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم)** يوحى بأن هذا الوصف أصيل وليس متكلفا ، أى أن أجسامهم جميلة بطبعها . ونقول : إن الجسم وإن كان هو الأصل ، إلا أن الزينة بالملابس وغيرها جزء من الحكم عليه بالحسن أو القبح ، بدليل أننا كثيرا ما نرى جسما جميلا بملابسه ، فاذا تجرد من ملابسه لم نجد فيه ما كنا نراه من جمال وكذلك العكس .

ولما كانت هذه الصفة ، وهى جمال الأجسام وحلاوة المنطق يشارك المنافقين فيها غيرهم إن لم يكن تكلفا كتكلفهم ، فقد يكون

طبيعة وسليقة ، لذلك كان لابد أن يكون هناك مقياس يميز المنافقين عن غيرهم ممن يشاركهم فى هذه الصفة .

وذلك المقياس يكون بتوجيه المسلمين إلى أنهم لا ينبغى أن يتخذوا من المظهر حكما على الأشخاص ، بل ينبغى أن يكونوا أعمق وأدق فى أحكامهم ، فكثيرا ما كانت المظاهر ثغرات يؤتى من قبلها الناس ، يكبرون الشخص أيما إكبار حينما يرون مظهره ، ثم يصغرونه أيما إصغار حين يلمسون مخبره ، كما حدث مع الإمام أبى حنيفة - رحمه الله تعالى - حينما كان يلقى درسا وقد مد رجله أمامه ، وإذا بشيخ جسيم وسيم مهيب يدخل عليه ليحضر مجلسه ، فثنى أبو حنيفة رجله واعتدل فى جلسته إجلالا للرجل ، واستمر فى درسه عن حكم صلاة الفجر إذا طلعت الشمس أثناء الصلاة ، وإذا بهذا الشيخ المهيب يسأل أبا حنيفة قائلا : وما الحكم إذا طلعت الشمس قبل الفجر ؟ فقال أبو حنيفة كلمته التى ذهبت مذهب الأمثال « آن لأبى حنيفة أن يمد رجله »(٨٧) .

وكثيرا ما يضمر الناس للشخص كل الرضا والود يستريحون إلى جمال شكله ، وحسن مظهره ، وسحر حديثه وتلطفه ، ثم يضمرون له كل النفور حينما يلمسون خبثه وخداعه وحقده ، كما كان يحدث للمسلمين دائما مع المنافقين ، فالمظهر إذن لا ينبغى أن يكون وحده مقياسا عند الرجل الحصيف .

لذلك جاء قوله تعالى فى الآية « **كأنهم خشب مسندة** » ليمحو من نفس الرسول ﷺ ومن نفوس المسلمين كل إعجاب بالمنافقين أو الاستماع

---

(٧٨) أسلوب القرآن فى كشف النفاق ص ٤٨ .

إلى وقع حديثهم ، لأن هذه الأجسام المهيبة ، والمظاهر الأنيقة ما هى إلا مجرد ألواح من الخشب ، لا فائدة منها سوى أنها مسندة متراصة تشغل حيزا من الفراغ كان إخلاؤه من هذه الألواح أجدى وأنفع .

ويبين للرسول ﷺ وللمسلمين ما خدعوا فيه من كلام هؤلاء المنافقين ، فهم بطبيعة الحال يتحدثون للرسول ﷺ والمسلمين بأنهم نعم الأنصار للإسلام ، وأنهم المرجون للشدائد والملمات ، وهم الذين يعتمد عليهم حيثما يجد الجد ، ويدعو داعى التضحيات ، ولكن القرآن الكريم يكشف لهم الحقيقة ، وهى أن كلام هؤلاء المنافقين كذب أجوف، وأن هذا المظهر الذى يبديه كلامهم يخالف حقيقة نفوسهم ويناقضها ، فهم ليسوا شجعانا كما يدعون ، ولا يعتمد عليهم فى قليل أو كثير ، بل هم أجبن الناس وأشدهم رعبا وهلعا ، حتى أن سيطرة الرعب والفزع عليهم تخرجهم عن الرشد إلى توهم الخطر فى كل شىء ، والخوف من كل شىء حتى « يحسبون كل صيحة عليهم » عدوا مهاجما لهم .

ثم يبين القرآن الكريم أيضا للرسول ﷺ حقيقة مشاعر المنافقين نحو دينه ، فى أن هؤلاء الذين يتوددون إليك ويظهرون الحب والمودة هم أعدى الأعداء ، بل لخطورتهم فإنه إذا قيست كل عداوة للإسلام بعداوتهم فكأنها ليست عداوة ، وكأن المنافقين وحدهم هم الأعداء ، « هم العدو فاحذرهم » وفى هذا التعبير بيان لمبلغ خطورة المنافقين ، ويؤكد هذه الخطورة ذلك التعجب - الذى لا يخلو من إشارة إلى مهارة المنافقين ومقدرتهم على الخداع والتضليل - فى قوله : (قاتلهم الله أنى يؤفكون) .

وحين نستعرض الآيات التى تتحدث عن المنافقين فى القرآن الكريم وهى كثيرة نجد حديث المنافقين فيها وحججهم التى يأتون بها إلى النبى ﷺ ليتخلصوا من الاشتراك فى أى تضحية أو جهد ، أو لينفوا

بها عن أنفسهم شكا وريبة ، نجد فى حديثهم وحججهم طابع المقدرة الكلامية ، والجدل القوى ، الذى يحمل خطورة الاقتناع به وتصديقه .

الصفة السادسة : الجبن وشدة الفزع والخوف

قال ابن منظور : والجبان من الرجال : الذى يهاب التقدم على كل شىء ، ليلا كان أو نهارا ، والجمع جبناء ، وتكرر فى الحديث ذكر الجبن والجبان ، وهو ضد الشجاعة والشجاع .

والفزع : الفرق والزعر من الشىء ، وهو فى الأصل مصدر فزع منه وفزع فزعا وأفزعه وفزعه أخافه وروعه ، فهو فزع(٧٩) .

وقال الراغب : الفزع : انقباض ونفار يعترى الإنسان من الشىء المخيف ، وهو من جنس الجزع ، ولا يقال : فزعت من الله كما يقال خفت منه .

والخوف : توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة ، ويضاده : الأمن ، ويستعمل فى الأمور الدنيوية والأخروية(٨٠) .

وإذا كان الجبن من الصفات البشرية التى يتصف بها كثير من الأفراد فى كل مجتمع ، فإن جبن المنافقين يختلف من ناحيتين : إحداهما : أن الجبن فى الناس فردى ، بمعنى أنه يوصف به عادة الأفراد وليس الجماعات ، فهو يتمثل فى حالات فردية ، ومهما كثرت حالاته فإنها لا تخرج عن وصفها بأنها حالات فردية . أما جبن المنافقين فإنه صفة عامة فيهم ، وهى بالنسبة لهم صفة جماعية وليست فردية .

---

(٧٩) لسان العرب : مادة «جبن» ص ٥٣٩،ومادة «فزع» ص ٣٤٠٩ .
(٨٠) المفردات فى غريب القرآن ص ٣٧٩ ، ١٦١ .

والناحية الأخرى : أن الجبن الذى يوصف به بعض الناس يتمثل فى خوف يعترى الشخص فيحمله على الهروب من موقف مخيف ، أو يعجزه عن مواجهة موقف فيه خطورة أو خوف . أما جبن المنافقين فليس وليد موقف معين ، أو شىء مثير مفاجىء ، وإنما هو شعور دائم ملازم بالخوف من كل شىء ، وتوجس الخطر من كل شىء .

والفارق فى هذا بين المنافق وغيره كبير جدا ، فالجبان العادى لا يشعر بالخوف ، ولا يعتريه الجبن إلا حينما يتعرض لموقف يخيفه ، وفيما عدا ذلك فنفسه مطمئنة ساكنة ، لا يحس فيها بخوف ، ولا يعتريه الجبن . أما المنافق فالخوف ملازم لنفسه بصرف النظر عن أى موقف مفاجىء ، أو حدث معين .

ولذلك نجد القرآن الكريم يصور طبيعة الخوف الشديد الذى يميز المنافقين عن غيرهم فى صور كثيرة لم يتحدث بها عن أحد من الناس ، ولا من أعداء الإسلام غير المنافقين ، مع أن أعداء الإسلام الآخرين كانوا يشاركون المنافقين موقف الخوف من المسلمين ، ولكن المنافقين هم الذين تميزوا بهذا الفزع والرعب الشديد الذى يصوره القرآن الكريم فى كثير من آياته .

ومن ذلك قوله تعالى : (**ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون**)(٨١) .

فالقرآن يصفهم بالفرق وهو الخوف الشديد ، وأنه يسيطر على نفوسهم دائما شعور الهرب والاختفاء ، ولو بدون التعرض لما يخيف ،

---

(٨١) الآية ٥٦ ، ٥٧ من سورة التوبة .

وهذا المعنى من الآية لم يأت فى سياق حديث عن حرب أو مصدر معين للخوف ، وكأنه حديث عن طبيعتهم الدائمة فى الشعور بالخوف ، والتماس المهرب والاختفاء ، لأنها كما سبق مشاعر نابعة من دخيلة نفوسهم ، وتدور هذه المشاعر حول شعورهم بالمطاردة شعورا دائما لإحساسهم بأنهم يخفون جريمة كبرى أجرموها وهى النفاق .

ولذلك يدور فى نفوسهم دائما البحث عن ملجأ أو مغارة أو نفق، أو أى شىء يحتمون به ويستترون فيه ، وحين يجدون هذا الملجأ يسرعون إليه جامحين فى إسراعهم (**لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون**) .

ولفظ يفرقون فى الآية السابقة يوحى بأن خوف المنافقين من طراز خاص غير خوف سائر الناس ، كما أن لفظ « يجمحون » فى هذه الآية يوحى بأن رغبة المنافقين فى الهرب من الشعور بالمطاردة تملك عليهم كل حواسهم وتسيطر عليهم سيطرة تفقدهم الاتزان وهدوء المسلك .

يقول الشهيد سيد قطب : إنهم مذعورون مطاردون يطاردهم الفزع الداخلى والجبن الروحى ، ومن هنا « **يحلفون بالله إنهم لمنكم** » بكل أدوات التأكيد ليداروا ما فى نفوسهم ، وليتقوا انكشاف طويتهم ، وليأمنوا على ذواتهم . وإنها لصورة ذرية للجبن والخوف والملق والرياء، لا يرسمها إلا هذا الأسلوب القرآنى العجيب الذي يبرز حركات النفس شاخصة للحس على طريقة التصوير الفنى الموحى العميق(٨٢) .

ومن مصادر سيطرة الخوف الدائم عند المنافقين خشيتهم من أن يكشف القرآن الكريم أمرهم ، فهم فى فزع ورعب شديد دائم من نزول

---

(٨٢) فى ظلال القرآن له ص ١٦٦٦ .

القرآن ، ولكن القرآن يسخر منهم ، وكأنه يقول لهم ساخرا : استمروا على نفاقكم ، وبالغوا فى اخفاء حقيقتكم فإن الله تعالى سيظهر من أمركم كل شيء ، على الرغم من كل ما تحاولون ، قال تعالى : (**يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون**)(٨٣) .

ومن تصوير القرآن الكريم لأثر الخوف الشديد الذى يعترى المنافقين حينما يتعرضون لموقف مخيف ، قوله تعالى (**ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فاذا انزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم**)(٨٤)

فالقرآن هنا يلفت النظر إلى عضو معين من المنافقين ، هذا العضو تتمثل فيه كل مشاعرهم وانفعالاتهم ، وهو العين ، حيث يشعر المنافقون بحكم ادعائهم الإسلام أنهم مضطرون لمشاركة المسلمين فى القتال ، والمشاركة فى القتال تعرض حياتهم للخطر ، وحينئذ ترتسم فى عيونهم كل مشاعر الرعب والفزع ، ويبحثون عن أى أمل يتعلقون به للنجاة ، أو للتخلص من هذا الموقف الذى يواجههم ، فلا يجدون أملا إلا فى شخص الرسول ﷺ ، فتتعلق نظراتهم الفزعة الجزعة به. كأنها نظرات من يعالج سكرات الموت . ضارعة إليه ﷺ أن يغيثها من هذا الخطر الذى يواجهونه .

نعم : إنه تعبير لا يمكن محاكاته ولا ترجمته إلى عبارة أخرى، وهو يرسم الخوف إلى حد الهلع ، والضعف إلى حد الرعشة ، والتخاذل

---

(٨٣) الآية ٦٤ من سورة التوبة .
(٨٤) الآية ٢٠ من سورة محمد .

إلى حد الغشية ! ويبقى بعد ذلك متفردا حافلا بالظلال والحركة التى تشغف الخيال ! وهى صورة خالدة لكل نفس خوارة لا تعتصم بإيمان ، ولا بفطرة صادقة ، ولا بحياء تتجمل به أمام الخطر ، وهى هى طبيعة المرض والنفاق(٨٥) .

ويلاحظ فى تعبير الآية أن كل هذا الرعب الذى اعترى المنافقين، والذى بدا فى عيونهم ونظراتهم ، ليس لأنهم أمروا بالقتال ، وإنما لمجرد أن السورة التى نزلت « ذكر فيها القتال » .

وإذا كانت هذه الآية تبرز لنا النظرة الجزعة التى ترتسم فى عيون المنافقين من الخوف ، فإن القرآن الكريم فى آية أخرى يبرز لنا هذه الصورة من الفزع والخوف أكثر وضوحا وإبرازا لما يعترى المنافقين من الخوف الشديد حيث تصور لنا الآية محاجر عيون المنافقين ، وهى تدور من فرط ما يضطرب فى نفوسهم وقلوبهم من الرعب والفزع ، وكأنها عيون محتضر يعانى سكرات الموت ، فيجزع من سكراته ، ويدور بعينيه ضارعا إلى من حوله ، وكأنه يستغيث بهم ، وهو فى غمرة الموت وسكراته ، لا يملك من القوة أو القدرة على الحركة فى أى عضو من أعضائه غير حركة عينيه حيث قال تعالى (**أشحة عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشحة على الخير ...**)(٨٦) .

وبينما نرى المنافقين فى هذا الرعب الشديد - الذى يشل حركتهم، ويفكك أجسامهم ، ويحل عزائمهم بحيث لا يبقى من قدرتهم على الحركة

---

(٨٥) فى ظلال القرآن ٣٢٩٦/٦ .

(٨٦) الآية ١٩ من سورة الأحزاب .

والتعبير الا ما يبقى لدى المحتضر الذى يعانى سكرات الموت - حين يواجهون الخطر أو الموقف الصعب نجدهم ينقلبون إلى عكس ذلك حيثما يحسون الأمن أو يذهب مصدر الخوف .

فتبين الآية أنهم فى مواقف الأمن لا يكتفون بأن يظهروا كغيرهم من الأشخاص العاديين ، وإنما يحاولون جهدهم أن يظهروا بمظهر القوة والشجاعة والبطولة ، وعلى ضوء ما يقرره علماء النفس عن ميل الناقصين إلى التعويض من الناحية النفسية نجد هذا طبعيا متوقعا من المنافقين . فشعور المنافقين بالجبن الشديد ، والفزع المخجل فى مواقف الخوف ، يدفعهم إلى أن يعوضوا هذا الشعور حينما يحسون الأمن ، فيظهرون بمظهر القوة والشجاعة ، كما يقول علماء النفس عن التعويض: « إن للناس ميلا غريبا لأن يعوضوا أوجه نقصهم الحقيقية أو المتخيلة بالسعى للحصول على التفوق فى نفس الميدان الذى ظهر فيه نقصهم ... »(٨٧) .

والقرآن الكريم يبين لنا جنوح المنافقين إلى التعويض النفسى ، ومن صريح ذلك هذه المقارنة بين حالين متعاقبين ، يظهرون فى إحداهما ما يتصور من الجبن والخوف والفزع ، وإذا هم فجأة حينما يحسون ذهاب الخطر يظهرون عكس ذلك ، حيث **يقول الله تعالى فى الآية : (فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشحة على الخير)** ، وهى صورة مناقضة للصورة الأولى التى كانوا عليها .

---

(٨٧) اسلوب السخرية فى القرآن ص ٣٢٣ نقلا عن كتاب علم النفس الاجتماعى فى الصناعة للأستاذ براون ، ترجمة د/ السيد محمد خيرى وآخرين ، طبعة دار المعارف .

فالفاء فى قوله : « **فاذا ذهب الخوف** » تفيد انقلابهم المفاجىء والفورى من الذلة والرعب إلى بذاءة اللسان ، والتطاول فور ذهاب الخوف ، وقد كان أيضا هذا الانقلاب المفاجىء والفورى من الحالة العادية إلى الرعب والفزع ودوران الأعين فور إحساسهم بالخوف ، ومعنى ذلك أنهم ليست لهم طبيعة ثابتة أو كيان نفسى محدد ، ولكن التقلب والتلون هو طبيعتهم الثابتة ، فكما أنهم يتقلبون ويتلونون فى اتصالهم بالناس بأكثر من وجه ، فكذلك نفسياتهم وانفعالاتهم ليس لها خلق ثابت ، وإنما متقلبة تدور مع مصلحتهم ومنفعتهم الدنيوية .

يقول الشهيد سيد قطب عند تفسيره لهذه الآية : إنها صورة شاخصة ، واضحة الملامح ، متحركة الجوارح ، وهى فى الوقت ذاته مضحكة ، تثير السخرية من هذا الصنف الجبان ، الذى تنطق أوصاله وجوارحه فى لحظة الخوف بالجبن المرتعش الخوار !!

وأشد إثارة للسخرية صورتهم بعد أن يذهب الخوف ويجىء الأمن (**فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد**) فخرجوا من الجحور ، وارتفعت أصواتهم بعد الارتعاش ، وانتفخت أوداجهم بالعظمة ، ونفشوا بعد الانزواء ، وادعوا فى غير حياء ما شاء لهم الادعاء ، من البلاء فى القتال والفضل فى الأعمال ، والشجاعة والاستبسال . ثم هم : « **أشحة على الخير** » فلا يبذلون للخير شيئا من طاقتهم وجهدهم وأموالهم وأنفسهم ، مع كل ذلك الادعاء العريض ، وكل ذلك التبجح وطول اللسان .

وهذا النموذج من الناس لا ينقطع فى جيل ولا فى قبيل ، فهو موجود دائما ، وهو شجاع فصيح بارز حيثما كان هناك أمن ورخاء . وهو جبان صامت منزو حيثما كان هناك شدة وخوف . وهو شحيح بخيل على الخير وأهل الخير ، لا ينالهم منهم إلا سلاطة اللسان !!(٨٨)

---

(٨٨) فى ظلال القرآن ٥/٢٨٤٠ .

الصفة السابعة : البخل وحب المال

والبخل : إمساك المقتنيات عما لا يحق حبسها عنه ، ويقابله الجود ، يقال : بخل فهو باخل ، وأما البخيل : فهو الذى يكثر منه البخل كالرحيم من الراحم . والبخل ضربان : بخل بقنيات نفسه ، وبخل بقنيات غيره ، وهو أكثرهما ذما . **قال تعالى (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل)** (*) .

ومن الآيات التى تصف المنافقين بالبخل وحب المال **قوله تعالى : (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين. فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فاعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون)** (٨٩)

فهذه الآيات تبين أن من المنافقين من أقسم وأعطى العهد لله تعالى قائلا : والله لئن أعطانا الله تعالى من واسع رزقه ومزيد خيره ، لنصدقن على الفقراء وعلى من يستحقون الصدقة ، ولنكونن فى عداد الصالحين الذين يقيمون حدود الله ، فنعمل فى أموالنا ما يعمله أهل الصلاح فى أموالهم من الإنفاق فى سبيل الله وسائر وجوه البر والخير وصلة الأرحام .

فلما استجاب الله تعالى لهم ورزقهم من واسع فضله ما كثرت به أرزاقهم ، نسوا عهدهم ، وتنكروا لوعدهم ، وسيطر عليهم البخل والشح ، ومنعوا حق الله تعالى فى الأموال ، ولم يعطوا منه لأهل الاستحقاق شيئا .

وذكر كثير من المفسرين أن سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن جرير

(★) المفردات فى غريب القرآن ص ٨٨ ، والآية ٢٤ من سورة الحديد .

(٨٩) الآيات ٧٥ ـ ٧٧ من سورة التوبة .

وابن أبى حاتم من حديث معان بن رفاعة عن أبى عبد الملك على بن يزيد الألهانى عن أبى عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن بن يزيد ابن معاوية عن أبى أمامة الباهلى عن ثعلبة بن حاطب الأنصارى أنه قال لرسول الله ﷺ : **ادع الله أن يرزقنى مالا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويحك ياثعلبة : قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه ... » الخ الرواية(٩٠) .**

وهذه الرواية التى ذكرها معظم المفسرين فى بيان سبب نزول الآيات اسنادها ضعيف جدا . حيث قال الامام أبو محمد بن حزم - رحمه الله تعالى - بعد ذكره الرواية من طريق مسكين بن بكير عن معان ابن رفاعة السلمى عن على بن يزيد عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبى أمامة قال : جاء ثعلبة بن حاطب بصدقته إلى عمر فلم يقبلها ، وقال : لم يقبلها النبى ﷺ ولا أبو بكر ولا أقبلها .

قال ابن حزم : وهذا باطل بلا شك ، لأن الله تعالى أمر بقبض زكاة أموال المسلمين ، وأمر عليه السلام عند موته ألا يكون فى جزيرة العرب دينان ، فلا يخلو ثعلبة من أن يكون مسلما ، ففرض على أبى بكر وعمر قبض زكاته ، ولا بد ولا فسحة فى ذلك ، وإن كان كافرا ففرض ألا يقر فى جزيرة العرب فسقط هذا الأثر بلا شك .

وفى رواته معان بن رفاعة ، والقاسم بن عبد الرحمن ، وعلى بن يزيد ، وهو أبو عبد الملك الألهانى ، وكلهم ضعفاء ، ومسكين بن بكير ليس بالقوى(٩١) .

---

(٩٠) تفسير الطبرى ١٣٠/١٠ ، ١٣١ ، وتفسير ابن كثير ١٢٤/٤، ١٢٥

(٩١) المحلى لابن حزم ٢٠٨/١١ .

وقال السيوطى فى لباب النقول : إن سندها ضعيف(٩٢) . وقال الحافظ ابن حجر فى تخريج الكشاف : إن فى سندها على بن يزيد الألهانى وهو واه . وقال فى الفتح بعد ذكر بعض القصة لكنه حديث ضعيف لا يحتج به(٩٣) . وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد : رواه الطبرانى وفيه على بن يزيد الألهانى وهو متروك(٩٤) .

وقال المناوى فى فيض القدير : قال البيهقى فى اسناد هذا الحديث نظر ، وهو مشهور بين أهل التفسير ، وأشار فى الإصابة إلى عدم صحة هذا الحديث ، فإنه ساق هذا الحديث فى ترجمة ثعلبة هذا ثم قال : وفى كونه صاحب هذه القصة إن صح الخبر ، ولا أظنه يصح وهو البدرى نظر(٩٥) .

وقال القرطبى : قلت : وثعلبة بدرى أنصارى وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان .. فما روى عنه غير صحيح . قال أبو عمر : ولعل قول من قال فى ثعلبة أنه مانع الزكاة الذى نزلت فيه الآية غير صحيح، والله أعلم . وقال الضحاك : ان الآية نزلت فى رجل من المنافقين نبتل ابن الحارث ، وجد بن قيس ، ومعتب بن قشير . قلت : وهذا أشبه بنزول الآية فيهم(٩٦) .

---

(٩٢) لباب النقول على هامش الجلالين ١٥٤/١ .

(٩٣) فتح البارى ٨/٣ .

(٩٤) مجمع الزوائد ٣٢/٧ .

(٩٥) فيض القدير ٥٢٧/٤ . وراجع الصحيح المسند من أسباب النزول لآيات القرآن الكريم ص ج من المقدمة لأبى عبد الرحمن مقبل بن هادى الوادعى ، منشورات المكتب السلفى للطباعة والنشر .

(٩٦) تفسير القرطبى « الجامع لأحكام القرآن » ص ٣٠٤٩ ، طبعة دار الشعب .

وإذا كان هذا هو شأن الرواية فليس هناك إذن فيما يرجح سبب مباشر لنزول هذه الآيات ، أعنى المقصود بها شخصا معينا ، على أنه حتى مع فرض إشارة الآيات إلى حادث وقع من شخص معين ، وصحة الرواية ، فإن العبرة فى أحكام القرآن بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما صرح بذلك علماء الأصول .

ولذلك فاننا نرى أن سورة التوبة التى وردت فيها هذه الآيات لم تقتصر على ذلك ، وإنما كشفت عن بخل المنافقين وحبهم للمال فى آيات أخرى ، ومن ذلك قوله تعالى : **(قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين . وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم الا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون)** . وقوله تعالى **(ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون)** . وقوله تعالى: **(المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون)** وقوله تعالى : **(فرح المخلفون بمقدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ..)** (٩٧) .

فهذه الآيات وغيرها تقرر أن البخل وحب المال صفة لازمة لهؤلاء المنافقين الذين فقدوا صدق الإيمان الذى يدفع الإنسان للإنفاق فى سبيل الله لعلمه أن ما عنده ينفد وما عند الله باق .

فالنفس البشرية شحيحة ـ بطبيعتها ـ إلا من عصم الله ، ولا تطهر من هذا الشح الا أن تعمر بالايمان ، وترتفع على ضرورات الأرض ،

---

(٩٧) الآيات ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ٨١ من سورة التوبة .

وتنطلق من قيود الحرص على النفع القريب ، لأنها تؤمل فى خلف أعظم ، وتؤمل فى رضوان من الله أكبر .

والقلب المؤمن يطمئن بالإيمان فلا يخشى الفقر بسبب الإنفاق، لأنه يثق بأن ما عند الله باق ، وما عند الناس ينفد ، وهذا الاطمئنان يدفع إلى إنفاق المال فى سبيل الله تطوعا ورضا وتطهرا ، وهو آمن مغبته ، فحتى لو فقد المال وافتقر منه فإن له عوضا أعظم عند الله تعالى.

فأما حين يفقد القلب الإيمان الصحيح ، فالشح الفطرى يهيج فى نفسه كلما دعى إلى نفقة أو صدقة ، والخوف من الفقر يتراءى له فيقعد به عن البذل ، ثم يبقى سجين شحه وخوفه بلا أمن ولا قرار(٩٨) .

الصفة الثامنة : السفه

ومن معانى السفه فى اللغة : الخفة ، والطيش ، والجهل ، والاضطراب . حيث قال ابن منظور : والسفه خفة الحلم ، وقيل : نقيض الحلم ، وأصله الخفة والحركة . وقيل : الجهل ، وهو قريب بعضه من بعض . وقد سفه حلمه ورأيه ونفسه سفها وسفاها وسفاهة : حمله على السفه .

وقال بعض أهل اللغة : أصل السفه الخفة ، ومعنى السفيه الخفيف العقل . وقيل : السفه فى الأصل : الخفة والطيش . ويقال : سفه فلان رأيه إذا جهله ، وكان مضطربا لا استقامة له . والسفيه الجاهل(٩٩).

وقد وصف القرآن الكريم المنافقين بالسفه فى قوله تعالى : **(وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون)** (١٠٠) .

---

(٩٨) فى ظلال القرآن ص ١٦٧٩ .
(٩٩) لسان العرب : مادة « سفه » ص ٢٠٣٢ ، ٢٠٣٣ .
(١٠٠) الآية ١٣ من سورة البقرة .

أى : وإذا أرشدوا ، فقيل لهم : آمنوا بالله ورسوله كما آمن الناس الكاملون المستجمعون لخصائص جنسهم ومزاياه ، بحيث لا يقرن إيمانكم بشىء من شوائب النفاق . أجابوا مترفعين : أنؤمن بالقرآن وبمحمد ، كما آمن السفهاء ضعفاء الناس من العبيد والفقراء ، وضعفاء العقل من الجهلاء ؟ والاستفهام فى كلامهم للإنكار والنفى .

وهذا الرد قالوه فيما بينهم ، لأنه كفر صريح ، وهم يتظاهرون بالإيمان ، وقد فضح الله تعالى سرهم هذا وأظهره .

قال أبو السعود : فى قوله : (**أنؤمن كما آمن السفهاء**) إنه رد فى مقابلة الناصحين من المؤمنين ، فيه ضرب من النفاق ، لأنه يحتمل الشر والخير ـ فهو فى ظاهره على معنى : نحن لا نؤمن كما آمن السفهاء ، بل نؤمن كما آمن الناس كما أمرتمونا أنتم ، فلا تتهمونا بفساد الإيمان، ولكنهم يقصدون فى أنفسهم أن المسلمين سفهاء ، وأنهم لذلك لا يؤمنون كما آمنوا(١٠١) .

وهكذا شأن السفهاء فى كل أمة يتهمون دعاة الله تعالى ـ إليهم ـ بالسفه وخفة العقل والجهل حتى يجدوا لأنفسهم حجة لكفرهم . وذلك كما قال الكافرون من قوم هود لنبيهم هود عليه السلام ما حكاه القرآن عنهم حيث قال تعالى : (**وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين . قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين**)(١٠٢) .

---

(١٠١) إرشاد العقل السليم له : ١ / طبعة الرياض الحديثة .
(١٠٢) الآيات ٦٥ ـ ٦٧ من سورة الأعراف .

هكذا قال الملأ الذين كفروا من قوم هـود ـ ردا له على دعوتـه إياهم إلى عبادة الله وحده ، وترك ما هم عليه من طغيان وجبروت ـ إنا لنراك مستغرقا فى خفة العقل ، والطيش والحماقة ، حيث فارقت دين قومك إلى ما تدعو إليه . وإنا لنعتقد أنك من الكاذبين فيما تزعم من النبوة والرسالة .

وإذا كان هود عليه السلام ـ هنا ـ قال لقومه متلطفا ردا عـلى اتهامهم إياه بالسفاهة وخفة العقل : (**ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين**) . فإن الله تعالى قد كفى المؤمنـين مؤنـة الـرد على المنافقين ، وقال فى حقهم : (**ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون**) .

حيث أكد سبحانه وصف المنافقين بالسفه ، وأنـه مقصـور عليهم وحدهم ، فصدر الجملة بلفظ « **ألا** » التى هى للتنبيه ، وأكـده بلفظ « **إن** » المشددة ، وبالجملة الإسمية ، وبضمير الفصل « **هم** » ، أى إنهم هم السفهاء ، لا غيرهم ممن أرادوا وصفهم بالسفه من المؤمنين ، ولكن لا يعلمون ..

هكذا يحسم القرآن الأمر (**ألا إنهم هم السفهاء**) تلك هى القضية فى وضعها السليم ، لا ما تفرزه طباعهم المنحرفة ، وغطرستهم المتجبرة .. ولذا جاءت فى قالب واثق يمحـو كل لبس ، ويزيل كل اشتباه ، فانظر إلى هذه التأكيدات الكثيرة التى جاءت كلها تتضافر لتنقية الجـو من كل ادعاء ، وإثبات الحقيقة الناصعة البياض ، كل ذلك فى أسـلوب مختصر جدا .

وجاء الرد بهذا الأسـلوب حتى لا يلتبس أمرهـم على الناس ، ويروج منطقهم لدى المجتمع ، وفى ذلك بلبلة تربك النفوس ، وتضل الناس عن سواء السبيل . وأيضا : فإن القرآن الكريم لا يهادن الأكاذيب

والادعاءات الباطلة ، بل يكشفها بالمنطق المعقول لتسود الحقائق فى مجتمع الإسلام بلجاء كفلق الصبح ، وليمشى الناس فى ضياء الحق لا فى ظلمات الباطل .

وزيلت الآية بقوله تعالى : (**ولكن لا يعلمون**) لتزيد فى تأكيد الحقيقة ، لأن هؤلاء المنافقين يمارسون نوعا من الجهل المركب ، فهم مفسدون ، ويجهلون أنهم مفسدون ، وهم سفهاء ويجهلون أنهم سفهاء، فهم منحرفون سلوكا وتصورا ، تحكمهم « عقدة خداع الرأى » وهم لا يعرفون شيئا من ذلك .

والجهل فى ذاته قبيح ، فكيف إذا كان مركبا ؟ بحيث يكون الشخص جاهلا ، ثم يجهل أنه جاهل ـ هذا هو طابع تلك الفئات على مدار التاريخ . والقرآن الكريم ـ هنا ـ لم يكتف بتصحيح القضية بكل تأكيد وحسم ، ولكنه وضح علتها .. فهم سفهاء ، وسفههم يرجع إلى نوع من الجهل المركب المتسلط على نفوسهم ، والذى يصور لهم الحق باطلا والباطل حقا .

الصفة التاسعة : التذبذب والتردد

والذبذبة فى اللغة هى : التردد والتحرك والاضطراب والطرد . حيث قال ابن منظور : والذبذبة تردد الشىء المعلق فى الهواء .

والذباذب : أشياء تعلق بالهودج أو رأس البعير للزينة ، والواحد ذبذب .

ورجل مذبذب ومتذبذب : متردد بين أمرين أو بين رجلين ، ولا تثبت صحبته لواحد منهما ، وفى التنزيل العزيز فى صفة المنافقين:

(مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ..)(١٠٣) .

والمعنى : مطردين مدفعين عن هؤلاء وعن هؤلاء . وأصله من الذب ، وهو الطرد . قال ابن الأثير : ويجوز أن يكون من الحركة والاضطراب والتذبذب التحرك(*) .

وقال الراغب : والتذبذب : حكاية صوت الحركة للشيء المعلق ، ثم استعير لكل اضطراب وحركة كما قال تعالى فى المنافقين : **(مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء)** أى مضطربين مائلين تارة إلى المؤمنين وتارة إلى الكافرين(١٠٤) .

وجاء وصف المنافقين بالتردد فى قوله تعالى : « **إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون)(١٠٥)** وقوله تعالى : **(إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا)(١٠٦)** وقوله تعالى : **(ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون)(١٠٧) .**

والذبذبة بين الإيمان والكفر ، هو فقدان الإيمان بكليهما ، لأن المؤمن بشيء لا يتحول عنه . والآيات ـ هنا ـ لم تستهدف أن تثبت

---

(١٠٣) الآية ١٤٣ من سورة النساء .

(★) لسان العرب مادة « ذبب » ص ١٤٨٥ .

(١٠٤) المفردات فى غريب القرآن ص ١٧٧ .

(١٠٥) الآية ٤٥ من سورة التوبة .

(١٠٦) الآية ١٣٧ من سورة النساء .

(١٠٧) الآية ٣ من سورة المنافقون .

للمنافقين إيمانا ولا كفرا ، وإنما استهدفت أن تثبت لهم مجرد الذبذبة وعدم الاستقرار على مبدأ معين ٠

ويؤكد هذا المعنى الشيخ محمد المدنى فيقول : « فالمنافقون دائما متذبذبون مترددون ، فليس لهم ثبات على شىء ، وذلك لأنه ليس فى قلوبهم شىء حتى يستقروا عليه ويطمئنوا إليه ، ويجاهدوا فى سبيله ، فهم متقلبون دائما بحسب الأحوال ، وما يعرض لهم من المطامع ، ووصف الله تعالى إياهم بأنهم (**آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا**) هو تصوير لما هم عليه من تقلب وتخبط ٠

والمراد بكونهم « آمنوا » أنهم دخلوا مع المؤمنين فى الظاهر ، فلم يدخل الإيمان فى قلوبهم حقيقة ، لأن من دخل الإيمان قلبه ، فقلما يخرج منه لكن هؤلاء يترددون بين الكفر والإيمان مرة بعد مرة ، فلا يمكن أن يكون الإيمان الحقيقى قد داخل قلوبهم وخالطها »(١٠٨) ٠

فالمنافقون بنص القرآن قوم مترددون بين الكفر والإيمان ، أضلهم الشك والارتياب فى كل قيمة تعرض لهم ، وفى كل عقيدة تعرض عليهم، فهم مستعدون للتخلى عن الإيمان أو عن الكفر فى أى وقت دون شعور بالحرج الذى تكشف عنه هذه النقيصة الخلقية التى تهز الذات ، وتمسخ الشخصية ، وتفقدها الثقة فى المجتمع ٠

فموقف الذبذبة والتردد ، وعدم الاستقرار والثبات فى أحد الصفين : الصف المؤمن ، أو الصف الكافر ٠٠ موقف لا يثير الا الاحتقار والاشمئزاز فى نفوس المؤمنين ٠ كما أنه يوحى بضعف المنافقين الذاتى،

---

(١٠٨) المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء ص ٧٤ ٠

هذا الضعف الذى يجعلهم غير قادرين على اتخاذ موقف حاسم هنا أو هناك ، ولا المصارحة برأى أو عقيدة ، أو موقف ثابت مع هؤلاء أو هؤلاء .

يقول الشيخ رشيد رضا : ومثل هذه الذبذبة تكون من الأمم فى طور الضعف ولا سيما ضعف الإرادة والعلم ، ولو كان لأولئك القوم إرادة قوية لثبتوا ظاهرا على ما يعتقدونه باطلا ، ولم يصانعوا مخالفيهم من أهل الملة الأولى أو الملة الآخرة ، وقد وبخهم الله تعالى وأنكر عليهم هذا التلون والدهان فى الدين ، ولقاء كل فريق بوجه يظهرون له ما يسرون من أمر الآخر (١٠٩) .

وإذا كان تذبذب المنافقين وترددهم بين المؤمنين والكافرين لعدم وجود الإيمان الحقيقى فى قلوبهم ، فان هناك علة أخرى لهذا التردد، وهى أنهم « يطلبون المنفعة ولا يدرون لمن تكون العاقبة . فهم يميلون إلى اليمين تارة وإلى الشمال أخرى ، فمتى ظهرت الغلبة التامة لأحد الفريقين ادعوا أنهم منه »(١١٠) . كما قال تعالى : **(الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ..)(١١١) .**

فانظر إلى حال المنافقين من خلال هذه الآية وهى ترسم لهم صورة زرية منفرة ، وهم يلقون المؤمنين بوجه ويلقون الكفار بوجه آخر، ويمسكون العصا من وسطها ، ويتلوون كالديدان والثعابين فى قلوبهم السم ، وعلى ألسنتهم الدهان .

---

(١٠٩) تفسير المنار ٢٩٧/١ .
(١١٠) تفسير المنار ٣٨٣/٥ .
(١١١) الآية ١٤١ من سورة النساء .

وليس فقدان العقيدة ولا طلب المنفعة وحدهما الدافع لهذا التردد والتذبذب والارتياب عند المنافقين ، وإنما هناك دافع آخر أيضا وهو خوف الأذى ، والجبن عن احتمال الشدائد فى سبيل الحق ، وإيثارهم السلامة فى قيام الباطل . **قال تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين . وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين)** (١١٢) .

وهكذا يبين القرآن الكريم موقف المنافقين فى ساعة العسرة من التخاذل والتهافت والتهاوى ، وسوء التصوير وخطأ التقدير . ولكن حين يجىء الرخاء تنبث الدعوى العريضة ، وينتفش المنزوون المتخاذلون، ويستأسد الجبناء الضعفاء المهزمون فيقولون : (**إنا كنا معكم**) .

فالمنافقون إذن لا يظهر انتسابهم الزائف إلى الحق إلا إذا خافوا من الخسران المادى ، أو الأذى الجسدى ، أو نقصان الجاه والسلطان. فإذا ما اطمأنوا إلى تحقيق تلك المصالح الدنيوية فى فترة من فترات حياتهم ، فإنهم يلتزمون التزاما مؤمنا بباطلهم ، يدافعون عنه ، ويتحالفون فى سبيل الدفاع عنه مع كل من يتعاطف معهم فى ميولهم المادية البحتة ، فهم يستغلون الحريات العامة أسوأ استغلال فى سبيل تحقيق مطامعهم التى لا تشبع ، وما أسهل أن يدرك المسلم الصادق مئات النماذج من هذا النوع فى كل مجال من مجالات الحياة فى المجتمع .

وهم لا يعدمون الحجة الخادعة كلما انحازوا إلى فريق المؤمنين،

---

(١١٢) الآية ١٠ ، ١١ من سورة العنكبوت .

أو تشبثوا بفريق الكافرين . وقد كشف القرآن الكريم عن هذه الحجج فى سلوكهم إزاء ظاهرة الحرب بين أهل الكفر والإيمان ، حيث الغنائم وضمان السلطان كما فى **قوله تعالى : (الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنون ..)** .

تلك هى النفوس المريضة بالنفاق ، التى تتظاهر لكل فريق ، وتمضى مع شتى المواكب ، وتلبس شارات الخداع .. تبتغى بذلك عرضا من الدنيا .. والحذر من هذه الطائفة أمر واجب ، لأنها تشكل أعظم الخطر على المجتمعات .. لأنها تتلون بكل ألوان الخداع ، وتلبس الأزياء المناسبة ، وتجيد الكلام المعسول .

إنها تتبنى آراء المجتمع وتتظاهر باعتناقها ، وترفع شعارات الدولة بينما هى فى الواقع لا تحمل ذرة من الإيمان . إنها حريصة على شىء واحد هو ألا تضار مصالحها !! ومن ثم فهى تنتهز فرصة ضعف الجسم لتهاجمه .. وطالما كان فى الجسم مناعة فهى متربصة حذرة .

إن الكشف عن تلك الفئة المخادعة وتعرية وجودها أمر يجب أن تهتم له المجتمعات ، لأنها خطر على أهدافها ، وهى غالبا إما عميلة تقبض الثمن من جهات أخرى ، وإما حاقدة تتربص الدوائر بالمؤمنين.

الصفة العاشرة : الفساد فى الأرض

والفساد : هو خروج الشىء عن الاعتدال قليلا كان الخروج عنه أو كثيرا ، ويضاده الصلاح ، ويستعمل ذلك فى النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة . يقال : فسد فسادا وفسودا ، وأفسده غيره(١١٣) .

---

(١١٣) المفردات فى غريب القرآن ص ٣٧٩ .

وقد جاء وصف المنافقين بالفساد فى الأرض فى **قوله تعالى : (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون • الا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)** (١١٤) •

فالمنافقون يصرون على الفساد بإثارة الفتن بين المسلمين ، وإفشاء أسرارهم للكفار ، وتحريض الجميع على الحروب ، وإذا وجه إليهم النصح من أحد بعدم الإفساد فى الأرض ، لم يكتفوا بأن ينفوا عن أنفسهم الفساد ، بل تجاوزوه إلى التبجح والتبرير ، وقالوا : « **إنما نحن مصلحون** » أى نحن مقصورون على الإصلاح ، ولا نعرف الفساد ، فكيف ننهى عنه مع أننا لم نفعله ؟ وهذا بسبب مرض قلوبهم ، وانتكاس المعانى فى عقولهم ، حيث صوروا الفساد اصلاحا • كما **قال تعالى : (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا)** (١١٥) **وقال تعالى : (وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون)** (١١٦) **وقال تعالى : (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا • الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)** (١١٧) •

هكذا شأن كل مفسد يدعى أنه مصلح فى نفس إفساده ، فإن كان على بينة من إفساده عارفا أنه مضل ـ وإنما يكون كذلك إذا كان إفساده لغيره لعداوة منه له ـ فإنما يدعى ذلك لتبرئة نفسه من وصمة الإفساد بالتمويه والمواربة ، وإن كان مسوقا إلى الإفساد بسوء التقليد الأعمى

---

(١١٤) الآية ١١ ، ١٢ من سورة البقرة •
(١١٥) الآية ٨ من سورة فاطر •
(١١٦) من الآية ٤٣ من سورة الأنعام •
(١١٧) الآية ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة الكهف •

الذى لا ميزان فيه لمعرفة الإصلاح من الافساد الا الثقة بالرؤساء المقلدين، فهو يدعيه عن اعتقاد ولا يريد أن يفهم غير ما تلقاه عنهم ، وإن كان أثر تقليدهم والسير على طريقتهم مفسدا للأمة فى الواقع ونفس الأمر (١١٨) .

والذين يفسدون فى الأرض أشنع الفساد ، ويقولون إنهم مصلحون كثيرون جدا فى كل زمان . يقولونها ، لأن الموازين مختلة فى أيديهم، ومتى اختل ميزان الإخلاص والتجرد فى النفس اختلت سائر الموازين والقيم . والذين لا يخلصون سريرتهم لله تعالى يتعذر عليهم أن يشعروا بفساد أعمالهم ، لأن ميزان الخير والشر ، والصلاح والفساد فى نفوسهم يتأرجح مع الأهواء الذاتية ، ولا يثوب إلى قاعدة ربانية .

ومن ثم يأتى الرد الحاسم والتقرير الصادق من الله تعالى : (**ألا أنهم هم المفسدون . ولكن لا يشعرون**) وهو أبلغ رد لما فيه من « **ألا** » المنبهة و « **إن** » المؤكدة ، وتعريف الخبر « **المفسدون** » ، وتوسيط ضمير الفصل « **هم** » ، ونفى الشعور والإدراك عنهم لفساد عقولهم ، فصاروا لا يميزون بين الخبيث والطيب ، ولا يشعرون بالفروق بين الفاسد والصالح .

قال الآلوسى فى تفسير قوله تعالى : (**ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون**) رد لدعواهم المحكية على أبلغ وجه ، حيث سلك فيه مسلك الاستئناف المؤدى إلى زيادة تمكن الحكم فى ذهن السامع مع تأكد الحكم وتحقيقه « بأن ، وألا » بناء على تركبها من همزة الاستفهام الانكارى الذى هو نفى معنى و « لا » النافية ، فهو نفى نفى فيفيد الإثبات بطريق برهانى أبلغ من غيره ، وضم إلى ذلك تعريف الخبر وتوسيط

---

(١١٨) تفسير المنار ١٣٢/١ .

الفصل ، وأشار بـ « **لا يشعرون** » على وجه إلى أن كونهم من المفسدين قد ظهر ظهور المحسوس بالمشاعر وإن لم يدركوه (١١٩) .

ومن الآيات التى تصف المنافقين بالفساد فى الأرض - أيضا - قوله تعالى : (**ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد**) (١٢٠) .

ففى هذه الآيات بيان لفريق من الناس تعمق فى النفاق ، واتقن صناعة التمويه والغش ، وبراعة التعبير ، واتخذ من هذا وسيلة له فى الحياة الدنيا . فهو يعجب الناس بحديثه وبيانه الساحر ، وادعائه الإصلاح بين المسلمين ، وحرصه على مصلحة الأمة توصلا إلى الحكم ، فإذا ولى هذا الحكم ، وتمكن سلطانه - فعل بالناس ما يفعله ولاة السوء الطغاة ، وظهر من أمره ما كان يخفيه ، فسعى فى الأرض - بحيلته وتدبيره - ليفسد فيها بما يشاء من ألوان الفساد : فيهلك الحرث ، ويسفك الدماء ، ويهدد الحريات ، وينشر الشرور والمنازعات بين أفراد الأمة ، ويضرب بعضهم ببعض : باصطناع الأعوان ، وتقريب الأنصار ، ليبسط بهم سلطانه على الناس ، ويحتفظ بزعامته ، كما **قال تعالى** : (**فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم**) (١٢١)

يقول الكلبى فى بيان المعنى : فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة

---

(١١٩) روح المعانى ١٥٤/١ .
(١٢٠) الآيات ٢٠٤ - ٢٠٦ من سورة التوبة .
(١٢١) الآية ٢٢ من سورة محمد .

أن تفسدوا فى الأرض بالظلم(١٢٢) .

ولما كان الإفساد يصدر تارة عن الجهل وسوء الفهم ، وتارة عن فساد الفطرة وسوء القصد - كحال المنافقين - وكان من يعمل السوء بجهالة سريع التوبة ، مبادر إلى قبول النصيحة ، وكان شأن الآخر الإصرار على ذنبه ، فقد ذكر الله من صفة المفسد ما يميز بينه وبين المخطىء ، فقال : (**وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم ..**) .

أى أنه إذا نصح المخلصون والدعاة إلى الله هذا المنافق : باتقاء عقاب الله تعالى فى أفعاله وأقواله ، وفى عدم استغلال ذكائه وعلمه وبلاغته فى التضليل والإفساد ، أسرع إليه الغضب ، وعظم عليه الأمر، وأخذته الأنفة والكبرياء بما يوجب الإثم والتوغل فيه ، فلج فى الضلال والعناد ، لأنه يرى نفسه فوق نصيحة الناصحين ونقد الناقدين .

يقول الإمام محمد عبده : وهذا الوصف ظاهر جدا فى التولى بالولاية والسلطة ، فإن الحاكم الظالم المستبد يكبر عليه أن يرشد إلى مصلحة ، أو يحذر من مفسدة ، لأنه يرى أن هذا المقام الذى ركبه وعلاه يجعله أعلى الناس رأيا وأرجحهم عقلا ، بل الحاكم المستبد الذى لا يخاف الله تعالى يرى نفسه فوق الحق كما أنه فوق أهله فى السلطة ، فيجب أن يكون أفن رأيه خيرا من جودة آرائهم ، وإفساده نافذا مقبولا دون إصلاحهم ، فكيف يجوز لأحد منهم أن يقول له : اتق الله فى كذا؟ وإن الأمير منهم ليأتى أمرا فيظهر له ضرره فى شخصه أو فى ملكه ، ويود لو يهتدى السبيل إلى الخروج منه ، فيعرض له ناصح يشرع له السبيل فيأبى سلوكها ، وهو يعلم أن فيها النجاة والفوز ، إلا أن يحتال

---

(١٢٢) فتح القدير ٣٨/٥ .

الناصح فى إشراعها ، فيجعله بصيغة لا تشعر بالإرشاد والتعليم ، ولا أن السيد المطاع فى حاجة إليه (١٢٣) .

فهذا المنافق الطاغية « إذا تولى فقصد إلى الإفساد فى الأرض ، وأهلك الحرث والنسل ، ونشر الخراب والدمار ، وأخرج ما يعتمل فى صدره من الحقد والضغن والشر والفساد .. إذا فعل هذا كله ، ثم قيل له : « اتق الله » تذكيرا له بخشية الله ، والحياء منه ، والتحرج من غضبه .. أنكر أن يقال له هذا القول ، واستكبر أن يوجه إلى التقوى ، وتعاظم أن يؤخذ عليه خطأ ، وأن يوجه إلى صواب . وأخذته العزة لا بالحق ، ولا بالعدل ، ولا بالخير ، ولكن « بالإثم » .. فاستعز بالإجرام والذنب والخطيئة ، ورفع رأسه فى وجه الحق الذى يذكر به ، وأمام الله بلا حياء منه ، وهو الذى كان يشهد الله على ما فى قلبه ، ويتظاهر بالخير والبر والإخلاص والتجرد والاستحياء »(١٢٤) .

نعم : هذا وصف كل حاكم مفسد فى الأرض ، يتناقض ظاهره مع باطنه ، ويتنافر مظهره مع مخبره ، ويتقن الكذب والتمويه والدهان على الناس .. حتى إذا جاء دور العمل ظهر المخبوء ، وانكشف المستور ، وفضح بما فيه من حقيقة الشر والبغى والحقد والفساد .

ولا دليل على فساد الحكام من الملوك والأمراء والرؤساء أدل من تقريبهم للمنافقين المتملقين منهم ، وإبعادهم للناصحين الصادقين عنهم.

وأخطر ما تبتلى به أمة ألا يستجيب حكامها وقادتها للنصح ، وألا يستمعوا لدعاة الحق ، إنما تأخذهم العزة بالإثم ، وإذا ترك الدعاة

---

(١٢٣) تفسير المنار ١/٢٠٠ .
(١٢٤) فى ظلال القرآن ١/٢٠٥ .

المخلصون - فى الأمة - نصح القادة والأمراء والحكام ، فإن هذا بداية النهاية ، والطامة التى تؤذن بالفناء والدمار . **فعن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيت أمتى تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم »(١٢٥) .**

الصفة الحادية عشر : خلف الوعود ونقض العهود

والخلف - بسكون اللام وضمها - : نقيض الوفاء بالوعد ، وقيل : أصله التثقيل ثم يخفف ، والخلف بالضم : الاسم من الإخلاف ، وهو فى المستقبل كالكذب فى الماضى . ويقال : أخلفه ما وعده ، وهو أن يقول شيئا ولا يفعله على الاستقبال . وقد أخلفه ، ووعده فأخلفه : وجده قد أخلفه ، وأخلفه : وجد موعده خلفا .

والإخلاف : ألا يفى بالعهد ، وأن يعد الرجل الرجل العدة فلا ينجزها . ورجل مخلف ، أى كثير الإخلاف لوعده(١٢٦) .

ومن علامات المنافقين وأصيل صفاتهم ، ومظاهر خداعهم وكذبهم خلف الوعود ونقض العهود ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى **قوله تعالى : (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون)(١٢٧) .**

---

(١٢٥) الحديث : رواه الحاكم فى المستدرك : وقال صحيح الإسناد .

(١٢٦) لسان العرب لابن منظور : مادة « خلف » ١٢٤١/٢ وما بعدها بتصرف .

(١٢٧) الآيات ٧٥ - ٧٧ من سورة التوبة .

فتبين الآيات أن هناك من المنافقين من أقسم وأعطى العهد لله تعالى قائلا : والله لئن أعطانا من واسع رزقه ومزيد خيره ، لنصدقن على الفقراء ، وعلى من يستحقون الصدقه ، ولنكونن فى عداد الصالحين الذين يقيمون حدود الله تعالى ، فنعمل فى أموالنا ما يعمله أهل الصلاح فى أموالهم من الإنفاق فى سبيل الله ، وسائر وجوه البر والخير وصلة الأرحام .

ولكن هذا العهد إنما كان فى وقت فقرهم وعوزهم ، فى وقت الرجاء والطمع . فلما أن استجاب الله تعالى ، ورزقهم من واسع فضله ما كثرت أرزاقهم نسوا عهدهم ، وتنكروا لوعدهم ، وأدركهم الشح والبخل ، ومنعوا حق الله تعالى فيما أنعم به عليهم ، ولم يعطوا منه لأهل الاستحقاق شيئا ، وتولوا وهم معرضون عن الوفاء بما عاهدوا الله تعالى عليه .

لذلك جعل الله تعالى ـ عقابا لهم فى الدنيا ـ نفاقا متمكنا فى قلوبهم كالداء العضال ، ويظل فيها إلى يوم يموتون ويلقون الله . وهذا النفاق المتمكن فى قلوبهم بسبب أنهم لم يوفوا بما وعدوا الله تعالى به من التصدق على المستحقين ، وبسبب استمرارهم على الكذب فى جميع أقوالهم .

يقول الشيخ رشيد رضا : فذكر سببين هما أخص صفات المنافقين، وأظهر الآيات الدالة على نفاقهم : إخلاف الوعد والكذب ـ كما تقدم بيانه ونصوص الأحاديث فيه ـ فكيف إذا كان الوعد لله تعالى مع العهد والقسم ، وقد عبر عن إخلافهم الوعد بالفعل الماضى ، لأنه فى حادثة وقعت ، وعبر عن كذبهم بصيغة المضارع الدالة على الاستمرار ، لأن ذلك شأنهم الدائم الذي هو أخص لوازم النفاق ، فالمنافق مضطر إلى الكذب

فى كل وقت ، لأن ظاهره يخالف باطنه ، ولابـد له من كتمان ما فى باطنة ، وإظهار خلافه دائما لئلا يظهر فيفتضح ويعاقب ، ولا يحصـل ذلك إلا بالكذب(١٢٨) .

فالذى يعاهد الله تعالى ثم يخلف العهد ، والذى يكذب على الله تعالى فلا يفى بما وعد ، لا يسلم قلبه من النفاق . **لمـا رواه البخارى ومسلم بسندهما عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعـد أخلف ، وإذا ائتمن خان »** . وفى رواية أخرى عند مسلم **« وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم »** .

وعن عبد الله بن عمرو أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيـه خصلت من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان ، وإذا حـدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر »(١٢٩) .

ومن الآيات التى تسجل على المنافقين ـ أيضا ـ نقض العهـود وخلف الوعود قوله تعالى : **(ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا)**(١٣٠) .

فالمنافقون كانوا قد أعطوا ربهم العهود والمواثيق أمام رسوله صلى الله عليه وسلم من قبل غزوة الخندق وبعد غزوة بدر ألا يفروا من ميدان القتال ، وكان هذا العهد منهم جديرا بالوفاء ، لأنهم سيسألون عنه .

---

(١٢٨) تفسير المنار ٤٨٢/٤ .
(١٢٩) سبق تخريج الأحاديث ص ٤٧
(١٣٠) الآية ١٥ من سورة الأحزاب .

قال قتادة : لما غاب المنافقون عن بدر ، ورأوا ما أعطى الله تعالى أهل بدر من الكرامة والنصر ، قالوا : لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلن(١٣١) . ولكن أنى لهم ذلك وهم الجبناء الذين يضحون بكل العهود والمواثيق .

الصفة الثانية عشرة : خيانة الأمانة

قال ابن منظور : المخانة : خون النصح ، وخون الود ، والخون على محن شتى . وفى الحديث : « **المؤمن يطبع على كل خلق إلا الخيانة والكذب** »(١٣٢) .

قال ابن سيدة : الخون : أن يؤتمن الإنسان فلا ينصح ، وخانه يخونه خونا وخيانة وخانة ومخانة .

والمخانة : مصدر من الخيانة ، والميم زائدة ، وقد ذكره أبو موسى فى الجيم من المجون ، فتكون الميم أصلية ، وخانه واختانه ، وفى التنزيل العزيز : (**علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم**)(١٣٣) أى بعضكم بعضا . ورجل خائن وخائنة أيضا ، والهاء للمبالغة ، مثل علامة ونسابة(١٣٤) .

وقال الراغب : والخيانة والنفاق واحد الا أن الخيانة تقال اعتبارا بالعهد والأمانة ، والنفاق يقال اعتبارا بالدين ، ثم يتداخلان ، فالخيانة: مخالفة الحق بنقض العهد في السر .

---

(١٣١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ص ٥٢٤٢ . وصفوة التفاسير للصابونى ص ١١٠٠ .

(١٣٢) ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب ٢٨/٤ وقال رواه أحمد.

(١٣٣) من الآية ١٨٧ من سورة البقرة .

(١٣٤) لسان العرب : مادة « خون » ١٢٩٤/٢

ونقيض الخيانة : الأمانة ، يقال : خنت فلانا وخنت أمانة فلان(١٣٥) .

ومن صفات المنافقين « **خيانة الأمانة** » وقد قرر ذلك رسول الله ﷺ فى الأحاديث التى ذكرت فى الصفة السابقة ، **وقال الله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون)(١٣٦) .**

ورد فى سبب نزول الآية من حديث جابر « أن أبا سفيان خرج من مكة - وكان لا يخرج إلا فى عداوة الرسول ﷺ والمؤمنين - فأعلم الله رسوله بمكانه ، فكتب رجل من المنافقين إلى أبى سفيان : إن محمدا يريدكم فخذوا حذركم » فأنزل الله : **(لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم)(١٣٧) .**

والمراد أن فيها تعريضا بفعلة المنافق الذى يدعى الإيمان بأن عمله خيانة تنافيه . والخيانة للناس وحدهم من أركان النفاق كما ثبت فى الحديث الصحيح ، فكيف بمثل هذه الخيانة لله والرسول والمؤمنين ؟ .

الصفة الثالثة عشرة : اللدد فى الخصومة

والخصم - بكسر الصاد - الشديد الخصومة . والخصومة : مصدر خصمته إذا غلبته فى الخصام . يقال : خصمته خصاما وخصومة(١٣٨) .

---

(١٣٥) المفردات فى غريب القرآن : ص ١٦٣

(١٣٦) الآية : ٢٧ من سورة الأنفال .

(١٣٧) تفسير الطبرى : ٤٨٠/١٣ الأثر ١٥٩٢٢ ، وتفسير ابن كثير : ٥٨٢/٣ وقال عنه : وهذا حديث غريب جدا وفى سنده وسياقه نظر .

(١٣٨) لسان العرب : مادة (خصم) ١١٧٧/٢

وقال الراغب : الخصم : مصدر خصمته أى نازعته خصما ، يقال : خاصمته وخصمته مخاصمة وخصاما . قال تعالى : « **وهو ألد الخصام** »(١٣٩) وقال تعالى : « **وهو فى الخصام غير مبين** »(١٤٠) ، ثم سمى المخاصم خصما - بفتح الخاء وسكون الصاد - واستعمل للواحد والجمع وربما ثنى .

وأصل المخاصمة : أن يتعلق كل واحد بخصم الآخر أى جانبه ، وأن يجذب كل واحد خصم الجوالق من جانب . والجمع خصوم وأخصام . والخصيم : الكثير المخاصمة . والخصم : المختص بالخصومة(١٤١) .

والألد الخصيم : الشديد التأبى ، وجمعه لد ، كقوله تعالى : (**لتنذر به قوما لدا**)(١٤٢) وأصل الألد : الشديد اللدد ، أى صفحة العنق وذلك إذا لم يمكن صرفه عما يريده(١٤٣) .

وقد جاء وصف المنافقين باللدد فى الخصومة فى قوله تعالى:(**ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما قلبه وهو ألد الخصام**)(*) .

ففى هذه الآية بيان من الله تعالى لحال فريق من الناس يعجبك قوله وأنت فى هذه الحياة ، لأنك تأخذ بالظواهر ، وهو منافق اللسان ، يظهر خلاف ما يضمر ، ويقول ما لا يفعل ، فهو يعتمد

---

(١٣٩) ، (*) الآية : ٢٠٤ من سورة البقرة .

(١٤٠) من الآية : ١٨ من سورة الزخرف .

(١٤١ ، ١٤٣) المفردات فى غريب القرآن ص ١٤٩ ، ٤٤٩

(١٤٢) من الآية : ٩٧ من سورة مريم .

على خلابة لسانه فى غش معاشريه وأقرانه ، يوهمهم أنه مؤمن صادق ، نصير للحق والفضيلة ، خاذل للباطل والرذيلة ، متق لله تعالى فى السر والعلن ، مجتنب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، لا يريد للناس إلا الخير ، ولا يسعى إلا فى سبيل النفع ، ويحلف بالله تعالى أن ما فى قلبه الا ما يقول ويدعى ، وهو فى الحقيقة أشد الناس مخاصمة وعداوة لمن يتودد إليهم ، وليس فى قلبه إلا الحقد والبغض للإسلام والمسلمين .

يقول الشهيد سيد قطب : هذا المخلوق الذى يتحدث فيصور لك نفسه خلاصة من الخير ، ومن الإخلاص ، ومن التجرد ، ومن الحب ، ومن الترفع ، ومن الرغبة فى إفاضة الخير والبر والسعادة والطهارة على الناس .. هذا الذى يعجبك حديثه ، وتعجبك ذلاقة لسانه ، ونبرة صوته ، ويعجبك حديثه عن البر والخير والصلاح **(ويشهد الله على ما فى قلبه)** زيادة فى التأثير والإيحاء ، وتوكيدا للتجرد والإخلاص ، وإظهارا للتقوى وخشية الله **« وهو ألد الخصام »** تزدحم نفسه باللدد والخصومة ، فلا ظل فيها للود والسماحة ، ولا موضع فيها للحب والخير ، ولا مكان فيها للتجمل والإيثار(١٤٤).

ويدخل فى المراد من هذه الآية : أولئك الذين يتظاهرون بالدعوة إلى الإصلاح ، ويستعملون أساليبهم الزائفة ، وعباراتهم البراقة فى خداع الناس لكسب ثقتهم ، والاطمئنان إليهم حتى يستطيعوا - عن طريق هذه الثقة - محاربة الدين ، وهم يلبسون ثوب الإصلاح .

يقول الشيخ رشيد رضا : هذا الفريق من الناس يوجد فى كل أمة ، وتختلف الخلابة اللسانية فى الأمم باختلاف الأعصار ، ففى

---

(١٤٤) فى ظلال القرآن : ٢٠٤/١

بعض الأزمنة لا يثير للواحد أن يغش بزخرف القول إلا الفرد أو الأفراد المعدودين ، وفى بعضها يثير له أن يغش الأمة فى مجموعها حتى ينكل بها تنكيلا . وإن الجرائد فى عصرنا هـذا قد تكون طريقا للغش العام ، كما قد تكـون طريقا للنصـح العام ، وإنما يكـون تلبيسها سـهلا على من يعجب العامة قولهم فى الأمم التى يغلب فيها الجهل ، لا سيما فى طـور الانتقال من حال إلى حـال ، اذ تختلف ضروب الدعوة وطـرق الإرشـاد(١٤٥) .

وهكـذا حـال المنافقين فى خصـومهم حيث ينحـرفون ويفترون ويفجرون ، **كما ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيـه خصلة منهن كانت فيـه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خـان ، وإذا حدث كـذب ، وإذا عاهـد غـدر ، وإذا خاصـم فجـر »(١٤٦) .**

وأصل الفجـور : الميل عن القصـد ، والمعنى : أن المنافق حيث يخاصم يميل عن الحق ، ويقول الباطل ويكذب .

وكما أخرج البخارى عن عائشة رضى الله تعالى عنها عن النبى ﷺ أنه قال : « إن أبغض الرجـال إلى الله الألـد الخصـم »(١٤٧) والألـد الأعـوج .

---

(١٤٥) تفسـير المنار : ١٩٧/٢

(١٤٦) الحديث سبق تخريجه ص ٤٧ .

(١٤٧) الحديث : أخرجه البخارى فى كتاب التفسـير ، باب « وهـو ألد الخصام » الحديث ٤٥٢٣ راجع فتح البارى لابن حجـر : ٣٦/٨

الصفة الرابعة عشر : الرياء

والرياء : مشتق من الرؤية ، السمعة مشتقة من السماع ، وإنما الرياء أصله طلب المنزلة فى قلوب الناس بايرائهم خصال الخير ، إلا أن الجاه والمنزلة تطلب فى القلب بأعمال سوى العبادات ، وتطلب بالعبادات . واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة فى القلوب بالعبادات وإظهارها .

فحد الرياء : هو إرادة العباد بطاعة الله ، فالمرائى : هو **العبد** ، **والمراءى** : هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة فى قلوبهم ، **والمراءى به** : هى الخصال التى يقصد المرائى إظهارها . وهى تنقسم إلى قسمين : الأول : الرياء بأصول العبادات ، والثانى : الرياء بأوصاف العبادات .

فاما الرياء بأصول العبادات : فهو على ثلاث . الأولى : الرياء بأصل الإيمان ، وهذا أغلظ أبواب الرياء ، وصاحبه مخلد فى النار ، وهو الذى يظهر كلمتى الشهادة ، وباطنه مشحون بالتكذيب ، ولكنه يرائى بظاهر الإسلام(١٤٨) .

وقد وصف الله تعالى المنافقين بهذا النوع من الرياء فى كثير من آيات القرآن الكريم ، والتى منها قوله تعالى : (**ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون**)(١٤٩) ، وقوله تعالى :

---

(١٤٨) احياء علوم الدين : ٣/٢٥٧ - ٢٦١ بتصرف شديد ، طبعة دار الكتب العربية الكبرى .

(١٤٩) الآية : ٨ ، ٩ من سورة البقرة .

(وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون)(١٥٠) ، وقوله تعالى : (وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ..)(١٥١) ، وقوله تعالى : (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهو إن المنافقين لكاذبون)(١٥٢) . إلى غير ذلك من الآيات الواردة فى حق المنافقين .

يقول أبو حامد الغزالى : وكان النفاق يكثر فى ابتداء الإسلام ممن يدخل فى ظاهر الإسلام ابتداء لغرض ، وذلك مما يقل فى زماننا ، ولكن يكثر من ينسل عن الدين باطنا ، فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة ميلا إلى قول الملحدة ، أو يعتقد طى بساط الشرع والأحكام ميلا إلى أهل الإباحة ، أو يعتقد كفرا ، أو بدعة ، وهو يظهر خلافه ، فهؤلاء من المنافقين المرائين المخلدين فى النار ، وليس وراء هذا الرياء رياء ، وحال هؤلاء أشد حالا من الكفار المجاهرين ، فإنهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر .

الدرجة الثانية : الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين ، وهذا أيضا عظيم عند الله تعالى ، ولكنه دون الأول بكثير ، ومثاله أن يكون مال الرجل فى يد غيره ، فيأمره بإخراج الزكاة خوفا من ذمه ، والله يعلم منه أنه لو كان فى يده لما أخرجها ، أو يدخل وقت الصلاة ، وهو فى جمع ، وعادته ترك الصلاة فى الخلوة(١٥٣) .

---

(١٥٠) الآية : ١٤ من سورة البقرة .
(١٥١) من الآية : ١١٩ من سورة آل عمران .
(١٥٢) أول سورة « المنافقون » .
(١٥٣) إحياء علوم الدين : ٢٦١/٣

وقد جاء وصف المنافقين بهذا النوع من الرياء فى قوله تعالى : (**إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا**)(١٥٤) وقوله تعالى : (**وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون**)(١٥٥) وقوله تعالى : (**فويل للمصلين • الذين هم عن صلاتهم ساهون • الذين هم يراءون • ويمنعون الماعون**)(١٥٦) •

وقول الرسول ﷺ : « **إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر** •• »(١٥٧) الحديث • وقوله ﷺ : « **تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى شيطان قام فنقرها أربعا لا يذكر الله إلا قليلا** »(١٥٨) •

---

(١٥٤) الآية : ١٤٢ من سورة النساء •

(١٥٥) الآية : ٥٤ من سورة التوبة •

(١٥٦) الآيات : ٤ ـ ٧ من سورة الماعون •

(١٥٧) الحديث : رواه البخارى فى كتاب مواقيت الصلاة : ١٤٧/١ وكتاب الأذان : ١٦٠/١ ، ١٦٧ وكتاب الشهادات : ٢٣٨/٣ ورواه مسلم فى كتاب المساجد : ١٢٣/٢ ورواه الامام أحمد فى مسنده : ٣٧٦/٢ ، ٤١٦ ، ٤٧٩ ، ٥٢٦ ، ٥٣٧

(١٥٨) الحديث : رواه مالك فى الموطأ ، كتاب القرآن ، الحديث : ٤٦ : ٢٢٠/١ ، ورواه مسلم فى كتاب المساجد : ١١٠/٢ وتحفة الأحوذى ، كتاب الصلاة : ٤٩٧/١ والنسائى فى كتاب المواقيت ٢٥٤/١ ومعنى « اذا كانت بين قرنى شيطان » : أى قربت من الغروب • وأراد بالنقر تخفيف السجود ، وأنه لا يمكث فيه الا قدر وضع الغراب منقاره فيما يريد أكله •

فهـذا مـراء معه أصـل الإيمان بالله تعـالى يعتقد أنه لا معبـود سـواه ، ولو كلف أن يعبـد غير الله ، أو يسـجد لغيـره لم يفعـل ، ولكنـه يترك العبادات للكسـل ، وينشـط عند اطلاع الناس ، فتكـون منزلته عنـد الخلق أحـب إليـه من منزلتـه عنـد الخـالق ، وخـوفه من مذمـة النـاس أعظـم من خـوفه من عقـاب الله ، ورغبتـه فى محمد تهم أشـد من رغبتـه فى ثواب الله ، وهـذا غاية الجهل ، ومـا أجـدر الجهل ، وما أجـدر صاحبه بالمقت ، وإن كان غير منسـل عن أصـل الإيمان من حيث الاعتقـاد .

الدرجة الثالثة : أن لا يرائى بالإيمان ولا بالفرائض ، ولكنه يرائى بالنوافل والسنن التى لو تركها لا يعصى ، ولكنه يكسل عنها فى الخلوة لفتـور رغبته فى ثوابهـا ، ولإيثار لـذة الكسـل على ما يرجى من الثواب ، ثم يبعثه الرياء على فعلهـا ، وذلك كحضـور الجمـاعة فى الصـلاة ، وعيـادة المريض واتباع الجنائز .. الخ(١٥٩) .

وهـذا النوع من الرياء والذى قبلـه مبعثـه نفاق العمل ، وليس نفاق العقيـدة . قال تعالى : (**يسـتخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهـم معهم ..**)(١٦٠) .

ومن شر ما تبتلى به المجتمعات خلق الرياء والمصانعة ، وذلك لأن المرائى غير مؤتمن بما يرائى ، ولكنه يفعله تظاهرا واجتلابا بالغرض عند الناس ، وذلك يؤدى إلى ألوان من الفسـاد والخلل فى المجتمع ، فإن الأعمال التى تعمـل رياء لا يمكن أن تكون أعمـالا قوية ثابتـة ،

---

(١٥٩) إحياء علوم الدين : ٢٦١/٤

(١٦٠) الآية : ١٠٨ من سـورة النساء .

فالمؤمن بجده فى عمل من الأعمال وصلاحه لذاته ، يعمله فى إخلاص وقوة وإتقان ، والمنافق المرائى يكتفى بالمظهر دون المخبر ، ولا يهمه أن يتقن العمل بمقدار ما يهمه أن يظهره ، ثم إن المرائى يضرب للناس مثلا سيئا ، لأنه ربما احتذاه بعضهم وقلده ، فيشيع فى المجتمع هذا الخلق ، ويكثر فى الأمة تناول الأعمال تناولا سطحيا يعتمد الظواهر ، ويهمل الحقائق ، فتضعف الأمة فى ميادين الحياة .

الصفة الخامسة عشر : الكسل عن أداء الطاعات

والكسل : هو التثاقل عما لا ينبغى التثاقل عنه ، ولأجل ذلك صار مذموما ، يقال : كسل فهو كسل وكسلان وجمعه كسالى بضم الكاف وفتحها(١٦١) .

وقد وصف الله تعالى المنافقين بالكسل عن أداء الصلاة فى قوله تعالى : (**إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا**)(١٦٢) وقوله تعالى : (**ما منعهم أن تقبل منهم نفاقهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون**)(١٦٣) .

فليس فى قلوب المنافقين ما يبعثهم على عمل الخير ، ويدفعهم لطاعة ربهم والإخلاص له ، وخشيته فى السر والعلن ، فإذا قاموا إلى الصلاة قاموا متباطئين متثاقلين ، لا نشاط لهم ، ولا رغبة لهم

---

(١٦١) المفردات فى غريب القرآن : ص ٤٣١

(١٦٢) الآية : ١٤٢ من سورة النساء .

(١٦٣) الآية : ٥٤ من سورة التوبة .

فى أدائها ، لأنهم لا يعتقدون ثوابا على فعلها ، ولا عقابا على تركها ، وما قيامهم للصلاة مع المصلين إلا مظهرا من مظاهر خداعهم ، بدليل قوله تعالى بعد ذلك : (**يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا**) .

قال ابن كثير : هذه صفة المنافقين فى أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها - وهى الصلاة . إذا قاموا إليها قاموا : وهم كسالى عنها ، لأنهم لا نية لهم فيها ، ولا إيمان لهم بها ، ولا خشية ، ولا يعقلون معناها ، كما روى ابن مردويه عن عطاء عن ابن عباس قال : يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان ، ولكن يقوم إليها طلق الوجه عظيم الرغبة ، شديد الفرح ، فإنه يناجى الله ، وأن الله تجاهه ، يغفر له ، ويجيبه إذا دعاه(١٦٤) .

وقد اختلف المفسرون فى المراد من قوله : (**لا يذكرون الله إلا قليلا**) ففسره بعضهم بعدم الخشوع فيها ، وفسره بعضهم بأنهم يسرعون فى أدائها ، وأيدوا ذلك بما رواه الامام مسلم والامام مالك **عن العلاء بن عبد الرحمن عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ** قال : « **تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى شيطان قام فنقرها أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا** »(١٦٥) . وفسره بعضهم بغير ذلك .

وعندى أن المراد بقوله تعالى : (**ولا يذكرون الله إلا قليلا**) الصلاة نفسها ، فهو سبحانه يصفهم بأنهم إذا قاموا إلى الصلاة

---

(١٦٤) تفسير القرآن العظيم : ٣٨٩/٢

(١٦٥) الحديث : سبق تخريجه قريبا في صفة الرياء بالأعمال .

قاموا كسالى ، وإلا تركوها وضيعوها ، وقد سمى القرآن الصلاة ذكرا ، كما جاء فى قوله تعالى : (**قد أفلح من تزكى • وذكر اسم ربه فصلى**)(١٦٦) ، وقوله تعالى : (**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين • فإن خفتم فرجالا أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون**)(١٦٧) • ففى الآية إشارة إلى صلاة الخوف ، وصلاة الأمن ، وأصرح من هذا قوله تعالى : (**يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع**)(١٦٨) • فذكر الله هنا هو الصلاة كما هو واضح •

ولذلك كان المنافقون يتخلفون عن الصلاة التى لا يرون فيها غالبا ، كصلاة العشاء فى وقت العتمة ، وصلاة الصبح فى وقت الغلس ، كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر • ولو يعلمون ما فيها لأتوهما ولو حبوا • ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام • ثم آمر رجلا فيصلى بالناس • ثم انطلق معى برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم** » • وفى رواية البخارى : « **والذى نفسى بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقا سمينا أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء** »(١٦٩) •

وفى الحديث إشارة إلى ذم المنافقين المتخلفين عن الصلاة بوصفهم بالحرص على الشىء الحقير من مطعوم أو ملعوب به ،

---

(١٦٦) الآية : ١٤ ، ١٥ من سورة الأعلى •
(١٦٧) الآية : ٢٣٨ ، ٢٣٩ من سورة البقرة •
(١٦٨) الآية : ٩ من سورة الجمعة •
(١٦٩) الحديث : سبق تخريجه فى صفة الرياء بالأعمال •

مع التقريط فيما يحصل به رفيع الدرجات ومنازل الكرامة . وهذا حال كثير من مسلمى هذه الأيام ، حيث أحدهم شديد الحرص على مشاهدة الخزعبلات من الأفلام والأغانى والمسرحيات وألعاب الكرة وغير ذلك الساعات الطوال ، ويترك الصلاة بحجة عدم وجود الوقت ، أو التعب من العمل وغير ذلك من الأعذار .

يقول الدكتور / جميل غازى : كانت هذه هى صفات المنافقين القدامى عند الصلاة .. أما المنافقون المحدثون .. فإنهم ما عادوا يقومون إلى الصلاة .. !! وما عادوا يراءون أحدا ، لأنهم ما عادوا يخافون أحدا !!(١٧٠) .

تلك هى الصفات التى وصف الله تعالى بها المنافقين ، كما تحدثت عنهم آيات القرآن الكريم ، ولا شك أن تحديد هذه الصفات منسوبة إلى أصحابها ، مع بيان أنهم ممقوتون عند الله والناس ، وأن الله أعد لهم أشد العذاب وجعلهم والكافرين فى جهنم ، وجعلهم فى الدرك الأسفل منها ، كل ذلك من شأنه أن يحذر الناس من خلقهم ، ومن شرهم ، وأن يعطى المجتمع نوعا من الحصانة الخلقية ، والتربية العالية المهذبة ظاهرا وباطنا .

والواقع أنه ليس فى المجتمعات ما هو أضر عليها من النفاق ، وأنه إذا شاع فى أمة ، وفشا فى أفرادها وجماعاتها ، كان لها نذير سوء ، بل نذير فناء .

لذا يحسن بنا أن نبين أساليب المنافقين وألوان نفاقهم وعتوهم ، ومحاربتهم للدعوة الاسلامية ، وارجافهم على رسول الله ﷺ والمؤمنين بألوان باطلهم ، وذلك فيما يأتى .

---

(١٧٠) من مفردات القرآن « المنافقون » : ٨٧ طبعة مكتبة المدني بجدة سنة ١٩٧٢م .

الفصل الثالث

أساليب المنافقين وألوان نفاقهم

عندما يصاب الإنسان المنافق بالتردد ، ويتبلد قلبه ، وتنتكس فى عقله معانى الأشياء ، فانه يثور ثورة عارمة لا تعرف الرحمة ضد كل ما يعارض سلوكه من المبادىء الخلقية ، والتعاليم الإلهية ، وليس فى الوجود أشنع ولا أبعد من الرحمة والصق بالقسوة والغلظة من جماعة المنافقين حينما تحارب جماعة المؤمنين ... إنها تحشد لتلك الحرب كل طاقاتها الفكرية والاقتصادية والعسكرية على السواء ، وتصطنع للانتصار على جماعة المؤمنين كل أسلحة المكر والخداع واللؤم والتجسس والخيانة.

فكل تلك الخلائق المستغلة إنما هى من خصال المعروف والشرف فى قواميس النفاق ، وأما الوفاء بالعهد ، والالتزام بتعاليم السماء فهى مخدرات يخدر بها الدعاة جماهير الناس للتسلط عليهم ، وابتزاز أموالهم .. هكذا يفهم المنافقون من الحكام والمفكرين فى كل زمان ، ولا يخجلون مما يقولون كذبا وبهتانا ، حيث لم يكن أحد من رسل الله متسلطا ولا حريصا على مال ، ولا على أى كسب أدبى يخص به نفسه دون أمته ، بل ورد على ألسنة كثير من الرسل قولهم : **(وما أسالكم عليه من أجر إن أجرى الا على رب العالمين)(١) وقوله تعالى : (قل ما سالتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شىء شهيد)(٢)** .

---

(١) الآيات : ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠ من سورة الشعراء .

(٢) الآية ٤٧ من سورة سبأ .

ولكن النفاق فى كل زمان ومكان هو الذى يشكل منطق الكفر والإلحاد ، فهو اللسان والعقل المفكر الذى يمد الكفر بالخطة والمنهج ، سواء أكان ذلك بالتعاون بين فريق المنافقين وفريق الكافرين الذين استبان كفرهم ، أم فى داخل انسان واحد يستمد من نفاقه حجة لكفره .

ومن عجيب الخداع النفسى الذى يسيطر على المنافق : أن الوجه المتفتح من قلبه وعقله يصاب بالصدأ أو العقم ، فلا تنعكس فيه الصور المضيئة إلا قاتمة باهتة كئيبة ، ولا يتحرك عقله لمجرد الموازنة بين خير وشر ، بل إن المعانى الخيرة ، والقيم العليا تنعكس فى ذلك العقل المنكوس رجسا ونجسا .

وفى القرآن الكريم مثل واضح على أن طبيعة النفاق والكفر تتميز بهذه السمة العجيبة بين خلائق النفس البشرية ونقائصها ، وذلك هو منطق قوم لوط فى مواجهة نبى الله لوط عليه السلام حين دعاهم إلى هجران الشذوذ الجنسى ، والعودة إلى الطبيعة البشرية الفطرية ، فقالوا: **(أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون)(١)** . فالطهارة فى نظرهم جريمة يستحق صاحبها النفى من البلاد ، والنجس فى منطقهم شرعة قائمة لا تجوز معارضتها ولا الخروج عليها ، وهذا موضع العجب !!

وقد صور القرآن الكريم موقف المنافقين هذا حينما كانوا يسمعون القرآن . قال تعالى **(وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون)(٢)**.

---

(١) الآية ٥٦ من سورة النمل .

(٢) الآية ١٢٤ ، ١٢٥ من سورة التوبة .

ولم يقتصر الأمر على تعجبهم وإنكارهم أن يكون القرآن مصدرا ونبعا فياضا للإيمان ، بل إنهم كانوا ينصرفون من مجلس القرآن على استخفاء يكشف عنصر الجبن والخداع النفسى الذى يسيطر عليهم ، يقول الله تعالى : (**وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون**)(١) .

ومنطق النفاق الملحد القديم هو نفس منطق النفاق الملحد الحديث فى دنيا السياسة ، فهم دائما يشككون الناس فى كل قيمة غيبية ، ويصفون المؤمنين بها بأنهم مخدعون مغرورون ، ويسخرون من الملتزمين بتعاليم الإسلام من الشباب والفتيات ، وما ذاك إلا لأنهم لا يؤمنون إلا بالمحسوس الذى يوافق هوى النفس من بين الموجودات المادية والمعنوية على السواء ، وما كانت الوسيلة إليه حرمان النفس من هواها ، فهو مرفوض رفضا قاطعا ، وقد كشف القرآن عن هذه السمة فى قوله تعالى: (**وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا**)(٢) ويعودون باللائمة على المؤمنين بوعد الله ورسوله .

ورغم كل هذه الجرأة فى الصد عن سبيل الله ، ومصادرة حقائق الغيب ، فقد كان القرآن مصدر فزع وهلع لقلوبهم الهزيلة ، لأنه كان يهتك أستار نفوسهم ، ويعريها بما تحتويه من ظواهر القوة المزيفة ، فهم يخافون كل الخوف من فضح سرائرهم ، وتعرية نفاقهم مما يغلفونه به من مظاهر القيادة الفكرية الهشة ، التى سموها حينا بالعصرية ،وحينا بالاجتهاد لمواجهة التقدم ، وحينا بالانفتاح على الثقافات الأجنبية ،

---

(١) الآية ١٢٧ من سورة البقرة .

(٢) الآية ١٢ من سورة الأحزاب .

وحينا بتجديد الشريعة إلى آخر تلك الأسماء ، فاذا ما اكتشف المؤمن نفاقهم وأعلنهم به خافوا من كل مؤمن ، ونفروا من كل مجتمع مؤمن . والله تعالى يكشف عن تلك السمة فيهم بقوله : (**يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون**)(١) .

وكما يخشى المنافق وحى السماء ، فهو كذلك يخشى فراسة المؤمن التى تنفذ إلى أعماقه ، فتفضح مكنون صدره ، وتحذر المجتمع من شره ، وحينما يكثر المؤمنون ، وتكثر تبعا لذلك البصائر الكاشفة عن عفن النفاق فى المجتمع ، فان مجتمع المنافقين يسلك عدة أساليب لحرب الإسلام وقيمه العليا ، لتقويض بنيانه وهدم أركانه .

وإذا تأملنا ولو فى نظرة عاجلة إلى أسلحة المنافقين التى يهدمون بها فى بناء الأمة الإسلامية على اختلاف أرجائها سنرى مدى الخطورة التى يواجهها الإسلام والمسلمون اليوم . ومن روائع إعجاز القرآن الكريم ، ومن آثار كونه من عند الله العليم الخبير نجد كل أسلحة المنافقين مهما جددوا فيها ، وكل أساليبهم مهما استحدثوا فيها ، أو ظنوها خفية مستترة ، فان القرآن الكريم يكشفها ، ويبرز للمسلمين الوسائل التى يستطيعون بها أن يضعوا أيديهم على آثار النفاق وأساليبه وألوانه فى المجتمع الإسلامى . وإليك أهم هذه الأساليب فيما يأتى :

---

(١) الآية ٦٤ من سورة التوبة .

أولا : الإعراض عن حكم الله ورسوله

إن المقتضى الفطرى البدهى للإيمان الصحيح أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به ، وإلى من آمن به ، فاذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل ، وبالرسول وما أنزل إليه ، ثم دعى إلى هذا الذى آمن به ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه كانت التلبية الكاملة هى البدهية الفطرية . فاذا أعرض الإنسان أو صد أو تولى ، فهو إذن يخالف البدهية الفطرية ، ويكشف عن النفاق ، وينبىء عن كذب الزعم الذى زعمه من الإيمان !!

وهذا هو حال المنافقين الذى كشف عنه القرآن فى قوله تعالى : **(ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا . أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا . وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ، فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما)(١) .**

فهذه الآيات تبين أن السنة المنافقين تدعى الإيمان بالله ورسوله،

---

(١) الآيات ٦٠ ـ ٦٥ من سورة النساء .

وأفعالهم تدل على الكفر بهما ، حيث الإيمان بالطواغيت ، وإيثار حكمهم ، وهذا دليل الخروج عن الإسلام ، وهم بفعلهم ذلك صاروا تلامذة الشيطان وهو يريد أن يبعدهم عن الحق مسافة بعيدة حتى لا يهتدوا إلى طريق أصلا . والدليل على ذلك أنه إذا قيل لأولئك الزاعمين الإيمان : تعالوا نحتكم إلى ما أنزل الله فى القرآن وإلى الرسول ، فهو الصراط المستقيم ، رأيت هؤلاء المنافقين يعرضون عنك وعن دعوتك ، ويرغبون عن حكمك بكل اصرار وعناد وتعمد للصدود . وخاصة إذا كانوا يخشون أن يظهر حكم الله ورسوله باطلهم وظلمهم . وهكذا كانوا فى عهد الرسول ﷺ ، وهم كذلك فى كل زمان .

وقد ذكر المفسرون « أسبابا » متعددة لنزول هذه الآيات ، وجميع ما ذكروه يدور حول : أن أفرادا من المنافقين ، كالجلاس بن الصامت ، ومعتب بن قشير ، ورافع بن زيد ، أعرضوا عن حكم الرسول ﷺ ، وآثروا تحكيم غيره من الناس ، لعلمهم أن الآخرين يقبلون الرشوة ، ويبيعون الأحكام بالثمن !! ، أما هو ﷺ فقد كان ـ دائما ـ يحكم بالعدل ، ويقسم بالسوية ، لا يحوله عن الحق قرابة قريب ، ولا محبة حبيب ، ولا عظمة عظيم !! فالناس ـ جميعا ـ أمام شريعة الله ودينه سواء ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى!!

والطاغوت ـ الذى وصف الله المنافقين بأنهم يريدون التحاكم إليه ـ هو مصدر الطغيان كله ، فكأنه كل من يتحاكم إلى غير ما أنزل الله على رسوله ﷺ ، يكون عبد الطاغوت من دون الله !! وكذلك الذى ينصب نفسه مشرعا للناس ، وحاكما لهم بغير ما أنزل الله ، يكون قد نصب نفسه « طاغوتا » ووثنا !!

وقد أمرنا الله تعالى فى كثير من آيات القرآن الكريم ، أن نؤمن بالله ، ونكفر بالطاغوت . قال تعالى : (**لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ، الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**)(٩) وقال تعالى : (**ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**)(١٠) .

وأنماط « الطواغيت » التى يدين لها الناس ، ويعبدونها من دون الله كثيرة ومتباينة ! وتكاد تكون منحصرة فى كل ما يصرف عن دين الله ، وتوحيده ، وآياته ، وصفاته ، وتشريعه .

وتأمل معنى قوله تعالى : «**يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا**» فهم يحلفون - كاذبين غاشين - أنهم ما قصدوا بالتحاكم إلى الطاغوت، والنكوص إلى فوضى « الجاهلية التشريعية » الا رغبة فى الإحسان والتوفيق ! وهى لغة المنافقين فى كل زمان ، ولغة أعداء الله وأعداء شريعته ، فى الدفاع المشبوه الذى يطلقونه كل يوم ليبرروا به سلوكهم المرذول .

إنهم يقولون إننا نستورد الشرائع ، ونتسول القوانين ، لكى نتقى

---

(٩) الآية ٢٥٦ ، ٢٥٧ من سورة البقرة .

(١٠) الآية ٣٦ من سورة النحل .

الشبهات والإشكالات والمتاعب التى تسببها لنا « شريعة القرآن » وسنة الرسول ﷺ !!

ويقولون : إننا نريد التوفيق بين العناصر المختلفة ، والاتجاهات والعقائد المتباينة .

ولو أن أى إنسان ذهب يختصر ما يقوله المنافقون فى عصرنا الحاضر عن التشريع الإسلامى ، لما وجد أكمل ولا أشمل ، ولا أدق ولا أعمق ، من قوله تعالى : **(يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا)**.

ثم يقول العليم الخبير : **(أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم)** وهكذا يمسك القرآن بخناق هؤلاء المنافقين وهم فى حالة تلبس بالتربص والخداع والتمويه !! .

إن الرضا بحكم الله تعالى ورسوله ﷺ دليل الإيمان الحق ، وهو المظهر الذى ينبىء عن استقرار حقيقة الإيمان فى القلب ، لأن شرط الإيمان الحق وحد الإسلام يقرره الله تعالى بنفسه ، ويقسم عليه بذاته **فيقول : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما)** .

فلم يكتف سبحانه وتعالى منهم بمجرد التحكيم للرسول ﷺ ، حتى يضيفوا إلى ذلك عدم وجود شىء من الحرج فى نفوسهم - والحرج الضيق - بل لابد من اتساع صدورهم لذلك وسلامتها من القلق والاضطراب .

ولم يكتف أيضا بهذين الأمرين حتى يضموا إليهما التسليم ، وهو كمال الانقياد لحكمه ﷺ ، بحيث يتخلون عن أى تعلق للنفس بهذا الشىء، ويسلموا ذلك إلى الحكم الحق أتم التسليم،ولهذا أكد سبحانه ذلك بالمصدر

المؤكد وهو قوله جل شانه « تسليما » المبين انه لا يكتفى هاهنا بالتسليم ٠٠ بل لابد من التسليم المطلق ٠

ومن كشف القرآن لحال المنافقين وبيان إعراضهم عن حكم الله ورسوله قوله تعالى : (**ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ٠ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ٠ وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ٠ أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ٠ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون**)(١١) ٠

إن الإيمان الصحيح متى استقر فى القلب ظهرت آثاره فى السلوك، والإسلام عقيدة متحركة لا تطيق السلبية ، فهى بمجرد تحققها فى عالم الشعور تتحرك لتحقق مدلولها فى الخارج ، ولتترجم نفسها إلى حركة وإلى عمل فى عالم الواقع ٠ ومنهج الإسلام الواضح فى التربية يقوم على أساس تحويل الشعور الباطن بالعقيدة وآدابها إلى حركة سلوكية واقعية ، وتحويل هذه الحركة إلى عادة ثابتة أو قانون ، مع استحياء الدافع الشعورى الأول فى كل حركة ، لتبقى حية متصلة بالينبوع الأصيل(١٢) ٠

وهؤلاء المنافقون يقولون : (**آمنا بالله وبالرسول وأطعنا**) يقولون هذا الكلام بأفواههم ، ولكن مدلوله لا يتحقق فى سلوكهم ، فيتولون

---

(١١) الآيات ٤٧ ـ ٥١ من سورة النور ٠

(١٢) فى ظلال القرآن ٢٥٢٥/٤ ٠

ناقصين يكذبون بالأعمال ما قالوه باللسان ، فجاء حكم الله تعالى فيهم: (وما أولئك بالمؤمنين) ٠

فالمؤمنون تصدق أفعالهم أقوالهم ٠ والإيمان ليس لعبة يتلهى بها صاحبها ، ثم يدعها ويمضى ، إنما هو تكيف فى النفس ، وانطباع فى القلب ، وعمل فى الواقع ، ثم لا تملك النفس الرجوع عنه متى استقرت حقيقته فى الضمير ٠

وبعد : فان الناظر فى هذه الآيات السابقة وأسباب نزولها يجد أن الله تعالى قد حكم بكفر ونفاق أناس كرهوا التحاكم إلى شرعه فى جزئية من الجزئيات ، وأرادوا أن يتحاكموا إلى الطاغوت فيها ، فكيف بمن يدعى إلى شرع الله فى شئون الحياة كلها ، فيرفض ذلك ، وهو يتظاهر بالإسلام ، ويرغب عن شريعة الإسلام جملة واحدة ، ويهرع إلى استيراد شرائع الكفار وأهل الكتاب فى الشرق والغرب ، فيحكم بحكمهم فى الناس : فى السياسة ، والاقتصاد ، والعقوبات وغيرها ، ويترك حكم الله فى كل ذلك ؟ فلعمر الحق أن نفاق هؤلاء وكفرهم لأشد من نفاق أولئك وكفرهم أضعافا مضاعفة ، لأن من رفض نظام الله المنزل لعباده جملة واحدة أعرق فى الكفر ممن رغب عنه فى قضية معينة تخصه دون غيره ، وكلاهما كافر منافق فى حكم الله عز وجل ، وإن ادعى أنه مسلم(١٣) ٠

---

(١٣) انظر : الجهاد ميادينه وأساليبه ص ١٠٠ ٠

ثانيا : موالاة الكفار ونصرتهم على المسلمين

وذلك أن المنافقين أقرب - فى حقيقة الأمر - إلى الكفار منهم إلى المؤمنين ، بل لا صلة تربطهم بالمؤمنين من حيث الظاهر ، وما أقاموا هذه الصلة مع المؤمنين إلا لتخدم أولياءهم وشياطينهم من الكفار ، فهم صنائع الكفار بين المسلمين ، وهم مع الكفار عليهم(١٤) ، كما أخبر الله تعالى : (**وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون**)(١٥) .

وقد بين الله تبارك وتعالى هذه الحقيقة ، وهذه العلاقة بين المنافقين والكفار فى كثير من آيات القرآن الكريم ومنها قوله تعالى : (**وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون**)(١٦) .

بل قرر القرآن أن المنافقين يرتبطون مع الكفار برباط أخوة الكفر، فقال تعالى : (**ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصركم والله يشهد إنهم لكاذبون**)(١٧) .

---

(١٤) تفسير ابن كثير ٥٦٦/١ ، والحضارة الإسلامية للمودودى ص ٢٩٧ وسيرة الرسول ﷺ ص ٢٠٤ ، والجهاد ميادينه وأساليبه ص ١٠١

(١٥) الآية ١٤ من سورة البقرة .

(١٦) الآية ١٦٧ من سورة آل عمران .

(١٧) الآية ١١ من سورة الحشر .

وكيف لا يكون ذلك هو حال المنافقين وقد فرغت قلوبهم من العقيدة الصحيحة والإيمان الصادق الذى يعتقد فيه المؤمن أن الله تعالى رب كل شىء ومليكه وخالقه ، وأنه يستحق وحده أن يفرد بالعبادة من صلاة وصيام ودعاء ، وخوف ورجاء ، وذل وخضوع ، وأنه متصف بصفات الكمال ، ومنزه عن كل نقص .

أى إذا وجد هذا الإيمان انتفى معه الولاء للكافرين ، وإذا انتفى هذا الإيمان قد يوجد الولاء للكافرين ، لأن الايمان والولاء للكافرين ضدان لا يجتمعان فى قلب امرىء مسلم . لذلك يقول الله تعالى : **(ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما انزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون)(١٨) . وقال تعالى : (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو ابناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ... »(١٩) وقال تعالى : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين .. »(٢٠) .**

ويبين القرآن الكريم أن الأسباب التى دفعت المنافقين لاتخاذ الكافرين أولياء - زيادة على عدم الإيمان - هو ابتغاء العزة عند الكافرين . حيث قال تعالى : **(بشر المنافقين بأن لهم عذابا اليما.الذين**

---

(١٨) الآية ٨٠ ، ٨١ من سورة المائدة .

(١٩) الآية ٢٢ من سورة المجادلة .

(٢٠) الآية ٢٨ من سورة آل عمران .

يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين • أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا)(٢١) •

وهكذا يكشف القرآن عن طبيعة المنافقين واتخاذهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، كما يكشف عن سوء تصورهم لحقيقة القوى ، وعن تجرد الكافرين من العزة ، والقوة التى يطلبها عندهم أولئك المنافقون، ويقرر أن العزة لله تعالى وحده ، فهى تطلب عنده ، وإلا فلا عزة ولا قوة عند الآخرين ، **قال تعالى : (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ••)(٢٢) وقال تعالى : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون)(٢٣) •**

وما يستعز المؤمن بغير الله وهو مؤمن ، وما يطلب العزة والنصرة والقوة عند أعداء الله وهو يؤمن بالله ، وما أحوج ناسا ممن يدعون الإسلام ، ويتسمون بأسماء المسلمين ، وهم يستعينون بأعدى أعداء الله فى الأرض أن يتدبروا هذا القرآن إن كانت بهم رغبة فى أن يكونوا مسلمين ، وإلا فان الله غنى عن العالمين(٢٤) •

ومن الأسباب التى دفعت المنافقين ـ أيضا ـ إلى اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين : خوفهم من الهزيمة ، وعدم الثقة فى نصر الله تعالى ، كما **قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم إن الله لا يهدى**

---

(٢١) الآية ١٣٨ ، ١٣٩ من سورة النساء •

(٢٢) الآية ١٠ من سورة فاطر •

(٢٣) الآية ٨ من سورة المنافقون •

(٢٤) فى ظلال القرآن ٢/٧٨٠ •

القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائـرة فعسى الله أن يأتى بالفتـح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين) (٢٥) .

قال أصحاب التفسير الوسيط عند تفسير هذه الآيات : يبين الله تعالى فى هذا الخطاب حال الذين يوالون اليهود والنصارى ، وأشار فيه إلى سبب هذه الموالاة منهم،وهو أنه ما استقر فى قلوبهم من النفاق والحقد على محمد ﷺ ، والشك فى صدقه ، فلا إيمان يملأ قلوبهم، ولا يقين - برسالته - تعمر به نفوسهم ، ولذا تراهـم مسـارعين إلى تحقيق مودتهم لليهود والنصارى ، ومعاونتهم فى حرص شديد وعناية فائقة . ثم يقولون معتذرين عن تلك الموالاة : بأننا نفعل ذلك ، خوفا من أن يدور الدهر علينا : إما بقحط أو جـدب ، فـلا يعطونا طعامـا ولا مالا ، وإما بانقلاب الأمر .. فتصبح - بتلك الوسيلة الحمقـاء - الدولة للكفار ، والغلبة لليهود والنصارى على المسلمين ، فيدور الأمر كما كان قبل ذلك ، فلا يتم لمحمد ﷺ شأن ، ولا يدوم لهم نصر(٢٦).

أقول : هذا هو الواقع الذى تعيشه المجتمعات الإسلامية بعـد أن استعز حكامها باليهود والنصارى ، واستنصروا بهم خشية غضـبهم ، ومنعهم الطعام والمال ، وخشية المقاطعة التجارية أو السياسية ، حتى أصبحت الدولة لهم . وأصبح من الشىء الطبعى أن نقرأ ، أو نسـمع السـخرية والاستهزاء بالدين الإسلامى وشريعته ، والطعـن فى شرف النبى ﷺ ، ولم يغضب أحد من أجل ذلك ، وتظل الدولة الإسـلامية

---

(٢٥) الآية ٥١ ، ٥٢ من سورة المائدة .

(٢٦) التفسير الوسيط ١٠٩٣/١ .

على ولائها وعلاقاتها بهذه الدولة التى صدر منها مثل هذه السخرية والاستهزاء بالدين ، والله تعالى يقول : (**ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون**) (٢٧) .

هذا فضلا عن قتل وتشريد أبناء المسلمين ، وهتك أعراضهم فى كثير من البلاد على أيدى اليهود والنصارى(٢٨) ، ولا أحد - أيضا -

---

(٢٧) الآية ٥٧ ، ٥٨ من سورة المائدة .

(٢٨) كتب عبد السلام داود - فى جريدة أخبار اليوم - خمس صور من أعمال النصارى ضد المسلمين فى بلاد البوسنة والهرسك ، الصورة الأولى : أن مجموعة من جنود الصرب بعد أن انتهوا من هدم المسجد وتدميره أتوا بإمام المسجد - وهو شيخ كبير - موثقا بالحبال ، وينهالون عليه ضربا ، ثم جردوه من ملابسه وراحوا يجلدون جسمه العارى بالسياط ، ويحاولون اجباره على التفوه بالفاظ ضد الإسلام . ويتمسك إمام المسجد بالصبر ، ويرفض إطاعة الأمر .. وهنا تظهر مجموعة من الرجال تقود زوجته ، فيوقفونها على بعد خطوات منه ، ثم يجردونها من ثيابها ، ويتقدم واحد منهم فيهتك عرضها ويغتصبها إمام أعين المشاهدين الذين يصفقون مهللين لهذا العمل . ويرتفع صوت الإمام فوق صيحات الشماتة يقول : الله أكبر .. الله أكبر . وعندئذ تحضر مجموعة أخرى تقود بناته واحدة وراء الأخرى ليكرروا معهن نفس المشهد . ويتمسك الإمام بموقفه ، ويرتفع صوته شاكيا إلى الله ، فيطيحون بعنقه ويسدل الستار...وأما الصورة الخامسة: =

يتكلم ولا يغضب ، ويظل الولاء لهذه الدول الكافرة هو هو ، والعلاقات هى هى . وما سبب ذلك كله الا انعدام حمية الإيمان وامتلاء القلوب بالنفاق والوهن .

=

تدفع مجموعة من الصرب سيدة مسلمة تحمل على يدها طفلها إلى الساحة فى مواجهة الجماهير المتعطشة للدماء . ويتقدم شابان فيجردانها من ثيابها ويغتصبانها . وبينما هى ذاهلة عن نفسها تتلفت بحثا عن طفلها ، فيتقدم رجل قصير دميم يحمل فى يده سكينا فيخطف الطفل ويذبحه أمام عينيها . وترتفع صرخات الأم وتوسلاتها تشق عنان السماء ، بينما جمهور المشاهدين من الصرب يهزه الطرب . وفجأة يقتحم المشهد رجل يحمل كوبا يملأه من دم الطفل ، ويهجم اثنان على الأم يفتحان فمها عنوة ، ويسكبان فيه دم طفلها !! انظر جريدة أخبار اليوم بتاريخ ١٩٩٢/١٠/١٧ ص ٨ .

ولعلك تقول إنها حرب بين شعبين لأسباب عرقية أو حدودية أو وطنية ، وأقول لك إنها حرب من أجل القضاء على الإسلام والمسلمين ، كما صرح بذلك فوشتيك قائد القوات الصربية لمجلة « ديرشبيجل الألمانية » حينما سألوه ما هو الهدف من هذه الحرب ؟ أجاب : إن هدفنا هو القضاء على المسلمين ، فالمسلمون فى أوربا يجب أن يختفوا كأمة . ان على المسلمين فى البوسنة اعلان تحولهم عن الإسلام ، وأن يصبحوا صربيين أو كروات .. أما الخيار الثالث فهو الموت !! وإسلاماه !! هل من سامع ؟؟
راجع جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٩٢/١٠/٢٥ ص ٩ .

ثالثا : السخرية والاستهزاء

ويقصد بالسخرية كل ما يؤدى إلى الاستهزاء والتحقير والاستخفاف بالمسخور منه ، وليس لها صورة أو سلوك معين ، فقد تكون بالاشارة كالنظرة المصحوبة بالاحتقار ، وقد تكون بالقول ، كما يعبر شخص بأسلوب لفظى معين عن سخريته واحتقاره ، وقد تكون بالفعل ، كما يفعلون فى بعض القبائل البدوية باللص الذى يضبط متلبسا بالسرقة ، بأن يطلوه بلون معين من مادة كالجير أو الطين ، ثم يطوفون به البلدة مشهرين به ، وهو على هذا الحال تحقيرا واستهزاء به .

ولما كان المنافقون شانهم شأن إخوانهم الذين كفروا من حيث السخرية بالدين والمتمسكين به ، فقد استهزءوا بالله وآياته ورسوله والمؤمنين ، حيث قال تعالى : (**يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل استهزوا إن الله مخرج ما تحذرون . ولئن سالتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بانهم كانوا مجرمين**) (٢٩) .

فالآيات تبين أن المنافقين يستهزئون بالله ، وكلامه ، ورسوله الذى أرسله إليهم ، والاستهزاء بأى شىء يتعلق بالشخص لابد أن يتضمن فى جانب منه استهزاء بالشخص نفسه ، هذا فضلا عن أن ما استهزءوا به من كلام الله ورسوله مرتبط ارتباطا مباشرا بالله تعالى .

فالمنافقون إذن قد وصلوا بسخريتهم من الله سبحانه وتعالى

---

(٢٩) الآيات ٦٤ ـ ٦٦ من سورة التوبة .

واستهزائهم به إلى قمة الكفر ، بل إلى قمة السوء فى أسلوب الكفر ، فان الأسلوب الذى يزاول به الشىء قد يكون أبلغ فى الدلالة من الشىء نفسه سواء أكان خيرا أم شرا .

١ — سخرية المنافقين بالقرآن

قال الله تعالى : (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون)(٣٠).

وتبين الآيات أن بعض المنافقين كانوا يستخفون بالقرآن ، ويتساءلون فى سخرية واستهزاء عند نزول سورة من القرآن « **أيكم زادته هذه إيمانا** » وأى عجب فى هذا الكلام الذى تسمعونه ؟ ويجعلون من أنفسهم التى سودتها المطامع والآثام مقياسا للحق والصدق .

والغريب : أن المشركين كانوا يعترفون بعظمة القرآن وتأثيره البالغ فى النفوس ، ويوصى بعضهم بعضا بعدم الاستماع إليه مخافة أن يجذبهم إلى الإسلام من حيث لا يشعرون . قال تعالى : (**وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**)(٣١ . وإن دل هذا على شىء فانما يدل على أن النفاق أسوأ أثرا ، وأشد جرما من الكفر والشرك .

وأجاب الله تعالى المنافقين بقوله : (**فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا**) أى إذا لم تجدوا أيها المنافقون فى نفوسكم أثرا طيبا لسور

---

(٣٠) الآية ١٢٤ ، ١٢٥ من سورة التوبة .
(٣١) الآية ٢٦ من سورة فصلت .

القرآن وآياته بعد أن طبعت عليها الأهواء والأغراض ، فان المؤمنين يزدادون بها هدى ويقينا ، لأن نفوسهم نقية زكية لم تدنسها الأقذار والأرجاس كفوسكم (**وهم يستبشرون**) كلما نزلت سورة أو آية من القرآن ، لأنها تبشرهم بالجنة وترشدهم إلى الطريق القويم ٠

ولخطورة الأثر النفسى لسخرية المنافقين بآيات الله تعالى ، وتحاشيا ، لأن تؤثر هذه السخرية فى نفس أحد من المؤمنين ، فان الله تعالى يحذر المؤمنين من مجالسة هؤلاء المنافقين حين يستهزءون بآياته تعالى فقال : (**وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا**)(٣٢) ٠

والذى أنزله الله على المؤمنين فى القرآن الكريم وحذرهم به من مجالسة هؤلاء المستهزئين والاقبال عليهم أو الرضا بحديثهم قوله تعالى: (**وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين**)(٣٣) ٠

وفى هذه الآيات تحذير واضح لأفراد المجتمع ولا سيما ذوى الشأن منهم فيه ، فقد جرت العادة ألا يخلو مجتمع من المنافقين أو أهل العبث والمجون ، فيحاول هؤلاء أو هؤلاء اتخاذ آيات الله تعالى ، أو قضايا الإيمان والحق والاصلاح هزؤا وسخرية ، إما بدافع الحقد على أصحابها، وإما كراهية لأن تستقر فى المجتمع مثلها وأهدافها ، وإما انسياقا مع

---

(٣٢) الآية ١٤٠ من سورة النساء ٠
(٣٣) الآية ٦٨ من سورة الأنعام ٠

رغبة اللهو والعبث والمجون التى تقوم عليها مجالس البطالين والفارغين، فإذا جالسهم على ذلك رجل أو رجال محترمون كان ذلك تشجيعا لهم، وكان ذلك غير لائق به ، فان لصاحب الحق والمبدأ غيرة على حقه ، وغضبا على من يريد انتهاكه أو السخرية منه ، ولو أن كل صاحب حق مؤمن به ، وقف لأمثال هؤلاء بالمرصاد ، أو أعرض عنهم وهجرهم على الأقل ، لوجدوا أنفسهم مسيئين ، وأحسوا بأن الناس عنهم غير راضين، فكفوا عن سخريتهم واستهزائهم ولهوهم .

والواقع أن إعراض المؤمن الكريم هو من أفضل أساليب الإنكار ، لأنه - وان كان سلبيا - يتضمن أن صاحبه محتقر لأهل الفساد من المنافقين ، مستصغر شأنهم إلى درجة أنه لا يحدثهم ، أو أنه يائس من أن ينتصحوا فهو لا ينصحهم ، بل يؤثر أن يتركهم ويبتعد عنهم ، وهذا الانكار السلبى هو المعروف فى المجتمعات الآن « بالانسحاب » من الجلسات ونحوها ، وإنما يكون هذا « الانسحاب » حين يشعر عضو من الأعضاء بأن الأمر قد خرج إلى حالة لا يجدى فيها الدليل والنصح والملاينة .

وهذا الأدب القرآنى أصل فى ذلك ، وهو تربية للأمة ، وسبيل إلى تكوين رأى عام مهيب فيها ، يخافه المبطلون ، ويحسب حسابه المنافقون المفسدون ، والله تعالى يقول فى شأن من يرضى بمثل ذلك ، ولا يقاومه ولو بمجرد الإعراض عنه « **إنكم إذا مثلهم** » .

لأن مجالسة المنافقين حينئذ كأنها رضا باستهزائهم من القرآن ، فضلا عما تتضمنه من الدعاية بأن المؤمنين أنفسهم راضون عن هذا الاستهزاء ، أومشاركون للمستهزئين بهذا الرضا . فأدنى ما يجب على

المؤمن حينئذ أن يغادر هذا المجلس مغادرة الساخط المستنكر ، وهذه الصورة من السخط والاستنكار الواضح أضعف الإيمان فى النهى عن المنكر بالقلب ، كما فى الحديث **الذى رواه الإمام مسلم بسنده عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله تعالى عنه - قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »(٣٤) .**

لأن السخط والاستنكار إذا لم يكونا ظاهرين لمرتكب المنكر ولغيره، فلن يكون لهما الأثر الفعال ، والاستهزاء بآيات الله تعالى أسوأ أنواع المنكر .

٢ - الاستهزاء برسول ﷺ :

ويبين القرآن الكريم أن المنافقين كانوا يرتقبون الفرص للصد عن الإسلام بالطعن على النبى ﷺ بالشبه التى يظنون أنها توقع الريب فى قلوب ضعفاء الإيمان من الجانب الذى يوافق أهواءهم ، وقد كان منها قسمة الصدقات والغنائم . فقال تعالى : (**ومنهم من يلمزك فى الصدقات**

---

(٣٤) الحديث : أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان ، باب « بيان كون النهى عن المنكر من الإيمان » ٥٥٧/١ ، صحيح مسلم بشرح النووى ، وأخرجه أبو داود فى الصلاة ، باب خطبة يوم العيد: ٢٩٧/١ ، وفى الملاحم ، باب الأمر والنهى ١٢٣/٤ ، والترمذى فى الفتن ، باب ما جاء فى تغيير المنكر ٤٦٩/٤ ، والنسائى فى الإيمان ، باب تفاضل أهل الإيمان ١١١/٨ ، وابن ماجة فى كتاب الصلاة والسنة فيها ، باب ما جاء فى صلاة العيدين ٤٠٦/١ ، وفى الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ١٣٣/٢ .

فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون)(٣٥) .

وروى البخارى والنسائى ومصنفوا التفسير بالمأثور عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : بينما النبى صلى الله عليه وسلم يقسم قسما إذ جاءه ذو الخويصرة التميمى فقال : اعدل يارسول الله ، فقال : « ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ » فقال عمر بن الخطاب ـ رضى الله تعالى عنه ـ : ائذن لى فأضرب عنقه ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ... قال أبو سعيد : فنزلت فيهم « ومنهم من يلمزك فى الصدقات » الآية(٣٦).

وهناك روايات أخرى يدل مجموعها على أن هذا القول قاله أفراد من المنافقين ، وكان سببه حرمانهم من العطية كما هو مصرح به فى الآية .

ولم ينته المنافقون عند هذا الحد فى إيذاء الرسول ﷺ ، بل طعنوا فى أخلاقه العظيمة وشمائله الكريمة ، وأدبه الرفيع ، حيث أخبر القرآن عنهم بقوله تعالى : (ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن

---

(٣٥) الآية ٥٨ من سورة التوبة .

(٣٦) الحديث أخرجه مسلم فى كتاب الزكاة ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم ١٧٥/٤ من صحيح مسلم بشرح النووى ، وأخرجه البخارى فى كتاب الأدب ، باب ما جاء فى قول الرجل ويلك ٥٦٧/١٠ الحديث ٦١٦٣ من كتاب فتح البارى ورواه النسائى فى فضائل القرآن ، وفى التفسير فى الكبرى على ما جاء فى التحفة ٤٩٣/٣ .

خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) (٣٧) .

إنه سوء الأدب فى حق الرسول - ﷺ - ، يبدو فى صورة غير صورة اللمز فى الصدقات . إنهم يجدون من النبى ﷺ أدبا رفيعا فى الاستماع إلى الناس بإقبال وسماحة ، ويعاملهم بظاهرهم حسب أصول شريعته ، ويهش لهم ، ويفسح لهم من صدره ، فيسمون هذا الأدب العظيم بغير اسمه ، ويصفونه بغير حقيقته ، ويقولون عن النبى ﷺ **« هو أذن »** أى سماع لكل قول ، يجوز عليه الكذب والخداع والبراعة ، ولا يفطن إلى غش القول وزوره . من حلف له صدقه ، ومن دس عليه قولا قبله . يقول هذا بعضهم لبعض طمأنة لأنفسهم أن يكشف النبى - ﷺ - حقيقة أمرهم ، أو يفطن إلى نفاقهم . أو يقولونه طعنا على النبى فى تصديقه للمؤمنين المخلصين الذين ينقلون له ما يطلعون عليه من شئون المنافقين وأعمالهم وأقوالهم عن الرسول ﷺ وعن المسلمين . وقد وردت الروايات بهذا وذاك فى سبب نزول الآية . وكلاهما يدخل فى عمومها . وكلاهما يقع من المنافقين .

ويأخذ القرآن كلام المنافقين ليجعل منه ردا عليهم بقوله : **(قل أذن خير لكم)** لا كما تزعمون ، فهو لا يقبل مما يسمعه إلا الحق وما وافق الشرع ، وما فيه الخير والمصلحة للخلق ، فهو يوافقهم على قولهم ، ثم يتبعه ما ينقضه عليهم حتى ينقض على رءوسهم ، كقوله تعالى فى سورة **« المنافقون »** وهم **« يقولون لئن رجعنا إلى المدينة لا يعلمون »(٣٨)** . فهم كانوا يعنون أنهم الأعزة ، ويعرضون بالرسول

---

(٣٧) الآية ٦١ من سورة التوبة .

(٣٨) الآية ٨ من سورة المنافقون .

- ﷺ - والمؤمنين به فقلب الله عليهم مرادهم على تقدير تسليم أصل القضية ، وهى إخراج الأعز للأذل بإثبات العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، والتعريض بأنهم هم الأذلون ، ولو شاء الرسول ﷺ لأخرجهم ، ولكنه لا يفعل الا إذا أظهروا كفرهم ، لأن قاعدة شريعته الحكم على الظواهر.

ومهما يكن حلم الرسول ﷺ ، ومهما تكن قوة احتماله فهو بشر يتألم كما يتألم البشر ، ويتأذى كما يتأذى البشر ، بل المفروض أن تكون النفوس الكبيرة أشد تأذيا ، وأعمق إحساسا بالاهانة والإذلال ، والقرآن يكشف ما يجول فى نفس الرسول ﷺ من إحساس بالألم والضيق، وما يحاول أن يكظمه ويخفيه عن الناس من هذا الإحساس فى مثل قوله تعالى : (**ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون**) (٣٩) .

وحتى يمحو القرآن أثر سخرية الأعداء واستهزائهم من نفس الرسول ﷺ به ، فانه يؤكد له أن هذه السخرية ليس مقصودا بها هو لذاته ، وإنما هى سنة اتبعها المشركون وأعداء الله عامة تجاه رسل الله أن يجعلوهم دائما موضع السخرية والاستهزاء . ولكن الأعداء يفاجئون بأن رسل الله فى النهاية هم المنصورون ، وأنهم هم الخاسرون.

كقوله تعالى : (ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون) (٤٠) .

بل يؤكد القرآن للرسول ﷺ أن الاستهزاء لم يوجه نحو رسل معينين ، أو إلى بعضهم دون بعض ، وإنما كان أسلوبا متبعا من

---

(٣٩) الآية ٩٧ من سورة الحجر .
(٤٠) الآية ١٠ من سورة الأنعام ، ٤١ من سورة الأنبياء .

الكافرين نحو جميع رسل الله على الاطلاق ، وبدون استثناء كقوله تعالى: **(وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون)(٤١) وقوله تعالى : (وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزءون)(٤٢) .**

٣ ـ السخرية والاستهزاء بالمؤمنين :

ولم تنته سخرية المنافقين واستهزاؤهم عند حد الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل كانوا يسخرون من المؤمنين ويستهزءون بهم كما فى قوله تعالى : **(وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون ـ الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون)(٤٣) .**

ومن سخرية المنافقين واستهزائهم بالمؤمنين أنهم كانوا يحتقرون أعمالهم ويقللون من شأنهم ، كما فى قوله تعالى : **(الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات ، والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم)(٤٤) .**

وجاء فى سبب نزول هذه الآية ما أخرجه ابن جرير عن عكرمة ـ بالفاظ مختلفة ـ قال : **حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدقة فى غزوة تبوك ، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف فقال : يارسول الله ، مالى ثمانية آلاف ، جئتك بنصفها وأمسكت نصفها ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت) وجاء أبو عقيل بصاع من تمر ، فقال : يارسول الله أصبت صاعين من تمر ،**

---

(٤١) الآية ١١ من سورة الحجر .
(٤٢) الآية ٧ من سورة الزخرف .
(٤٣) الآية ١٤ ، ١٥ من سورة البقرة .
(٤٤) الآية ٧٩ من سورة التوبة .

صاع أقرضته لله وصاع لعيالى . قال : فلمزوه وقالوا : ماالذى أعطى ابن عوف إلا رياء ، وقالوا ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا)(٤٥).

وقد جاء فى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى مسعود البدرى - رضى الله تعالى عنه - قال : لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل(٤٦) ، فجاء أبو عقيل بنصف صاع وجاء انسان بأكثر منه ، فقال المنافقون : إن الله لغنى عن صدقة هذا ، وما فعل هذا الآخر إلا رياء ، فنزلت (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم)(٤٧) الآية .

سخرية منافقى العصر الحديث واستهزاؤهم بالمؤمنين

وإذا كان القرآن الكريم قد بين سخرية المنافقين واستهزاءهم بدين الله تعالى وأتباعه قديما ، فان الدين الإسلامى اليوم هو موضع سخرية أعداء الله فى العالم كله ، بل موضع سخرية المنافقين من بين المسلمين أنفسهم ، وغالبيتهم من المثقفين الذين تغذت عقولهم مما يدسه أعداء الله من سموم فكرية حول الدين الإسلامى ، فأثمرت هذه السموم الحادا عميقا فى نفوسهم لا يستطيعون إعلانه ، لأنهم فى نظر المجتمع مسلمون ، فيحولونه بدورهم إلى سموم يبثونها من خلال ما يقدمونه فى ثوب ثقافى ، سواء إلى طلابهم ومر يديهم أو فى وسائل الإعلام المختلفة ،

---

(٤٥) جامع البيان فى تفسير القرآن ١٣٤/١٠/٦ - ١٣٧ .

(٤٦) أى يحمل بعضنا لبعض بالأجرة .

(٤٧) انظر : صحيح البخارى بشرح فتح البارى ، كتاب التفسير ١٨١/٨ الحديث ٤٦٦٨ وصحيح مسلم بشرح النووى ، كتاب الزكاة ، باب الحمل أجرة يتصدقَ بها ، والنهى الشديد عن تنقيص المتصدق بقليل ٩١/٤ الحديث ٢٣١٧ .

وهؤلاء المنافقون اليوم ليسوا قلة ، بل هم كثرة منتشرة بطريقة كأنها مدسوسة ومقدرة فى كل أنحاء الأمة الإسلامية . وبالذات فى مجال الثقافة والإعلام ، وهما أخطر مجالين للتوجيه الفكرى والنفسى .

وقد استخدم هؤلاء المنافقون للسخرية من الإسلام وأتباعه عدة شعارات يصوغونها فى صورة مصطلحات للسخرية من الذين يتمسكون بالدين ، وفى الوقت نفسه للتنفير من التمسك بالدين ، وهم حينما يصوغون مصطلحا يركزون كل وسائل الإعلام لإبرازه ، والتشهير بمن ينطبق عليه ، والسخرية الشديدة بمن يلصق به ، فاذا خبا بريق هذا المصطلح يكونون قد أبرزوا مصطلحا آخر ، ومن هذه المصطلحات ما يأتى :

١ ـ التعصب :

فقد انطلق دوى هذا المصطلح فى الحقبة الأولى من هذا القرن ، وجلجلت أصداؤه فى أنحاء المجتمع بتركيز شديد من وسائل الإعلام ، فى تصوير أن الذى يظهر أنه تشبث بالدين أو تمسك به ، أو الدفاع عنه ، فهو يستحق أن يوصف بهذا الوصف وهو التعصب الذى تصوره وسائل الإعلام فى صورة بالغة القبح والشذوذ . وكأن المتعصب شخص منطو على نفسه ، وعلى دينه ، شديد النفور بل الكراهية لكل الناس وكل الأديان.

ويجعل المنافقون من هذا الوصف كأنه قذيفة قاتلة اجتماعيا لمن توجه إليه ، إذ يترتب على ذلك أمور كثيرة : منها الحيلولة ـ غالبا ـ دون من يوصف بالتعصب والوصول إلى أى منصب أو ميزات أخرى . ليكون عبرة للمتمسكين بالدين ، وتنفيرا لكل راغب فى الاتجاه إلى

التمسك بعروة الإيمان الصحيح ، وذلك لأن المنافقين وأعداء الدين جماعات كثيرة ومنظمة يجمعها العداء للدين ، والشعور بأنهم يواجهون عدوا مشتركا وهو المؤمنون ، وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى فى قوله تعالى : (**المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض**)(٤٨) .

وبشىء من التأمل فى هذا المصطلح يكشف لنا مدى التضليل والتزييف فى دلالته التى يريدونها ، فان التعصب للدين بمعنى التمسك والتشبث به والدفاع عنه هو أمر من صلب الإيمان نفسه ، فلا يعد المرء مؤمنا بعقيدة أو بأى شىء إلا إذا كان متمسكا به ومستعدا للدفاع عنه ، والمؤمن الذى لا يتشبث بعقيدته ولا يدافع عنها لا يعد مؤمنا أصلا ، بل يعد مدعيا إدعاء كاذبا وخادعا ، وقد أشار إلى ذلك الحديث الذى رواه الإمام مسلم بسنده عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (**ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون ، وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون مالا يؤمرون . فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ،وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**)(٤٩) .

فالتمسك بالدين والدفاع عنه أمر من لوازم الإيمان ، والمنافقون وأعداء الدين يعرفون ذلك ويقرونه فى كل شىء إلا فى الدين . فهم حينما يتحدثون - مثلا - عن الوطنية يؤكدون بل ويبالغون فى أن

---

(٤٨) من الآية ٦٧ من سورة التوبة .

(٤٩) راجع صحيح مسلم بشرح النووى ، كتاب الإيمان ، باب كون النهى عن المنكر فى الإيمان ٥٦٥/١ الحديث ١٧٧ .

المواطن لابد أن يتشبث بانتمائه الوطنى ، وأن يدافع عن وطنيته بكل ما يملك ، بل حينما يتحدثون عن الموقف أو الرأى ، يؤكدون أن صاحب الموقف أو الرأى لابد أن يتمسك بموقفه أو رأيه ، ولابد أن يدافع عنهما، ويكون هذا هو الوضع الصحيح المحمود فى كل شىء - عندهم - إلا فى الدين ، فان التشبث به أو الدفاع عنه فى زعمهم الفاسد هو الشىء القبيح المذموم ، وهم ولا شك أعلم الناس بانهم فى هذا كاذبون مخادعون .

٢ - الرجعيـــة :

وحينما خبا بريق مصطلح (التعصب) أبرز المنافقون وأعداء الدين مصطلحا آخر فى الحقبة الثانية من هذا القرن وهو اصطلاح (الرجعية) ليكون سلاحا للسخرية أشد إيلاما وأوسع شمولا ، ويصوب ليس نحو المتمسكين بالدين فحسب ، وإنما أيضا نحو كل من يهتم بالتراث الإسلامى ، أو يحاول إحياءه أو الدعوة إليه ، أو يرى فى الماضى كله ما يستحق أن يرجع إليه ، أو ينظر إليه ، سواء كان ماضيا دينيا أو علميا ، ولكن هذا الخطر فى الرجوع إلى الماضى ينتهى عند ماضى الإسلام الدينى والعلمى والحضارى .

أما إذا تجاوز الرجوع فى ذلك إلى الإيغال فى الماضى البعيد ، كالرجوع إلى ماضى الفراعنة أو الإغريق ، أو أى أمة أخرى غير الإسلام، فانه رجوع حسن مفيد ، بل هو رجوع عظيم النفع والعون على التقدم الحضارى والعلمى ، فان العثور على حجر أثرى ، أو كلمة هيروغليفية فرعونية ، أو جملة تنسب لمفكر إغريقى مهما تكن دلالتها أو قيمتها صغيرة أو كبيرة ، فانها فى رأيهم تدفع البشرية درجة أو درجات فى

سلم الحضارة والترقى ، أما العيب كل العيب فى رأيهم ، والجهل كل الجهل والسفه كل السفه ، فهو لمن ينظر إلى أى شيء من ماضى الإسلام أو ما يتعلق به ويتصل بحضارته ، سواء من اللغة ، أو العلم ، أو النهضة المعمارية أو الفنية ، أو أى شيء يرتبط بالإسلام وتاريخه من قريب أو بعيد .

٣ - التنوير :

وحين خبا أيضا بريق مصطلح (الرجعية) أبرزوا فى الآونة الأخيرة مصطلحا آخر ، هو مصطلح (التنوير) بمعنى الإنارة والإضاءة، وهم يعنون به أن عقول الشعب تحتاج إلى إنارة وإضاءة لإزالة الظلام الذى خيم عليها ، والمصدر الوحيد فى رأيهم لهذا الظلام هو الإسلام، الذى يرونه محض خرفات وأساطير ، وهذه الخرفات والأساطير التى أفسدت تفكير الشعب وأظلمت عقوله ، فهى فى حاجة إلى (تنوير) وهم الذين هيأهم الله تعالى لينيروا عقوله كما يزعمون فى أنهم هم الذين يحملون أمانة (التنوير) ومسئوليته .

وقد قامت أيضا وسائل الإعلام بحشد أبواقها وألسنتها وأقلامها وسائر وسائلها فى إبراز (التنوير) ومحاولة جعله هو القضية القومية التى يجب أن تحشد لها كل الامكانات ، وتتقدم على غيرها من القضايا، وقد رأينا دوى حملة (التنوير) فى أرجاء المجتمع كله .

فهذه المعارض الثقافية العامة التى تخصص كل ندواتها الثقافية اليومية لتكون تحت شعار (التنوير) إضافة إلى ما يتوالى من ندوات ومحافل ثقافية ، ومقالات عديدة متتالية فى هذا الموضوع ، وهذه هى الجامعات سواء فى القاهرة أو الأقاليم تتخذ من ذكرى طه حسين مناسبة

أو ستارا لحملة (التنوير) بشعار أن طه حسين هو قائد (التنوير) أو هو من أبرز قادته ، حيث كان من أشد أئمة التنوير تلميحا وتصريحا بأهداف دعاته(٥٠) .

ومن أمثله ذلك نقده للقرآن الكريم فى محاضراته وكتبه ، إذ قال لطلابه : (وصلنا فى المحاضرة الماضية إلى موضوع اختلاف الأساليب فى القرآن ، وقررنا أنه ليس على نسق واحد ، واليوم نوضح هذه الفكرة فنقول : لا شك أن الباحث الناقد ، والمفكر الجرىء الذى لا يفرق فى نقده بين القرآن وأى كتاب أدبى آخر ، والمفكر الجرىء الذى لا يفرق فى متعارضين لا تربط الأول بالثانى صلة ولا علاقة ، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة ، أو تأثر ببيئات متباينة . فمثلا القسم المكى منه يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة ، كما نشاهد أن القسم المدنى أو اليثربى تلوح عليه أمارة الثقافة والاستنارة(٥١) !! وذلك ، لأن محمدا تأثر بالبيئة التى كان يعيش فيها ، وهذا إيحاء منه بأن القرآن الكريم من عند محمد - ﷺ - وليس من عند الله تعالى !!

ومن أمثلة ذلك أيضا أنه يتحدث عن سيرة النبى ﷺ بوصفه رسول الإسلام ، فيصرح بما مضمونه أن ذلك كله ليس إلا خرفات وأساطير أراد

---

(٥٠) انظر : التصوير الساخر فى القرآن الكريم ٦٠ - ٦٤ بتصرف شديد .

(٥١) انظر : كتاب (نقض مطاعن فى القرآن الكريم) بقلم محمد أحمد عرفه : ص ٤ ، ٥ طبعة مكتبة الزهراء بالقاهرة ، الثانية ١٩٨٦ م .

أن يسلى بها عواطف الناس ووجدانهم ، وذلك فى مقدمة كتابه (على هامش السيرة) .

ومن المعروف أن طه حسين ظل طوال حياته يعلن عداوته البالغة للأزهر ، ويطالب علانية بإلغاء التعليم الدينى الذى يمثله الأزهر ، وقد كتب فى ذلك مقالا مشهورا بعنوان : (الخطوة الثانية) ومضمونه أنه حيث نجحت الثورة فى إلغاء القضاء الشرعى ، فعليها الخطوة الثانية، وهى الغاء التعليم الدينى ، وهكذا ، فهو إذن جدير بأن يحتفل دعاة (التنوير) بذكراه ، وأن يجعلوه إماما لدعوتهم إلى إنارة العقول من خرافات الإسلام التى ملأت العقول ظلاما كما يزعمون ، وأن يوجهوا الشباب إلى قراءة كتبه إذا أرادوا أن يعرفوا الإسلام الصحيح . أى والله هكذا قالوا(٥٢) :

٤ - التطرف الدينى :

وهو مصطلح ظهر منذ وقت قريب على ألسنة الناس ، وفى وسائل الإعلام ، وقد جندوا لتأكيده وإلصاقه بالشباب المسلم المتدين الكثير من الكتاب والصحفيين والدبلوماسيين والسياسيين ، ولا يخرج فى حقيقته عن أن يكون من صنع أعداء الإسلام الذين يعمدون إلى بعض المظاهر الشاذة فيضعونها تحت المجاهر ، يوجهون إليها الأنظار ، ويغرون بها الحكام والمنفذين ، وكثيرا ما استخدم هذا المصطلح ، ولا يزال يستخدم بهدف إيجاد حالة من الرعب والإرهاب الفكرى لشل حركة الدعوة إلى الله تعالى ، والتشكيك بوسائلها ، وإحاطتها بجو من الإرهاب لتحنيطها

---

(٥٢) انظر : جريدة (أخبار اليوم) بتاريخ ١٩٩٢/١٠/١٧ ص ٨ . مقال : للصحفى عبد الستار الطويلة .

وتعطيل مسارها ، والدعوة الإسلامية تخضع لمعايير منضبطة ووسائل مشروعة من الله عز وجل لا يد للإنسان فيها ٠

والأمر الملفت للنظر أن هذا الاصطلاح استعمل أول ما استعمل فى (اسرائيل) عندما بدأ الشباب المسلم فى الأرض المحتلة يعى ذاتـه ، ويتعرف إلى طريقه بعد أن أخفقت التجمعات كلها ، وعجزت الشعارات جميعها عن أن تقدم شيئا للقضية الفلسطينية ٠

هذه الشعارات التى لم تخرج فى حقيقتها عن أن تكون وسيلة من وسائل يهود لامتصاص النقمة ، وتنفيس الطاقات للحيلولة دون انفجارها، والتسلل من خلالها إلى العالم الإسلامى ، من هنا بدأت توجهات الشباب من جديد لتلمس الشخصية الحضارية للأمة والعودة إلى الإسلام ٠٠ درع وقايته ، وعدة كفاحه ، والاحتماء بالمسجد حصن ثقافته ٠

ولم تخف اسرائيل خوفها وتخويفها من عودة المتطرفين المسلمين وخطورة ذلك على كيانها ، والعمل بكل وسيلة للقضاء على الصـوت الإسلامى فى كل مكان (٥٣) ٠

وركب موجة اليهـود منافقو العصـر الحديث وأعـداء الإسـلام وخصومه ، وصاروا يرجمون شـباب الإسـلام فى بلادهـم بالتطرف ، لتحريض الحكام عليهم والقضاء على الصحوة الإسلامية التى تثير الخوف والرعب فى قلوبهم ، حتى أصبحت السلطة الحاكمة فى البلاد الإسلامية تعتبر الحركة الإسلامية خصمها الأول ، وعدوها اللدود ، وقد تتقارب

---

(٥٣) انظر : مقدمة كتاب (الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ٧ ، ٨ للدكتور : يوسف القرضاوى ، طبعة كتاب الأمة ٠

أو تتحالف مع اليمين أو اليسار ، ولكنها لا تتحالف مع الحركة الإسلامية بحال ، قد تهادنها مرحليا ، أو تحاول الصعود على اكتافها ، أو ضرب خصومها العقائديين أو السياسيين بها ، لتضربها بعد ذلك بهم ، وتورطها في معركة لا ناقة لها فيها ولا جمل ، ثم سرعان ما تقلب لها ظهر المجن ، وتجد الآخرين أقرب إليها منها في الغاية والوسيلة ، وصدق الله إذ يقول : (**وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، والله ولي المتقين**)(٥٤) .

والعجب أن هؤلاء المنافقين ينكرون على الشباب المسلم التطرف، ولا ينكرون على أنفسهم التسيب والإفراط في المجون وارتكاب المنكرات، ينكرون على الشباب الإفراط ، ولا ينكرون على أنفسهم التفريط . إنهم يطالبون الشباب بالاعتدال والحكمة ، والعدول عن التطرف والتشدد ، ولا يطالبون أنفسهم أن تتطهر من النفاق ، وألسنتهم من الكذب ، وحياتهم من الغش وأعمالهم من التناقض !!

يجب أن يعلم هؤلاء أن أعمالهم وتصرفاتهم هي التي دفعت الشباب إلى ما يسمونه بـ (التطرف) لأنهم يدعون الإسلام ولا يعملون به ، ويقرأون القرآن ولا يطبقون أحكامه ، ويزعمون حب الرسول ﷺ ولا يتبعون سنته ، ويسجلون في دساتير البلاد أن دين الدولة هو الإسلام، ولكنهم لا يعطونه حقه في الحكم والتشريع والتوجيه .

وسبب آخر أن الشباب يرى المنكر يستعلن ، والفساد يستشري، والباطل يتبجح ، والعلمانية تتحدث بملء فيها ، والماركسية تدعو

---

(٥٤) الآية ١٩ من سورة الجاثية .

إلى نفسها بلا خجل ، والصليبية تخطط وتعمل بلا وجل ، وأجهزة الإعلام تشيع الفاحشة ، وتنشر السوء . يرى النساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات، ويرى الخمر تشرب جهارا نهارا، وأندية الفساد تجعل الليل نهارا . يرى المتاجرة بالغرائز على أشدها ، من أدب مكشوف، وأغان خليعة ، وصور فاجرة ، وأفلام داعرة ، وتمثيليات ومسرحيات و و و .. كلها تصب فى نهر الإغراء بالفسوق والعصيان ، والتعويق عن الإسلام والايمان .

يرى الشباب هذا فى ديار الإسلام ، ويرى معها التشريع الذى يجب أن يعبر عن عقائد الأمة وقيمها فى صورة قوانين تحرس معنويات الأمة ، وتعاقب من يجترىء على حماها .. هذا التشريع للأسف يبارك المنكر ، ويؤيد الفساد ، لأنه لم ينبع مما أنزل الله ، بل مما وضع الناس ، فلا عجب أن يحل ما حرم الله ، ويحرم ما أحل الله ، ويسقط فرائض الله ، ويعطل حدود الله .

ثم يرى الحكام الذين حملهم الله المسؤولية عن شعوبهم المسلمة يسيرون فى واد غير وادى الإسلام ، يوالون من عادى الله ، ويعادون من والى الله ، ويقربون إليهم من بعد الله ، ويبعدون من قرب الله ، ويقدمون من أخر الإسلام ، ويؤخرون من قدمه ، ولا يذكرون الإسلام إلا فى الأعياد والمناسبات ، تمويها على شعوبهم ، وضحكا على لحاهم !!

ومن ناحية أخرى ، يرى الظلم الاجتماعى البين ، والتفاوت الطبقى الفاحش ، أفراد يلعبون بالملايين ، وجماهير لا يجدون الملاليم ، قصور تشاد وتنفق عليها عشرات الملايين ، وربما لا تسكن فى السنة إلا أياما معدودات ، على حين يموت ملايين فى العراء ،

لا يجدون ما يحميهم من حر الصيف ولا برد الشتاء ، ويرى الشباب غير ذلك الكثير والكثير !! ويقولون : انه متطرف !! سبحانك هذا بهتان عظيم !!

وكان أولى بهؤلاء أن يسكتوا ، أو يتكلموا بالحق والعدل ، والنظر إلى هذا التطرف نظرة واقعية معتدلة .

فكثيرا ما يكون التطرف فى الدين رد فعل لتطرف مناقض : تطرف فى التحلل من الدين والإزراء عليه ، والسخرية به ، وهنا يكون هذا اللون من التطرف أمرا طبعيا ، لأنه مساير لقوانين الفعل ورد الفعل.. وهو جدير بأن ينبه أولئك الشاردين للرجوع إلى الوسط المعتدل ، وبالتالى يعود هؤلاء ليلتقوا مع أولئك فى منتصف الطريق .

ومعنى هذا أن الحياة نفسها كثيرا ما تحتاج إلى قدر من التطرف، لنقاوم به تطرفا آخر مضادا له ، حتى تعتدل كفتا الميزان بين المتشددين والمتسيبين ، ولا يفل الحديد إلا الحديد ، وهذا ما توجبه سنة التدافع بين الناس . قال تعالى : (**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين**)(٥٥) .

والعجيب أن المتطرفين فى جانب التحلل من قيود الدين ، والمجافاة لقيمه وفضائله لا يلقون من الانكار والمعارضة ما يلقاه المتطرفون فى جانب التمسك بالدين والولاء له ، وكان المفروض أن ينكر التطرف بشقيه .

فهل من الإنصاف أن ننحى باللائمة ، ونصب جام غضبنا على الشباب الذى يعيش للإسلام وبه ، محافظا على الصلوات ، هاجرا

---

(٥٥) الآية ٢٥١ من سورة البقرة .

المنكرات ، محصنا فرجه ، غاضا بصره ، حافظا لسانه ، يتحرى الحلال، ويتوقى الحرام ، حريصا على كل ما يعتقد أنه من أدب الإسلام ، من لحية يطيلها ، وثوب يقصره ، وسواك يراه مطهرة للفم ، مرضاة للرب، صائنا لوقته من اللغو ، وماله من الإضاعة فيما لا يفيد ، حتى السيجارة لا يتناولها .. ننكر على هذا الشاب الناشىء فى طاعة الله مهما يكن متشددا أو متزمتا .. على حين نسكت عن الشباب الذين أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات ، من المائعين الذائبين الذين لا تكاد تميز الفتى فيهم عن الفتاة ، الذين لا يعرفون معروفا ، ولا ينكرون منكرا ، ممن فقدوا أصالتهم ، ومشوا وراء الغرب ، فكرا وسلوكا ، حذو النعل بالنعل !!

هل من الإنصاف أن يتعالى الصراخ ويشتد النكير على ما سمى (**التطرف الدينى**) وأن يلوذ الجميع بالصمت تجاه (**التطرف اللا دينى**) ؟!!

هل من الإنصاف أن ننكر على الفتاة التى تلبس النقاب على وجهها ، ونسخر منها ومن زيها ، وهى لم تفعل ذلك إلا إرضاء لربها، واتباعا لدينها ، حسبما فهمت أو أفهمت ، على حين نرى الصنف الآخر من الفتيات مائلات مميلات ، كاسيات عاريات ، بل عاريات غير كاسيات !! فى الشوارع وعلى الشواطىء ، أو فى الأفلام والمسلسلات ، ولا يحرك أحد ساكنا ، ولا ينبس ببنت شفة ، لأن هذا من (**الحرية الشخصية**) التى كفلها الدستور !! فهل حفظ الدستور الحرية الشخصية فى جانب العرى والابتذال ، وصادرها فى جانب التصون والاحتشام ؟! (**سبحانك هذا بهتان عظيم**) .

ولو أن المجتمع وقف موقفا إيجابيا من المتنكرين للدين والمتحللين من أحكامه ، وغير ما يراه من منكر بيده أو بلسانه ، **ما وجدت عندنا ظاهرة التطرف فى الدين ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .**

رابعا : الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف

الأصل فى معنى المعروف أنه اسم لكل خير ، والمنكر اسم لكل أمر قبيح (٥٦) .

قال الراغب : المعروف اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو الشرع حسنه ، ولهذا قيل للاقتصاد فى الجود معروف لما كان ذلك مستحسنا فى العقول وبالشرع نحو : (**ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف**) (٥٧) .

والمنكر : كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه ، أو تتوقف فى استقباحه واستحسانه العقول فتحكم بقبحه الشريعة (٥٨) .

إذن : فالمعروف لغة : ما تعارف عليه الناس وألفته النفوس ، وكان غير مستغرب لدى الطبع السليم ، وأدرك إلى درجة الشهرة .

والمعروف شرعا : هو ما عرف من دين الله تعالى من أمور حسنة مفروضة ـ كانت ـ أو مسنونة ، أو مستحبة . **والمنكر** : ضد المعروف ، فهو ما تنكره النفوس ، وينكره الشرع محرما ـ كان ـ أو مكروها ، ويغضب الله تعالى (٥٩) .

قال ابن منظور : والمعروف اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه ، والإحسان إلى الناس ، وكل ما ندب إليه الشرع ونهى

---

(٥٦) انظر : المصباح المنير فى مادة عرف ونكر ، وتاج العروس فصل النون من باب الراء .

(٥٧) من الآية ٦ من سورة النساء .

(٥٨) المفردات فى غريب القرآن له ص ٣٣٢ ، ٥٠٥ .

(٥٩) انظر : موقف القرآن من العلماء ص ٢١٩ رسالة (ماجستير) للمؤلف بكلية أصول الدين بالقاهرة .

عنه من المحسنات والمقبحات ، وهو من الصفات الغالبة ، أى أمر معروف بين الناس لا ينكرونه .. والمنكر : ضد المعروف ، وهو كل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه فهو منكر .

وإذا كان الرسول ﷺ بين أنه لا إيمان لمن لا ينكر المنكر بصورة من الصور ، ولا يجاهد أهل المنكر بأى نوع من الجهاد ، لما رواه مسلم بسنده عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)(٦٠) .

وما رواه مسلم ـ بسنده عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال (ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون ، وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)(٦١) .

فان المنافقين لم يقفوا عند عدم انكار المنكر فحسب ، وإنما وصفهم القرآن بأنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف كما جاء فى قوله تعالى: (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن

---

(٦٠) راجع تخريج الحديث ص ١٥٩ من هذا الكتاب .

(٦١) راجع تخريج الحديث ص ١٦٦ من هذا الكتاب .

المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون)(٦٢)

ومن المنكر الذى يأمرون به : الكذب والخيانة وإخلاف الوعود ، ونقض العهود ، والفجور وغير ذلك .

ومن المعروف الذى ينهون عنه : الجهاد فى سبيل الله ،وتثبيط المؤمنين عن القتال، كما فى قوله تعالى : **(فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لاتنفروا فى الحر ..)**(٦٣) وقوله تعالى : **(وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ..)(٦٤) .**

ومن المعروف الذى ينهون عنه أيضا انفاق المال فى سبيل الله للقتال وغير القتال ، كقولهم الذى ذكر فى سورتهم : **(هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون)(٦٥) .**

وإذا كان الله تعالى قد لعن كفار بنى اسرائيل على لسان رسله ، لأنهم لايتناهون عن المنكر فيما بينهم ، كما جاء فى قوله تعالى : **(لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون)(٦٦) .**

---

(٦٢) الآية ٦٧ من سورة التوبة .
(٦٣) الآ ٨١ من سورة التوبة .
(٦٤) الآية ١٣ من سورة الأحزاب .
(٦٥) الآية ٧ من سورة المنافقون .
(٦٦) الآية ٧٨ ، ٧٩ من سورة المائدة .

فان المنافقين أشد منهم جـرما وأعظم قبحا ، لأنهم لا يتوقفون عند عدم انكار المنكر ، وإنما يأمرون الناس به ، وينهون عن المعروف. وذلك لأنهم خارجون عن دين الله تعالى وطاعته ، وعن كل طبع سليم وخلق قويم ، فأصبحوا لا يأمرون إلا بالمعاصى وكل ما هو قبيـح فى الشرع والطبع السليم ، وينهون عما عرف حسنه من الإيمان والطاعة ، فهم كالذباب لا يعيش إلا على المستقذر من الأشياء !!

وإذا وجد النفاق فى مجتمع وشاع فيه المنكر بكل صنوفه وألوانه، وحل الخوف بدلا من الأمان ، وساد الاضطراب بدلا من الاستقرار ، ولم يجد من يقاومه،كان فى ذلك هلاك المجتمع،وفساد حاله،لأن المنكرات بطبيعتها تأخذ بالناس عن طريق الخير إلى طـريق الشر ، وتسـلبهم تقدير القيم الكريمة التى يسوسون بها أنفسهم ، ويشيدون على أسـاس منها صروح عزتهم .

ولقد صور لنا رسول الله ﷺ تلك العاقبة فى حديثه الشريف الذى رواه البخارى فى صحيحه بسنده المتصل عن النعمان بن بشير - رضى الله تعالى عنه - تصويرا عمليا حيث قال : (**مثل القائم على حـدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ، ولم نؤذ من فوقنا، فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجـوا ونجوا جميعا**) (٦٧) .

---

(٦٧) الحديث : أخرجه البخارى فى كتاب الشركة ، باب (هل يقرع فى القسمة) ١٥٧/٥ ، وكتاب الشهادة ، باب (القرعـة فى المشكلات) ص ٣٤٦ من كتاب فتح البارى بشرح صحيح البخارى، وانظر : صـحيح الترمـذى بشرح ابن العـربى ١٩/٩ ورياض الصالحين ص ٧٦ .

فانظر كيف بين الرسول ﷺ فى هذا المثل أن هلاك المجتمع إنما هو نتيجة محتومة لترك أصحاب المنكر والفساد يعيثون فى الأرض فسادا ، وعدم الأخذ على أيديهم . وإن كان المنكر قد يرى فى أول الأمر هينا يسيرا ، كالخرق فى السفينة ، فان ترك مع يسره وعدم اتساعه، فشا فى المجتمع المسلم وازداد حتى يؤول فى آخر المطاف إلى بلاء عظيم ، وقد يؤدى إلى القضاء عليه ، وهذه سنة من سنن الله تعالى أشار إليها فى قوله تعالى : **(واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ..)(٦٨) . وقوله تعالى : (ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون)(٦٩) .**

وأشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه **البخارى بسنده عن زينب بنت جحش رضى الله تعالى عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا يقول : (لا إله إلا الله : ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحلق بين أصبعيه الإبهام والتى تليها ، فقلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟! قال : نعم إذا كثر الخبث)(٧٠) .**

نعم : بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تشيع الفاحشة وسط المجتمع ، وتنتشر الرذيلة فيه انتشار النار فى الهشيم ، وبذلك يعانى

---

(٦٨) الآية ٢٥ من سورة الأنفال .

(٦٩) الآية ٤١ من سورة الروم .

(٧٠) انظر : صحيح البخارى بشرح فتح البارى ، كتاب الفتن ، باب قول النبى ﷺ : ويل للعرب من شر قد اقترب ١٤/١٣ الحديث ٧٠٥٩ .

كثير من الأزمات فى كل مجالات الحياة من سياسة ، واقتصاد ، وتعليم، وصحة ، وغير ذلك فضلا عن الأخلاق ٠

وذلك لأن الفساد حينئذ لا يجد من يقاومه ، والظلم لا يجد من يقف فى وجهه ويضع له حدا ٠ فينطلق أهل الظلم والفساد يعربدون، ويخربون ، ويستعبدون دون أدنى مبالاة ٠

يقول الغزالى ـ رحمه الله تعالى ـ إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو القطب الأعظم فى الدين ، وهو المهم الذى ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوى بساطه ، وأهمل عمله وعلمه ، لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمت الفتنة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، واتسع الخرق ، وخربت البلاد ، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد ، وقد كان الذى خفنا أن يكون وإنا لله وإنا إليه راجعون(٧١) ٠

ولما كان الأمر كذلك ، وكان للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الأثر الفعال فى حياة الأمم والأفراد ، وتقدم المجتمعات وانحطاطها، جعل الله تعالى القيام بهما أمرا واجبا على الأمة الإسلامية خصوصا القادرين فيها ٠ حيث قال تعالى : (**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**)(٧٢) ٠ وقوله تعالى (**الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور**)(٧٣) ٠

---

(٧١) انظر : إحياء علوم الدين له ١١٨٦/٧ ٠
(٧٢) الآية ١٠٤ من سورة آل عمران ٠
(٧٣) الآية ٤١ من سورة الحج ٠

والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - من ثم - تكليف ليس بالهين ولا باليسير ، إذا نظرنا إلى طبيعته ، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم ، ومصالح بعضهم ومنافعهم ، وغرور بعضهم وكبريائهم . وفيهم الجبار الغاشم ، وفيهم الحاكم المتسلط ، وفيهم الهابط الذى يكره الصعود ، وفيهم المسترخى الذى يكره الاشتداد ، وفيهم الذى يكره الجد ، وفيهم الظالم الذى يكره العدل ، وفيهم المنحرف الذى يكره الاستقامة ، وفيهم المنافق الذى يكره المعروف ويحب المنكر .

ومن هنا يصبح من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فى مجتمع هذا حال أفراده فضوليا . فقد روى أبو بكر الخلال عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال : يأتى على الناس زمان يكون المؤمن فيه بينهم مثل الجيفة !! ويكون المنافق يشار إليه بالأصابع ، قيل : وكيف يشار إلى المنافق بالأصابع ؟ فقال : صيروا أمر الله فضولا : المؤمن إذا رأى أمرا بالمعروف أو نهيا عن المنكر لم يصبر حتى يأمر وينهى ، فيقولون : هذا فضول . والمنافق كل شىء يراه قال بيده على فمه(٧٤) ، فيقولون : نعم الرجل ليس بينه وبين الفضول عمل(٧٥) .

وعندما يغدو حال المجتمع الإسلامى كما وصفه الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - تتبدل القيم ، وتنتكس النظرة الإنسانية إلى الأمور،

---

(٧٤) أى أغلق فمه فلم ينه عن منكر ولم يأمر بمعروف .

(٧٥) انظر كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ص ١١٢ لأبى بكر أحمد بن محمد هارون الخلال دراسة وتحقيق : عبد القادر أحمد عطا طبعة دار الاعتصام الأولى ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م .

فيصير الآمر بالمعروف والناهى عن المنكرفضوليا، والمنافق المداهن مهذبا ومؤدبا، فيؤول الأمرإلى انتشارالمعاصى، والمعاصى كما قال بعض علما السلف بريد الكفر(٧٦)، فاذا كثرت ولم يجد العصاة من يحد من فسوقهم عن أمرالله عزوجل، كثر بالتالى المرتدون عن دين الله تعالى، والداخلون فى ولاية الشيطان والكفار، إلى أن ترجع الحال إلى ما كانت عليه فى الجاهلية الأولى ، فيعطل شرع الله ، ويتخذ ظهريا ، ويهجر كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وتتحكم الأهواء فى العباد ، ويكون ذلك كله ثمرة التقاعس عن فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر !!

ولا يمكن لمجتمع أن يصطلح أفراده على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فضول وتعد على حريات الآخرين ، ويحاسب ويجازى بالشر كل مسلم يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر - بحجة التعدى على حريات الآخرين - ويكافىء كل فاسق يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف ، ويثنى عليه بكل هالات المدح والثناء،إلا إذا كان مجتمعا قد ساد فيه النفاق ، وفسدت الفطرة السوية عند الكثيرين من أفراده ، ووجد دعما ماديا ومعنويا من حكامه !! وصدق الله العظيم إذ يقول : (**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**)(٧٧) .

* * *

---

(٧٦) انظر : كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيثمي ١٢/١ طبعة المطبعة المصرية ببولاق . والجهاد ص ١٤١ .

(٧٧) الآية ٦٣ من سورة النور .

خامساً : إشاعة الفاحشة فى للمؤمنين

لما كان من صفات المنافقين أنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، فانهم يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ، لأنهم كالذباب لا يعيش إلا على المستقذر من الأشياء !!

ومن أخطر ما أشاعه المنافقون من الفاحشة فى المؤمنين ما رموا به السيدة الطاهرة عائشة بنت أبى بكر الصديق ، وزوج النبى ﷺ ، وقد نزل فى ذلك عشر آيات برأ الله تعالى فيها عرضها وعرض أهلها ، وصان كرامة رسول الله ﷺ .

فقال تعالى : (**إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بانفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين . لولا جاءوا عليه باربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فى ما أفضتم فيه عذاب عظيم . إذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بافواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب اليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وانتم لا تعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم**)(١) .

نزلت هذه الآيات لبيان براءة أم المؤمنين عائشة - رضى الله تعالى عنها - من هذه الفرية النكراء التى نشأت عن أمر برىء حدث فى غزوة (بنى المصطلق) ، فاستغله المنافقون أعداء الإسلام أسوأ استغلال .

لأنهم يستهدفون من وراء هذا الأسلوب الحقير تلطيخ الصورة النظيفة الطاهرة لمجتمع الإيمان ، ليصدوا الناس عنه ، وليستروا على فواحشهم ودنسهم ، واختلاقا لبواعث الفتنة بين المؤمنين ، وبذر بذور الشك فى نفوسهم ، وإضعاف رابطة الأخوة بينهم ، وقد عرفت فيما تقدم أن الفساد فى الأرض هو من خصائصهم اللاصقة بهم .

والذى تولى كبر هذه الفرية وقاد حملتها ، واضطلع منها بالنصيب الأوفى ، كان هو عبد الله بن أبى بن سلول رأس النفاق ، وحامل لواء الكيد . ولقد عرف كيف يختار مقتلا ، لولا أن الله من ورائه محيط ، وكان لدينه حافظا ، ولرسوله عاصما ، وللجماعة المسلمة راعيا ..

ولقد روى أنه لما مر صفوان بن المعطل بهودج أم المؤمنين وابن أبى بن سلول فى ملأ من قومه قال : من هذه ؟ فقالوا : عائشة رضى الله تعالى عنها .. فقال : والله ما نجت منه ولا نجا منها . وقال امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ، ثم جاء يقودها !!

هكذا افترى زعيم المنافقين على عرض رسول الله ﷺ ، فرمى أحب نسائه إلى قلبه ، وبنت أحب أصحابه إليه بالإفك ، واتهم صحابيا كريما بهذه التهمة النكراء ، وماجت المدينة شهرا كاملا بالفتنة ، وانتقل الحديث من لسان إلى لسان ، ومن بيت إلى بيت حتى وصل خبره إلى الرسول ﷺ ، وعلم به أبو بكر ، ثم عرفته أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها .

أما الرسول ﷺ فقد آذاه أن يطعن فى عرضه ، وأن تروج مثل هذه الفرية بين المسلمين ، كما آذاه تأخر الوحى شهرا لا ينزل بفصل الخطاب ، وأراد أن يجعل لذلك حدا . فصعد المنبر وقال : « من **يعذرنى فى رجل بلغنى أذاه فى أهلى** » فكادت أن تقع فتنة بين يديه فى المسجد .

وأما أبو بكر فقد أتعبه الألم وحز فى نفسه المصاب ، فهى طعنة موجهة لنبيه وحبيبه وقائده ، وموجهة لعرضه وشرفه ، وموجهة للدعوة الإسلامية والمسلمين ، ويعجب من ذلك فيقول : « **والله ما رمينا - أى اتهمنا - بهذا فى الجاهلية ، أفنرمى به فى الإسلام** » ؟!!

وأما عائشة فما أن علمت بهذا الحديث حتى تعجب له وتتساءل، سبحان الله !! **ولقد تحدث الناس بهذا ؟!! وقد علم به رسول الله ؟! وقد علم به أبى ؟!! ثم يغشى عليها وتعاودها الحمى .**

وأما صفوان بن المعطل ، فحين فوجىء بهذا الاتهام الدنىء فقد صوابه ، حتى إنه لما سمع أن حسان بن ثابت يروج هذا الحديث ذهب إليه وعلاه بالسيف حتى كادت الضربة تودى به (٧٨) .

كل ذلك بسبب هذه القولة الخبيثة التى راح يذيعها عبد الله بن أبى - عن طريق عصبة النفاق - بوسائل ملتوية . بلغ من خبثها أن تموج المدينة بهذه الفرية التى لا تصدق ، والتى تكذبها القرائن

---

(٧٨) راجع الحديث بنصه كاملا فى البخارى تفسير سورة النور : ١٢٧/٦ - ١٣٢ . ومسلم كتاب التوبة ، باب « فى حديث الإفك وقبول توبة القاذف : ١١٢/٨ - ١١٨ ، وتفسير ابن كثير : ١٨/٦ - ٢٤ ، ومسند الإمام أحمد : ١٩٤/٦ - ١٩٧ .

كلهـا . وأن تلوكها ألسنة بعض المسلمين غير متحرجين . وأن تصبح موضوع حديثهم شهرا كاملا . وهى الفـرية الجديرة بأن تنفى وتستبعد للوهـلة الأولى .

وإن الإنسـان ليدهش - حتى اليوم - كيف أمكن أن تروج فـرية ساقطة كهذه فى جو الجماعة المسلمـة حينذاك . وأن تحـدث آثارها الضخمة السيئة فى جسم الجماعة ، وتسبب تلك الآلام القاسية لأطهـر النفوس وأكبرها على الاطـلاق !!

ولو استشـار كل مسلم قلبـه يومها لأفتـاه ، ولو عاد إلى منطق الفطـرة لهداه ، والقـرآن الكريم يوجه المسلمـين إلى هذا المنهج فى مواجهـة الأمـور ، بوصفه أول خطوة فى الحكم عليهـا ، حيث قال تعـالى : (**لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنـون والمؤمنـات بأنفسهم خيرا ، وقالوا هـذا إفـك مبـين**) .

نعم كان هذا هو الأولى .. أن يظن المؤمنون والمؤمنـات بأنفسهم خيرا ، وأن يستبعدوا سقوط أنفسهم فى مثـل هذه الحماة .. وامـرأة نبيهم الطاهرة وأخوهم الصحابى المجاهد هما من أنفسهم . فظن الخير بهما أولى ، فإن ما لا يليق بهم لا يليق بزوج رسول الله - ﷺ - ولا يليق بصاحبه الذى لم يعلم عنه إلا خيرا ..

ولقد فعـل ذلك أبو أيوب خالد بن زيد الأنصـارى وامـرأته - رضى الله تعـالى عنهما - كما روى الإمام محمد بن اسحاق : أن أبا أيوب خالد بن زيد ، قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة - رضى الله عنها؟ - قال : نعم . وذلك الكذب، أكنت

فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قلت : لا والله ما كنت لأفعله . قال : فعائشة والله خير منك(٧٩) .

ونقل الزمخشرى فى تفسيره : « الكشاف » أن أبا أيوب الأنصارى قال لأم أيوب : ألا ترين ما يقال ؟ فقالت : لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله - ﷺ سوءا ؟ قال : لا . قالت : ولو كنت أنا بدل عائشة - رضى الله تعالى عنها - ما خنت رسول الله - ﷺ - فعائشة خير منى ، وصفوان خير منك(٨٠) .

ومثل ذلك قال غيرهم ، وحق لهم أن يقولوا ذلك ، فانه لا يجوز عقلا أن يختار الله لرسوله امرأة فاجرة ، فان ذلك ينفر عنه أتباعه ، ويخل بحكمة البعثة . ولكن أصحاب القلوب المريضة الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الجماعة المؤمنة لزعزعة ثقتهم فى الخير والعفة والنظافة ، ولإزالة التحرج من ارتكاب الفاحشة ، وذلك عن طريق الإيحاء بأن الفاحشة شائعة فيها .. وبذلك تشيع الفاحشة فى النفوس ، لتشيع بعد ذلك فى الواقع .

وهؤلاء الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الجماعة المؤمنة يعيشون فى كل زمان ومكان ، فهم الذين يقدمون « الفن العارى » وهم الذين يكتبون « الأدب المكشوف » ، وهم الذين يروجون « للدعارة الفكرية » ، وهم الذين ينادون « بالحرية الجنسية » ، وهم الذين يصرون على أن يؤدى جسد المرأة (ضريبة الفن)(٨١)!! .

---

(٧٩) السيرة لابن هشام : ٢١٦/٣ وتفسير القرطبى : ص ٤٥٩٤ ، وتفسير ابن كثير : ٢٦/٦ .

(٨٠) تفسير الكشاف له : ١٧١/٣ وتفسير فى ظلال القرآن ٢٥٠١/٤.

(٨١) من مفردات القرآن (المنافقون) : ص ١٥٣ .

فأنت تراهم إذا تعرت فنانة أو ضبطت فى (شبكة دعارة) يتصدون للدفاع عنها ، ولمن اخترن الانحراف طريقا باسم (الحرية الشخصية) !! ويتنكرون لهذه (الحرية الشخصية) إذا اتجهت بصاحبتها إلى طريق الفضيلة والعفاف !!

فاذا اختارت إحدى الفنانات أو المذيعات ارتداء الحجاب ، واتخذت الفضيلة والعفاف طريقا لها تعالت صيحاتهم ، وكتبت أقلامهم المتشنجة فى حملة تشويه منحطة تدعى فيها أن هؤلاء الفنانات والمذيعات يتلقين « أموالا من جهات أجنبية ليرتدين الحجاب »(٨٢) سبحانك هذا بهتان عظيم !!

وهؤلاء المنافقون وأمثالهم توعدهم الله تعالى بالعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة حيث قال تعالى : (**إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون**) .

سادساً : الدس والوقيعة وإشعال نار الفتنة بين المسلمين

ومن أبرز أساليب الكفار عموما واليهود على وجه الخصوص استخدام أسلوب الدس والوقيعة ومحاولة اشعال نار الفتنة بين المسلمين لتفتيت المجتمع المسلم والتفريق بين أبنائه ، وتمزيق وحدتهم وتآلفهم . ويستعملون لتنفيذ هذا الأسلوب أولياءهم من المنافقين الذين يقيمون بين أظهر المسلمين ، فيوحون إليهم بإثارة الفتن وإيقاد نار العصبية وإثارة دعاوى الجاهلية . ويستجيب المنافقون لأوليائهم من اليهود لاشتراكهم معهم فى الكفر وبغض المسلمين .

---

(٨٢) جريدة (الوفد) بتاريخ ١٩٩٢/٨/١٧ وجريدة (الشعب) بتاريخ ١٩٩٢/٩/١ .

١ - ومن أمثلة ما صنعه المنافقون بالمسلمين لتمزيق وحدتهم ما حدث فى غزوة (بنى المصطلق) حيث حصل خلاف يسير بين أجير لعمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه - يقال له جهجاه بن مسعود ، ورجل من حلفاء الخزرج هو سنان بن فروة ، فازدحما على الماء ، وتدافعا ، فنادى حليف الخزرج : يا معشر الأنصار ، ونادى أجير عمر : يا معشر المهاجرين .

فاغتنم هذه الفرصة رأس المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول ، وأخذ يلقى بسهامه بين القوم ، ليصدهم عن رسول الله ﷺ ، وكان مما قاله : والله ما رأيت كاليوم مذلة ، أو قد فعلوها ؟ نافرونا (أى غالبونا) وكاثرونا فى بلادنا .. والله ما أعدنا وجلابيب قريش (يعنى معشر المهاجرين) . إلا كما قال الأول « أى الأقدمون » سمن كلبك يأكلك ، والله لقد ظننت أنى سأموت قبل أن أسمع هاتفا يهتف بما سمعت ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم أقبل على من حضر من قومه ، فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم . ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضا للمنايا ، فقتلتم دونه « يعنى النبى ﷺ » فأيتمتم أولادكم ، وقللتم وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عند محمد .

وكاد ابن أبى أن يشعلها فتنة عظيمة ، لولا أن رسول الله - ﷺ - خرج على الناس فقال : ما بال دعوى الجاهلية ؟ فأخبر بالحال ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : دعوها فانها منتنة ، فسكنت الفتنة

وانطفـات ثائرة الحـرب(٨٣) ٠

ونزل فى عبد الله بن أبى وأتبـاعه من المنـافقين سـورة كاملة سميت بوصفهم ، لأنها كلها فيهم ، وهى سـورة (المنافقون) وفيهـا قوله تعـالى : **(هم الذين يقـولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضـوا ولله خـزائن السموات والأرض ولكن المنـافقين لا يفقهون٠ يقولون لئن رجعنـا إلى المدينـة ليخـرجن الأعـز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون)(٨٤) ٠**

فهؤلاء المنـافقون يعلمـون أن القـوة الأساسية التى اعتمد عليها الإسـلام كانت من الفقـراء ، وأن الفقير بطبيعته يعتمـد على العـون والمسـاعدة ، فأنجح طـريق للقضـاء على كيان الإسـلام بوصفه قـوة وجماعة أن يحـارب اقتصاديا ، وأن يعـزل أصحابه فى حصار عنيف محكم، وبذلك يكونون قد أدركوا أخطر سلاح تحارب به الأمم والشعوب، وإن كان الإسـلام باعتبـاره عقيدة قد أثبت أنه أقوى من هذا السلاح ،

---

(٨٣) راجع صحيح الترمذى بشرح ابن العربى : ٢٠٥/١٢ وقال الترمذى حسن صحيح ٠ والسـيرة الحلبية : ٥٩٥/٢ ٠

(٨٤) الآية : ٧ ، ٨ من سـورة المنـافقون ٠ وختـم الله تعـالى الآية الأولى بقوله سبحانه : (لا يفقهون) والثانية بـ (لا يعلمـون) لأن الأول متصـل بقوله : (ولله خـزائن السموات والأرض) وفى معرفتها غموض يحتاج إلى فطنـة وفقـه فناسب نفى الفقه عنهم ، والثـانى متصل بقوله : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) وفى معـرفتها غموض زائد يحتاج إلى علم ، فناسب نفى العلم عنهم ، فالمعنى : لا يعلمون أن الله معـز أوليـاءه ومذل أعداءه٠ راجع أسرار التكرار للكرمانى : ص ٢٠٤ ، وفتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القـرآن : ص ٣٥٩ لأبى زكريا الأنصارى ٠

كما حدث فى انتصار الإسلام على مقاطعة قريش للمسلمين ومن يلوذ بهم من بنى هاشم .

ولعل هذا هو السلاح الحقيقى الذى تستخدمه الآن دول الكفر والإلحاد ضد الشعوب الإسلامية ، لمحاولة الضغط عليها فى ترك عقيدتها ، والتخلى عن العمل بشريعة الإسلام ، وقد استكان معظم حكام المسلمين لهذه الضغوط حتى أصبحت معظم الدول الإسلامية تعتبر المطالبين بالإسلام وتحكيم شريعته من الخارجين على قوانين الدولة المحاربين لها !!

يقول الشهيد سيد قطب : « وهى خطة التجويع التى يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان ، فى حرب العقيدة ومناهضة الأديان . ذلك أنهم لخسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هى كل شىء فى الحياة كما هى فى حسهم فيحاربون بها المؤمنين .

إنها خطة قريش وهى تقاطع بنى هاشم فى الشعب لينفضوا عن نصرة رسول الله - ﷺ - ويسلموه للمشركين !!

وهى خطة المنافقين كما تحكيها هذه الآية لينفض أصحاب رسول الله - ﷺ - عنه تحت وطأة الضيق والجوع !!

وهى خطة الشيوعيين فى حرمان المتدينين فى بلادهم من بطاقات التموين ، ليموتوا جوعا أو يكفروا بالله ، ويتركوا الصلاة !!

وهى خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامى فى بلاد الإسلام ، بالحصار والتجويع ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق ..

وهكذا يتواصى على هذه الوسيلة الخسيسة كل خصوم الإيمان ، من قديم الزمان ، إلى هذا الزمان .. ناسين الحقيقة الثابتة التى يذكرهم القرآن بها ، وهى : (ولله خزائن السموات والأرض . ولكن المنافقين لا يفقهون) (٨٥) .

٢ - وكان من جملة أهداف المنافقين من بناء (مسجد الضرار) : التفريق بين المؤمنين كما ذكر الله تعالى فى قوله : (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ..) (٨٦) .

هذا بالإضافة إلى ما تقدم من اتخاذهم إياه قاعدة للتآمر والتخطيط ضد المسلمين . فقد ورد عنهم أنهم قالوا : نبنى مسجدا ونرسل إلى رسول الله - ﷺ - يصلى فيه ، ويصلى فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام ، فيثبت لنا الفضل والزيادة . وكان المسلمون فى تلك الناحية يصلون فى مسجد قباء جماعة ، فلما بنى هذا المسجد ، صرف عن مسجد قباء جماعة وصلوا بذلك المسجد ، فكان به تفريق المؤمنين ، وكان المنافقون يجتمعون فيه ، ويعيبون النبى ﷺ ويستهزئون به ، إلى أن أمر الرسول ﷺ بتحريقه وهدمه عن آخره (٨٧)

٣ - ومن أمثلة دس المنافقين ووقيعتهم فى غزوة (تبوك) أنه لما خلف الرسول ﷺ عليا بن أبى طالب - رضى الله تعالى عنه - فى المدينة ، أرجف المنافقون ، وقالوا : ما خلفه إلا استثقالا له .

---

(٨٥) فى ظلال القرآن : ١٥٧٩/٦ .

(٨٦) الآية: ١٠٧ من سورة التوبة .

(٨٧) السيرة الحلبية : ١٢٢/٢ ، ١٢٣ والجهاد ، ص ١٠٦

وحين قيل فيه ذلك أخذ على سلاحه ، ثم خرج حتى لحق برسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف ، فقال : **يا نبى الله ، زعم المنافقون أنك ما خلفتنى إلا استثقلتنى ، وتخففت منى ، فقال : كذبوا ، ولكنى خلفتك لما تركت ورائى ، فارجع ، فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، أفلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى ، فرجع على إلى المدينة(٨٨) .**

هكذا كانت سيرة المنافقين مع المسلمين : محاولات لتمزيق الصف ، وتشتيت الشمل ، وإضعاف العروة التى تربط المسلمين ، وهى كذلك اليوم ، وما الدعوات القومية ، والنزعات الاقليمية والعصبية ، والتشكيلات الحزبية الموالية لكفار الشرق أو الغرب ، والدعوة إلى اللهجات العامية ، وترك لغة القرآن الكريم إلا محاولات لأهل النفاق وأوليائهم من اليهود والنصارى وأعداء الإسلام ، تستهدف تمزيق وحدة المسلمين ، وإيجاد البدائل من الروابط الأرضية الواهية للرابطة القوية الجامعة التى يصنعها الإسلام فيما بينهم ، فلينتبه المسلمون المخلصون لكيد المنافقين وأوليائهم من اليهود والنصارى وأعداء الإسلام .

سابعاً : التخلف عن الجهاد فى صفوف المؤمنين

وذلك أن الشجاعة والاقدام والثبات فى ميدان الجهاد إنما هى ثمرات للإيمان بالله عز وجل واليوم الآخر ، والمنافقون ليس لديهم نصيب حقيقى من هذا الإيمان كما قال تعالى : **(ومن الناس من يقول آمنا**

---

(٨٨) السيرة الحلبية : ٣/١٠٤ والجهاد : ص ١٠٧

بالله وباليـوم الآخر وما هم بمؤمنين)(٨٩) ، فهـم ليس عندهم روح الجهاد ، ولا دافع التضحية ، ولا ثقة بالله تعالى ووعـده ، ولا إيمان بالله وقـدره ٠

فلما فرغت قلوب المنافقين من كل هـذا الـزاد كانوا أجبن الناس وأكثرهم تقاعسـاً عن العمل ، وتثاقـلا عن الجهـاد بالنفس والمـال ، والتصـاقا بالدنيا وشـهواتها ٠ قال الله تعـالى مقـررا هـذه الحقيقة : **(لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخـر أن يجاهدوا بأموالهـم وأنفسهم والله عليم بالمتقين ٠ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى رييهم يترددون)**(٩٠) ٠

ومما جاء فى وصف المنافقين وكرههم للقتال ، وخشيتهم الناس أكثر من خشيتهم لله ، قوله سـبحانه : **(ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصـلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشـون الناس كخشـية الله أو أشـد خشـية ، وقالوا ربنا لـم كتبت علينـا القتال ، لولا أخرتنا إلى أجل قريب ، قل متاع الدنيا قليل والآخـرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ٠ أينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم فى بروج مشـيدة ٠٠)**(٩١) ٠

وقال تعالى : (وإذا أنزلت سـورة أن آمنوا بالله وجـاهدوا مع رسـوله اسـتأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مـع القاعدين ٠

---

(٨٩) الآية : ٨ من سـورة البقرة ٠

(٩٠) الآية : ٤٤ ، ٤٥ من سـورة التوبة ٠

(٩١) الآية : ٧٧ ، ٧٨ من سـورة النسـاء ٠

رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) (٩٢) .

وقوله تعالى : (وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) (٩٣) .

هذه بعض آيات القرآن الكريم التى تبين عراقة صفة الجبن والتخلف عن الجهاد فى المنافقين ، ويوجد غيرها الكثير ، وإليك فيما يلى بعض مواقف التخاذل التى وقفها المنافقون من المؤمنين عندما كانوا يدعون إلى الجهاد فى سبيل الله :

١ - ففى غزوة (**أحد**) رجع عبد الله بن أبى بن سلول ، وانسحب بثلث الجيش وصار يلقى بسهام الفتنة بين الناس ويقول : (عصانى وأطاع الولدان ومن لا رأى له ، أرجعوا أيها الناس ، فرجع معه ثلث الجيش . وتبعهم عبد الله بن حرام والد جابر - رضى الله تعالى عنهما - يقول لهم : يا قوم ، اذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم ، فقالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ، ولكن لا نرى أنه يكون قتال ، وأبو إلا الانصراف ، فقال لهم : أبعدكم الله أعداء الله ، فسيغنى الله عنكم نبيه) .

وكان لفعلة المنافقين هذه أثر سىء فى وحدة الصف المسلم ، وهزة

---

(٩٢) الآية : ٨٦ ، ٨٧ من سورة التوبة .

(٩٣) الآية : ١٦٧ ، ١٦٨ من سورة آل عمران .

نفسية عند بعض المسلمين ، حتى همت طائفتان من المسلمين أن تفعلا مثلما فعل المنافقون ، ثم عصمهما الله تعالى ، وفيهما نزل قوله تعالى :(٩٤) (**إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون**)(٩٥) .

٢ - **وفى غزوة (الأحزاب)** ، يوم ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . ظهر النفاق على أشده ، وانكشف حال المنافقين بما فيه من الهلع والجزع ، وانعدام الرابطة بينهم وبين المسلمين ، فمن أول الأمر تخلفوا عن الحفر فى الخندق مع رسول الله ﷺ ، ومن حضر منهم تلهى فى البداية بالضعيف من العمل ، وانسل كثير منهم إلى بيوتهم ، من غير أن يستأذنوا رسول الله ﷺ .

وهذه صفة أخرى فى المنافقين ، اذا اضطروا للعمل تمسكوا بالهين منه ، وتركوا الصعب المهم ، وإذا وجدوا فرصة للانسحاب وترك العمل انسحبوا منه ، ولا يقيمون وزنا لإذن القائد المسلم وأمره ، لأن الطاعة للقائد فرع الإيمان ، وعبادة من العبادات .

لقوله تعالى : (**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** ..)(٩٦) ولكن المنافقين أكثر الناس كسلا فى عبادة الله وطاعة أمره .

وفى صنيع المنافقين فى أول غزوة (**الأحزاب**) نزل قول الله تعالى : (**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على**

---

(٩٤) السيرة الحلبية : ٢/٤٩٤

(٩٥) الآية : ١٢٢ من سورة آل عمران .

(٩٦) الآية : ٥٩ من سورة النساء .

أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم . لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) (٩٧) .

وحتى الذين كانوا يستأذنون رسول الله ﷺ من أهل النفاق انما كانوا يختلقون الأعذار التى لا وجود لها فى الواقع ، ليتهربوا من العمل والجهاد فى سبيل الله مع المؤمنين ، وهكذا كان المنافقون فى غزوة (الأحزاب) ، ومن اعتذر منهم ، فقد اعتذروا بأن بيوتهم عورة ومكشوفة للعدو ، فكشف الله حقيقة هؤلاء المختلقين للأعذار . بقوله **تعالى : (وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا) (٩٨) .**

فقد ورد فى سبب نزول هذه الآية أنها نزلت فى أوس بن قيظى – من منافقى الأوس – الذى قال : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة من العدو ، وليس دار من دور الأنصار مثل دارنا ، وليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا ، فأذن لنا فلنرجع إلى دورنا ، فنمنع ذرارينا ونساءنا ، فبلغ ذلك سعد بن معاذ ، فقال : يا رسول الله لا تأذن لهم ،

---

(٩٧) الآية : ٦٢ ، ٦٣ من سورة النور .

(٩٨) الآية : ١٣ من سورة الأحزاب .

إنه والله ما أصابنا وإياهم قط الا صنعوا ذلك(٩٩) .

فانظر إلى قول سعد بن معاذ فيهم ، فان اختلاق الأعذار كان ديدنهم ، وليس أمرا طارئا . وهذا هو الفرق بين المنافقين وغيرهم من المؤمنين ، فان المنافقين لا يكلفون بعمل إلا اعتذروا عنه ، فالاعتذار عادة فيهم وخلق ، بينما قد يعتذر المؤمنون الصادقون فى بعض الأحيان بأعذار حقيقية مقبولة ، ولكن لا يكون الاعتذار خلقا لهم وعادة فيهم .

وهكذا كان المنافقون فى غزوة (**الأحزاب**) ثلاث طوائف ، كل واحدة منها مثال للجبن والهلع والتخاذل .

الأولى : انسحبت بغير اعتذار ، وتسللت تسللا من غير استئذان .

الثانية : اختلقت الأعذار الكاذبة لتفر من ميدان المعركة .

الثالثة : كانت أكثر وقاحة حيث دعت غيرها إلى الفرار من ميدان الجهاد من غير أن يعتذروا ولو بالكذب .

٣ - وفى عمرة (**الحديبية**) حيث خرج الرسول ﷺ وصحابته زائرين للبيت ومعظمين له ، لا يريدون قتالا ، ولكنه ﷺ استنفر العرب ومن حول المدينة من الأعراب - من أسلم منهم - كغفار ومزينة وجهينة وأسلم ، خشية أن تحاربه قريش وتصده عن البيت الحرام ، فتثاقل المنافقون من هذه القبائل ، وقالوا : أنذهب إلى قوم قد غزوه فى عقر داره بالمدينة ، فنقاتلهم ، وظنوا أنه لن تقوم له قائمة بعد هذه المرة ، فاعتذروا بالانشغال بأهليهم وأموالهم ، وأنه ليس لهم من يقوم بذلك عنهم ، ولكن الله تعالى فضحهم وفضح نواياهم ، وبين

---

(٩٩) السيرة النبوية لابن هشام : ٢/١٠٧ ، وكتاب الجهاد : ص ١١٠

ما يعتلج فى نفوسهم من ضعف الإيمان ، وقلة اليقين ، وسوء الظن بالله تعالى (١٠٠) .

فقال تعالى : (سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بالسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا . وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا)(١٠١) .

فهذه الآيات تبين أن المنافقين الذين تأخروا عن صحبة الرسول ﷺ ، حين خرج عام الحديبية ، وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة . قال الإمام ، مجاهد - رحمه الله تعالى : يعنى أعراب غفار ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع والدئل(١٠٢) .

ويذكر فى هذا المقام أنه خرج مع الرسول ﷺ فى عمرة (**الحديبية**) أحد المنافقين يقال له الجد بن قيس . فلما دعى المؤمنون إلى مبايعة الرسول ﷺ تحت الشجرة ، بايعوه جميعا إلا هذا المنافق ، فحرمه الله تعالى من نعم هذه البيعة جزاء نفاقه الذى كان فى قلبه ، وهذه النعم التى يمثلها قول الله تعالى : **(لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم**

---

(١٠٠) السيرة الحلبية : ٦٨٩/٢ ، والجهاد : ص ١١١

(١٠١) الآية : ١١ ، ١٢ من سورة الفتح .

(١٠٢) راجع : فتح القدير للشوكانى : ٤٨/٥ طبعة بيروت .

وأثابهم فتحا قريبا)(١٠٣) ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم لمن بايعه تحت الشجرة : (أنتم خير أهل الأرض)(١٠٩) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : (لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة) ٠

وفى تخلف هذا المنافق عن البيعة ورد من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : **(لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البيعة وجدنا رجلا منا يقال له الجد بن قيس مختبئا تحت إبط بعيره)(١٠٥) ٠**

٤ - **وفى غزوة (تبوك)** حيث استنفر رسول الله ﷺ جميع المؤمنين لقتال أهل الكتاب ، فتخلف عنه عليه الصلاة والسلام معظم أهل النفاق بزعامة عبد الله بن أبى بن سلول ، واعتذروا بجهد الحال ، والحر الشديد ، وبعد المسافة ، وقوة العدو ٠

وأشار إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : **(فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حرا ، لو كانوا**

---

(١٠٣) الآية : ١٨ من سورة الفتح ٠

(١٠٤) السيرة الحلبية : ٧٠٢/٢ ، وتفسير ابن كثير : ٣١٨/٧ ، وأخرجه البخارى فى كتاب المغازى ، باب غزوة الحديبية ، وانظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى : ٥٠٧/٧ الحديث ٤١٥٤ ، وأخرجه مسلم فى كتاب المغازى ، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند ارادة القتال : ٢٩٤/٦ من صحيح مسلم بشرح النووى الحديث ٤٧٢٩

(١٠٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٣١٧/٧

يفقهون • فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون • فان رجعك الله إلى طائفة منهم فاستئذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين)(١٠٦) •

ومن غريب أعذارهم ما اعتذر به المنافق ـ الذى رفض مبايعة الرسول عليه الصلاة والسلام تحت الشجرة ـ الجد بن قيس ، الذى قال له الرسول ﷺ : **(يا جد هل لك فى جلاد بنى الأصفر) ؟ فقال يا رسول الله ، أو تاذن لى (أى فى التخلف والقعود عن الجهاد) ، ولا تفتنى ، فوالله لقد عرف قومى انه ما من رجل أشد عجبا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر •، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : (قد أذنت لك)(١٠٧) •**

فانزل الله تعالى فيه : (ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى الا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين)(١٠٨) •

والأمر الذى يتضح من هذا أن النفاق كان ولا يزال ينزل بصاحبه إلى أسفل الدركات ، فما كان الجد بن قيس ليتهم نفسه على كبر سنه بالافتتان بالنساء ، وما عرف عنه فى سيرته شىء مما اتهم به نفسه ، ولو أنه كان إنما يخشى الفتنة من نساء بنى الأصفر ، فان ما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ ، والرغبة بنفسه

---

(١٠٦) الآيات : ٨١ ـ ٨٣ من سورة التوبة •

(١٠٧) السيرة الحلبية : ١٠٢/٣ ، ١٠٣ وتفسير القرطبى : ص ٢٩٩٧ وتفسير ابن كثير : ١٠١/٤

(١٠٨) الآية : ٤٩ من سورة التوبة •

عن الجهاد فى سبيل الله - أعظم ، ولكنه النفاق أبى إلا أن ينزل بالرجل إلى حضيض دناءة النفس ، فيؤثر التمرد عن قبول التكليف ويحاول أن يستتر بهذه السخافة ، ويجعل منها عذرا للتخلف عن الجهاد(١٠٩) .

وقد كشف الله تعالى عن السرائر الكامنة فى نفس الجد بن قيس ونفوس أشياعه من المنافقين أنه يسوؤهم أن ينتصر المؤمنون ، فان كان غير ذلك فرحوا وقالوا : أخذنا حذرنا من قبل . قال تعالى : **(إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون)**(١١٠) .

وذلك لأنهم يأخذون بظواهر الأمور ، ويحسبون البلاء شرا فى كل حال ، ويظنون أنهم يحققون لأنفسهم الخير بالتخلف والقعود . وقد خلت قلوبهم من التسليم لله والرضى بقدره ، واعتقاد الخير فيه . والمسلم الصادق يبذل جهده ويقدم نفسه لايخشى شيئا اعتقادا منه بأن ما يصيبه من خير أو شر معقود بإرادة الله تعالى،وأن الله ناصر له ومعين، وأن ما قدر سوف يكون ، وأنه إما فتح وظفر بالعدو فالأجر والغنيمة والسلامة ، وإما شهادة ففوز بالجنة ونجاة من النار ، وكلا الأمرين حسن . قال تعالى : **(قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون . قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون)**(١١١) .

---

(١٠٩) النفاق والمنافقون : ص ٢٢١

(١١٠)، (١١١) الآيات : ٥٠ - ٥٢ من سورة التوبة .

ثم يبين الله تعالى لرسوله والمؤمنين أن الخير كل الخير فى تخلف هؤلاء المنافقين ، فقال تعالى : (**لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين**)(١١٢) .

أى لو خرج هؤلاء المنافقون المستأذنون فى القعود معكم أيها المؤمنون ما زادوكم شيئا من الأشياء إلا خبالا ، أى اضطرابا فى الرأى ، وفسادا فى العمل ، وضعفا فى القتال ، وخللا فى النظام ، فان الخبال كما قال الراغب : هو الفساد الذى يلحق الحيوان فيورثه اضطرابا كالجنون ، والمرض المؤثر فى العقل والفكر . والمراد : ما زادوكم قوة ومنعة وإقداما ، كما هو شأن القوة العددية المتحدة فى العقيدة والمصلحة ، بل ضعفا وفشلا ومفسدة ، كما حصل فى غزوة حنين(١١٣) .

فالقلوب الحائرة تبث الخور والضعف فى الصفوف ، والنفوس الخائنة خطر على الجيوش ، ولو خرج أولئك المنافقون ما زادوا المسلمين قوة بخروجهم ، بل لزادوهم اضطرابا وفوضى ، ولأسرعوا بينهم بالوقيعة والفتنة والتفرقة والتخذيل . وفى المسلمين من يسمع لهم فى ذلك الحين . ولكن الله الذى يرعى دعوته ويكلأ رجالها المخلصين ، كفى المؤمنين الفتنة ، فترك المنافقين المتخاذلين قاعدين .

* * *

---

(١١٢) الآية : ٤٧ من سورة التوبة .

(١١٣) المنار : ٤٠٨/١٠

ثامنا : التخذيل والتثبيط للمؤمنين

ومن أساليب المنافقين وأسلحتهم التدميرية للجماعة الإسلامية أنهم لم يكتفوا عند حد القعود عن الجهاد فى سبيل الله ، بل كانوا يبذلون قصارى جهدهم لتخذيل المؤمنين وتثبيطهم عن الجهاد والدفاع عن الدعوة الإسلامية ، وذلك لأنهم يريدون تكثير حزبهم ، وإظهار أحقيتهم فى التخلف والقعود عن القتال ، لأنهم لا ينظرون إلى حقيقة الأمور ، وإنما ينظرون إلى الكثرة والقلة والمظاهر والشكليات ، فكلما كثر حزبهم ازادوا كبرا وعنادا وتمسكا بالباطل ، وظنوا أنهم هم الغالبون ، ولا يدرون أنهم من حزب الشيطان ، وهم الخاسرون مهما كثر عددهم وعظم شأنهم . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يثبطون المؤمنين عن قتال أوليائهم وأهل مودتهم من الكافرين .

ولقد أكد القرآن الكريم هذا الأسلوب عند المنافقين كما أكده واقعهم وسيرتهم مع المسلمين المخلصين .

١ - **ففى غزوة (بدر)** وعندما خرج الصحابة بقيادة الرسول ﷺ لملاقاة كفار قريش ، أخذ المنافقون يشككون فى قدرة المسلمين على الوقوف أمام عدوهم ، وصاروا يلقون العبارات المثبطة للعزائم ، والمزعزعة للنفوس ، ومن هذه العبارات ما سجله القرآن الكريم عليهم من قولهم ، فى قوله تعالى : **(إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ، ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم)(١١٤) .**

---

(١١٤) الآية : ٤٩ من سورة الأنفال .

فيبين الله تعالى أن المنافقين ومرضى القلوب كانوا يقولون خدع هؤلاء المؤمنين دينهم ، فخرجوا مع قلتهم وضعف استعدادهم لقتال المشركين مع كثرتهم وقوة استعدادهم ، إذ كان عدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، ولم تكن معهم أسلحة كافية ، ولا إبل ولا خيل إلا قليلا ، وكان عدد المشركين ثلاثة أمثالهم . وقد جاءوا مستعدين تمام الاستعداد لقتال المسلمين ، فزعم المنافقون ومرضى القلوب أن المسلمين خرجوا مغترين بدينهم ظانين أنهم ينصرون به .

فيرد الله تعالى عليهم قائلا : (**ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم**) أى ومن يكل أمره إلى الله مؤمنا بأنه ناصره ، ينصره الله ، فهو - سبحانه - يكفى المؤمنين ما أهمهم ، وينصرهم على أعدائهم وإن كثروا وعظم استعدادهم ، وهو كذلك حكيم يضع كل أمر فى موضعه ، على ما جرى عليه النظام والتقدير فى سننه ، ومنه نصر الحق على الباطل .

ولم يكتف المنافقون بما كانوا يقولونه قبل المعركة ، وإنما أخذوا يرجفون فى المدينة قبل رجوع الجيش المؤمن المنتصر ، ويشيعون هزيمة المسلمين وتفرقهم . فقد روت كتب السيرة والمغازى أن رسول الله ﷺ أرسل عبد الله بن رواحة بشيرا لأهل العالية ، وزيد بن حارثة بشيرا لأهل السافلة ، وأركب زيد بن حارثة ناقته القصواء . فلما وصلا المدينة ، وأخذا يبشران الناس بما فتح الله على المسلمين ، كذبهما زعماء المنافقين واليهود ، واخترع بعضهم روايات ملفقة حول هزيمة المسلمين ، فلقى أحدهم أبا لبابة رضى الله تعالى عنه وقال له : لقد تفرق أصحابكم تفرقا لا يجتمعون معه أبدا ، فقد قتل محمد وأصحابه ، وهذه ناقته عليها زيد بن حارثة لا يدرى ما يقول من

الرعب ، قال اسامة بن زيد رضى الله تعالى عنهما : فبلغنى ذلك فجئت أبى حتى خلوت وسألته عما يقول الرجل وقلت : أحق ما تقول ؟ قال : أى والله وإنه لحق ما أقول يا بنى ، فقويت نفسى ورجعت إلى ذلك المنافق ، فقلت : أنت المرجف برسول الله ، لنقدمنك إلى رسول الله إذا قدم ، فليضربن عنقك ، فقال : إنما هو شىء سمعته من الناس يقولونه (١١٥) .

٢ - **وفى غزوة (أحد)** وجد المنافقون أكثر من فرصة لممارسة أسلوبهم فى التثبيط والإرجاف والإشاعات الكاذبة :

(أ) فقد سبق أن عرفت من زعيمهم عبد الله بن أبى بن سلول عندما انخذل بثلث الجيش وهو يقول : لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، وما كان لهذا الصنع من أثر فى نفوس المؤمنين .

وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى : **(وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين)** (١١٦) .

(ب) ومن أمثلة محاولاتهم فى تعطيل المؤمنين وعرقلتهم ، ما روى أن رسول الله ﷺ ، عندما كان فى طريقه إلى (أحد) لملاقاة الكفار .

---

(١١٥) الجهاد : ص ١١٥ ، آيات الجهاد : ص ٣٢٦ ، والنفاق والمنافقون : ص ٩٩ .

(١١٦) الآية : ١٦٧ ، ١٦٨ من سورة آل عمران .

سلك فى حائط (أى بستان) لبعض المنافقين ، وكان أعمى ، فقام يحثو التراب فى وجوه المسلمين ويقول : لا أحل لك أن تدخل حائطى إن كنت رسول الله ، فابتدره القوم ليقتلوه ، فقال : لا تقتلوه فهذا أعمى القلب أعمى البصر (١١٧) .

(ج) وعندما دارت الدائرة على المسلمين فى الجولة الثانية من معركة (أحد) ، بسبب ما كان من مخالفة الرماة لأمر رسول الله ﷺ . وعندما قام خالد بن الوليد ونفر من المشركين بحركة التفاف على المسلمين ، وقتلوا منهم كثيرا ، واضطرب المسلمون اضطرابا شديدا ، وصرخ أحد الكفار بأنه قد قتل رسول الله ﷺ ، انتهز المنافقون هذه الفرصة ، وصاروا يرجفون بين المسلمين ، ويرمون بالكلمات المثبطة للعزائم والمزعزعة للقلوب . من ذلك أن أحدهم لما سمع باشاعة قتل الرسول عليه الصلاة والسلام قال : لو كان نبيا ما قتل ، فارجعوا إلى دينكم الأول(١١٨) .

وقال رجال آخرون من المنافقين : لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا ، وقد كان قائل هذا المنافق معتب بن قشير ، فقد روى عن الزبير بن العوام ـ رضى الله تعالى عنه ـ أنه قال : لقد رأيتنى مع رسول الله ﷺ يوم أحد حين اشتد علينا الخوف ، وأرسل علينا النوم ، فما منا من أحد إلا وذقنه فى صدره ، فوالله إنى لأسمع كالحلم قول معتب بن قشير ـ وكان ممن

---

(١١٧) زاد المعاد : ٩٢/٢ ، والسيرة لابن هشام : ٧/٣ ، ٨

(١١٨) الجهاد : ص ١١٥ ، ١١٦

شهد العقبة - : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا ، فحفظتها (١١٩) .

روى ابن جرير بسنده عن ابن جريج قال : قيل لعبد الله بن أبى : قتل بنو الخزرج اليوم ، قال : وهل لنا من الأمر شيء (١٢٠) .

وقد نزل فى قول هؤلاء المنافقين قوله تعالى : (**ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الأمر من شيء ، قل إن الأمر كله لله ، يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قلنا ها هنا ، قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور**) (١٢١) .

وهكذا كان النعاس مميزا إذ نزل على المؤمنين الصادقين أمنة من الله تعالى فاستعادوا قوتهم ونشاطهم ، ولكنه لم يصب أهل النفاق والشك يومئذ لما امتلأت قلوبهم به من القلق والاضطراب نتيجة النفاق والشك . ثم فاح نتن ذلك من أفواههم فتكلموا بما فى أنفسهم لإشاعة الفوضى والرعب فى صفوف المؤمنين .

٣ - وفى غزوة (**الأحزاب**) كان من المنافقين من التخذيل والتثبيط والإرجاف مثل ما كان منهم يوم (أحد) ، بل أكثر مما كان

---

(١١٩) جامع البيان فى تفسير القرآن : ٩٤/٤ والسيرة الحلبية : ٥٠٥/٢ ، والنفاق والمنافقون : ص ١٣٣

(١٢٠) جامع البيان : ٩٤/٤ .

(١٢١) الآية : ١٥٤ من سورة آل عمران .

هناك ، لأنهم ظنوا أن النصر سيكون للكفار ، وأنها ستكون القاضية بالنسبة للمؤمنين ، إذ رأوا تجمع الكفار واتفاقهم على استئصال المسلمين . فكشر المنافقون عن أنيابهم وأظهروا من حقدهم أكثر مما كانوا يفعلون . ومن أمثلة ما وقع منهم من التخذيل والتثبيط والإرجاف فى هذه الغزوة :

(أ) ما ورد فى كتب السيرة من أن الرسول ﷺ كان أثناء حفر الخندق يشجع المسلمين ، ويبشرهم بالنصر المبين ، وبما سيفتح الله تعالى عليهم من بلاد الروم والفرس واليمن . وفى الوقت الذى استبشر فيه المؤمنون أخذ المنافقون يرجفون ويقولون : ألا تعجبون من محمد ، يمنيكم ويعدكم الباطل ، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وأنها تفتح لكم ، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق ، لا تستطيعون أن تبرزوا(١٢٢) .

(ب) وعندما نقض بنو قريظة العهد ، وعظم عند ذلك البلاء على المسلمين لما وصلهم خبر هذا النقض ، واشتد عليهم الحال الذى يصوره قول الله تعالى : (**إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا**)(١٢٣).

عند ذلك ظهر النفاق من المنافقين ، واشتد ارجافهم وتثبيطهم

---

(١٢٢) السيرة الحلبية : ٦٣٥/٢ والسيرة النبوية لابن كثير : ١٩٢/٣ تحقيق مصطفى عبد الواحد ، طبعة عيسى البابى الحلبى ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٤ م ، والجهاد ص ١١٧ .

(١٢٣) الآية : ١٠ ، ١١ من سورة الأحزاب .

حتى قال بعضهم : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ، وما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا (١٢٤) . فأنزل الله عز وجل : **(وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ..)(١٢٥) .**

لقد وجد هؤلاء المنافقون فى الكرب المزلزل ، والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن خبيئة نفوسهم ، وهم آمنون من أن يلومهم أحد ، وفرصة للتوهين والتخذيل ، وبث الشك والريبة فى وعد الله ووعد رسوله ، وهم مطمئنون أن لا يأخذهم أحد بما يقولون . فالواقع بظاهره يصدقهم فى التوهين والتشكيك . وهم مع هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم ، فالهول قد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التجمل ، وروع نفوسهم ترويعا لا يثبت معه إيمانهم المهلهل !! فجهروا بحقيقة ما يشعرون غير مبقين ولا متجملين !!

ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون فى كل جماعة ، وموقفهم فى الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء . فهم نموذج مكرور فى الأجيال والجماعات على مدار الزمان !!(١٢٦) .

٤ - **وفى غزوة (تبوك)** لم يكتف المنافقون بتخلفهم عن القتال والخروج مع المؤمنين ، وإنما عمدوا إلى تحريض المؤمنين على القعود ،

---

(١٢٤) السيرة الحلبية : ٦٣٥/٢ ، والسيرة النبوية لابن هشام ١٤٩/٣ .

(١٢٥) الآية : ١٢ ، ١٣ من سورة الأحزاب .

(١٢٦) فى ظلال القرآن ٢٨٣٨/٥ .

وتخويفهم من أعدائهم ، وتهويل المشاق والمصاعب التى ستلاقيهم وهم فى طريقهم إلى العدو . وقد تخلف عن هذه الغزوة رأس المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول وجماعته ، وكان مما قاله عند تخلفه : يغزو محمد بن الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد ، يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب . والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مقرنين فى الحبال(١٢٧) .

وروى أنه لما أمر رسول الله ﷺ بالتهىء لغزوة (تبوك وقع جماعة من المنافقين فى أشد الحيرة والاضطراب ، واتفقوا يلتمسون المخرج من ذلك السفر الطويل فى الصحراء المقفرة بين المدينة والشام ، النادرة الماء ، وفى أشد أيام الصيف القائظة . ووجدوا أن تخلفهم غير كاف من ذلك الحرج ، فلجأوا إلى تأليف فرقة همها أن تثبط هم الناس عن الجهاد . وكان أفراد هذه الفرقة يجتمعون فى بيت يهودى يدعى (سويلم) بمكان بالمدينة يدعى (جاسوم) ، يقول بعضهم لبعض : (أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ، والله لكأنهم (أى الصحابة) غدا مقرنون فى الحبال) .

وقد أرادوا أن يشيع هذا القول فيكون فيه إرجاف وترهيب للمؤمنين . فبعث إليهم النبى ﷺ طلحة بن عبد الله فى نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم بيت (سويلم) ، ففعل طلحة ، فاقتحم أحدهم

---

(١٢٧) السيرة الحلبية ١٠٢/٣ والسيرة النبوية لابن هشام ١٢١/٤ والجهاد : ص ١١٨ ، والنفاق والمنافقون : ص ٢٢٨ .

وكان اسمه الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله واقتحم أصحابه فأفلتوا (١٢٨) ٠

ونزل فى هؤلاء المنافقين وغيرهم قوله تعالى : (**فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قلل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون**) (١٢٩) ٠

واذا كانت الآية الكريمة تبين لنا حال المنافقين عند الخروج لغزوة (تبوك) فهى تبين لنا أيضا نموذجا لضعف الهمة ، وطراوة الإرادة لكثير من الذين يشفقون على أنفسهم من المتاعب ، وينفرون من الجهد ، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم ، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر الذى فيه العزة والكرامة ، وما هذا يليق بالرجال !! ولكن قومى لا يعلمون ٠

* * *

(١٢٨) النفاق والمنافقون : ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ والسيرة النبوية لابن هشام ١١٤/٤ ٠

(١٢٩) الآية : ٨١ من سورة التوبة ٠

الفصل الرابع

أساليب المعاملة مع المنافقين

إن الدارس لحياة الرسول ﷺ وأسلوب تعامله مع المنافقين ، يجد أن القاعدة الأساسية التى اتخذها الرسول ﷺ فى جميع شأن المنافقين وأحوالهم كانت تتلخص فى معاملتهم حسب ظاهرهم . فكان يجرى أمرهم على هذا الظاهر ، ولا يبالغ فى التفتيش عن بواطنهم ، ولا يسعى إلى هتك أسرارهم . وكان يقول إن الله تعالى يتولى السرائر .

وقد صدق رسول الله ﷺ ، فقد تولى الله تعالى تلك السرائر المريضة ، فأخرج أضغانها ، وأهلكتها أحقادها .

روى ابن كثير فى تفسيره عن الحافظ ابن عساكر وأبى أحمد الحاكم أن رجلا يقال له بحرملة أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : الإيمان ههنا وأشار بيده إلى لسانه ، والنفاق ههنا وأشار بيده إلى قلبه ، ولم يذكر الله إلا قليلا . فقال رسول الله ﷺ : «اللهم اجعل له لسانا ذاكرا ، وقلبا شاكرا ، وارزقه حبى وحب من يحبنى ، وصير أمره إلى خير » فقال يا رسول الله : « إنه كان لى أصحاب من المنافقين وكنت رأسا فيهم ، أفلا آتيك بهم » ؟ قال : « من أتانا استغفرنا له ، ومن أصر فالله أولى به ، ولا تخرقن على أحد ستره »(١)

وهذه المعاملة الكريمة من الرسول ﷺ كانت استجابة لأوامر

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم له : ٤/١٤٣ .

الله تعالى بالإعراض عنهم كما جاء فى قوله تعالى : (**ويقولون طاعة فاذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا**)(٢) .

وقوله تعالى : (**ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا**)(٣) .

فالآيات فيها أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ - ومعه المؤمنون - بالإعراض عن هؤلاء المنافقين ، وتفويض أمرهم إلى الله تعالى ، لأنه حسبه وكافيه ، وهذا معناه أن على المؤمن أن يصبر ويتحمل ما يأتيه من قبل المنافق ، من الأذى والمكر والمكيدة والخداع ، دون أن يرد شيئا من ذلك بنظيره ، وأن يفوض أمره إلى الله تعالى الذى يرد عنه الكيد ، ويحفظه من مؤامراته .

ولكن وردت فى القرآن الكريم آيات أخرى تأمر النبى ﷺ - ومعه المؤمنون - بجهاد المنافقين والغلظة عليهم ، كما فى قوله تعالى : (**يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ...**)(٤) .

وهذا ما يجعل المؤمن يتساءل فيقول : ما حقيقة هذا الجهاد ، وما هى الغلظة ؟ وما هو السبيل إلى رد كيد المنافقين والوقاية من شرورهم ؟ وللإجابة عن هذا السؤال نقول :

---

(٢) الآية : ٨١ من سورة النساء .

(٣) الآية : ٤٨ من سورة الأحزاب .

(٤) الآية : ٧٣ من سورة التوبة ، ٩ من سورة التحريم .

أولا : جهاد المنافقين والغلظة عليهم

ورد لفظ الجهاد فى القرآن الكريم بمعنى بذل الجهد واستفراغ الوسع ، وهو المعنى العام الذى يشمل القتال ، وبقية الطاعات فى الإسلام ، وقد وردت بهذا المعنى آيات عديدة كما فى قوله تعالى : **(وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج)(٥) . وقوله تعالى : (ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين)(٦) . وقوله تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين)(٧) .**

وورد أيضا بمعنى « القتال » وهو معنى أخص من الأول ، ولكنه الغالب فى أسلوب القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى : **(فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون)(٨) .**

ومن هنا أشكل على العلماء معنى الجهاد فى قوله تعالى : **(يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ..)** ، وذكر فخر الدين الرازى فى ذلك أقوالا :

الأول : أنه الجهاد مع الكفار ، وتغليظ القول مع المنافقين ،

---

(٥) الآية : ٧٨ من سورة الحج .

(٦) الآية : ٦ من سورة العنكبوت .

(٧) الآية : ٦٩ من سورة العنكبوت .

(٨) الآية : ٨١ من سورة التوبة .

وهو قول الضحاك . وهذا بعيد ، لأن ظاهر قوله : (**جاهد الكفار والمنافقين**) يقتضى الأمر بجهادهما معا ، وكذا ظاهر قوله : (**واغلظ عليهم**) راجع إلى الفريقين .

القول الثانى : أنه تعالى لما بين للرسول ﷺ ، بأن يحكم بالظاهر . قال عليه الصلاة والسلام : « **نحن نحكم بالظاهر** » والقوم كانوا يظهرون الإسلام ، وينكرون الكفر ، فكانت المحاربة معهم غير جائزة .

القول الثالث : وهو الصحيح : أن الجهاد عبارة عن بذل الجهد، وليس فى اللفظ ، ما يدل على أن ذلك الجهاد بالسيف أو باللسان أو بطريق آخر . فنقول : إن الآية تدل على وجوب الجهاد مع الفريقين ، فأما كيفية تلك المجاهدة ، فلفظ الآية لا يدل عليها ، بل إنما يعرف من دليل آخر .

وإذا ثبت هذا فنقول : دلت الدلائل المنفصلة على أن المجاهدة مع الكفار يجب أن تكون بالسيف ، ومع المنافقين بإظهار الحجة تارة ويترك الرفق ثانيا ، وبالانتهار ثالثا .

قال عبد الله بن مسعود فى قوله : (**جاهد الكفار والمنافقين**) قال: تارة باليد، وتارة باللسان، فمن لم يستطع فليكشر فى وجهه، فمن لم يستطع فبالقلب . وحمل الحسن جهاد المنافقين ، على إقامة الحدود عليهم ، إذا تعاطوا أسبابها .

قال القاضى : وهذا ليس بشىء لأن إقامة الحد واجبة على من

ليس بمنافق ، فلا يكون لهذا تعلق بالنفـاق(٩) .

وروى عن على ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : « **بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعة أسياف : سيف للمشركين (فاذا انسلخ الأشهر الحـرم فاقتلوا المشـركين) الآية(١٠) . وسيف لأهل الكتاب : (قاتلوا الذين لا يؤمنـون بالله ولا باليوم الآخـر) الآية(١١) . وسيف للمنافقين: (جاهدوا الكفار والمنافقين) . وسيف للبغـاة : (فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمـر الله)(١٢) .**

وإذا نظرنا إلى هذه الأقوال بشىء من التـأمل نجد أنه لا منافاة بينهـا ، لأنه يمكن جهادهم تارة باللسـان وتارة بالسيف وذلك بحسب أحـوال المجتمـع . فلو نظرنا إلى الخط الذى سـار عليه الرسول ﷺ فى جهـاد المنـافقين نجد أن مجمـله الصـبر عليهم مع الحذر منهم ، وبيـان أحوالهم للمؤمنين فى مبدأ قيـام دولة الإسـلام ، حيث كان المسلمون فى حال ضعف ، ثم كان الغلظـة عليهم وجهادهم وتهديدهم ومعاقبتهم ماديا ومعنويا ، بعد التمكين فى الأرض وقوة المسلمين .

هذا ولقد لخص ابن تيميـة ـ رحمه الله تعـالى ـ كيفية معاملة الرسول ﷺ للمنافقين بقوله : « كان الرسول ﷺ يسمـع من الكفـار والمنـافقين فى أول الإسلام أذى كثيرا ، وكان يصبر عليه امتثالا لقوله تعـالى : (**ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم ..**)(١٣) ، لأن

---

(٩) تفسير مفاتيح الغيب له : ٨/٩٩ .
(١٠) الآية : ٥ من سـورة التـوبة .
(١١) الآية : ٢٩ من سـورة التـوبة .
(١٢) من الآية : ٩ من سـورة الحجـرات .
(١٣) الآية : ٤٨ من سـورة الأحـزاب .

إقامة الحدود عليهم كان يفضى إلى فتنة عظيمة ومفسدة أعظم من مفسدة الصبر على كلماتهم .

فلما فتح الله تعالى مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وأنزل الله تعالى سورة « براءة » قال فيها : (**جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ..**) وقال تعالى : (**لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا . ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا**)(*) .

فلما رأى من بقى من المنافقين ما صار الأمر إليه من عز الإسلام ، وقيام الرسول ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين أضمروا النفاق ، فلم يكن يسمع من أحد المنافقين بعد غزوة « تبوك » كلمة سوء وماتوا بغيظهم ، حتى بقى منهم أناس بعد موت النبى ﷺ ، يعرفهم صاحب السر حذيفة رضى الله تعالى عنه ، فلم يكن يصلى عليهم هو ، ولا يصلى عليهم من عرفهم بسبب آخر مثل عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه .

فهذا يفيد أن النبى ﷺ كان يحتمل من الكفار والمنافقين قبل « براءة » ما لم يكن يحتمل منهم بعد ذلك ، كما كان يحتمل من أذى الكفار وهو بمكة ما لم يكن يحتمل بدار الهجرة والنصرة(١٤) .

(*) الآية : ٦٠ ، ٦١ من سورة الأحزاب .

(١٤) انظر الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ : ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بمصر ، الأولى ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م .

وهكذا فان الميزان فى معاملة المنافقين أن ينظر إلى حال المسلمين من حيث الضعف أو القوة ، وإلى حال المنافقين وروابطهم وعلاقاتهم ، فان كان المسلمون فى ضعف ، وأهل النفاق فى مركز قوى بما لهم من الصلات والدعم من أوليائهم ، والروابط مع بعض المؤمنين، أو كان بين الفئة المؤمنة أفراد لم تكتمل تربيتهم ولم تتضح رؤيتهم بالرغم من حسن نواياهم وصدقهم ، فينبغى فى هذه الحالة أن تجتنب المعارك مع أهل النفاق بقدر الامكان ، وأن يصبر عليهم ويعرض عنهم ، وأن يجادلوا بالحسنى ، مع الحذر الشديد منهم ، والاحتياط لأساليبهم ، وإن كان الأمر على عكس ما تقدم ، ولم يكن التشديد يجر على المسلمين فتنة عظيمة ، وجب جهادهم بأساليب الشدة والغلظة .

ومن هنا يمكن لنا فهم قول الله تعالى : **(يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ..)** .

فالجهاد إذا أطلق من غير قرينة ينصرف إلى الجهاد بالسيف ، وهذه الآية الكريمة لم تفرق بين جهاد الكفار وجهاد المنافقين ، فدل على أن المنافقين إذا عرفوا وجاهروا بنفاقهم يجاهدون بالسيف كالكفار . وبهذا قال على بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ورجحه ابن جرير الطبرى حيث قال : « **وأولى الأقوال فى تأويل ذلك عندى بالصواب ما قال ابن مسعود أن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم من جهاد المنافقين بنحو الذى أمره به من جهاد المشركين** »(١٥) .

---

(١٥) جامع البيان : ٦/١٠/١٢٧ .

وبمثل هذا قال ابن رجب الحنبلى ، إذ قال : « والذى يظهر أن القرآن أربعة سيوف : سيف على المشركين حتى يسلموا أو يؤسروا، فاما منا بعد وإما فداء . وسيف على المنافقين ، وهو سيف الزنادقة ، وقد أمر الله تعالى بجهادهم والإغلاظ عليهم فى سورة « براءة » وسورة « التحريم » وآخر سورة « الأحزاب » . وسيف على أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية . وسيف على أهل البغى ، وهو المذكور فى سورة الحجرات »(١٦) .

وقد اختلف العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ فى السبب الذى لأجله ترك رسول الله ﷺ جهاد المنافقين فى عهده بالسيف ، فقال ابن جرير الطبرى : فان قال قائل فكيف تركهم ﷺ مقيمين بين أظهر أصحابه مع علمه بهم ؟ قيل : إن الله ـ تعالى ذكره ـ إنما أمر بقتال من أظهر منهم كلمة الكفر ، ثم أقام على إظهاره ما أظهر من ذلك ، وأما من إذا أطلع عليه منهم أنه تكلم بكلمة الكفر وأخذ بها أنكرها ورجع عنها ، وقال إنى مسلم ، فان حكم الله فى كل من أظهر الإسلام بلسانه أن يحقن بذلك له دمه وماله ، وإن كان معتقدا غير ذلك ، وتوكل هو ـ جل ثناؤه ـ بسرائرهم ، ولم يجعل للخلق البحث عن السرائر ، فلذلك كان النبى ﷺ مع علمه بهم واطلاع الله تعالى إياه على ضمائرهم واعتقاد صدورهم ، كان يقرهم بين أظهر الصحابة ولا يسلك بجهادهم مسلك جهاد من قد ناصبه الحرب على الشرك

---

(١٦) أنظر : أهمية الجهاد فى نشر الدعوة الإسلامية والرد على الطوائف الضالة : ص ٢٢٢ للدكتور / على بن نفيع العليانى ، طبعة دار طيبة ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .

بالله تعالى ، لأن أحدهم كان إذا اطلع عليه أنه قد قال قولا كفر فيه بالله ، ثم أخذ به أنكره ، وأظهر الإسلام بلسانه ، فلم يكن ﷺ يأخذه إلا بما أظهر له من قوله عند حضوره إياه ، وعزمه على امضاء الحكم فيه ، دون ما سلف من قول كان نطق به قبل ذلك ، ودون اعتقاد ضميره الذى لم يبح الله لأحد الأخذ به فى الحكم ، وتولى الأخذ به - هو سبحانه - دون خلقه (١٧) .

وقال ابن تيمية : فان قيل فلم لم يقتلهم النبى ﷺ مع علمه بنفاق بعضهم وقبل علانيتهم ؟ قلنا إنما ذلك لوجهين :

أحدهما : أن عامتهم لم يكن ما يتكلمون به من الكفر مما يثبت عليهم بالبينة ، بل كانوا يظهرون الإسلام ، ونفاقهم يعرف تارة بالكلمة يسمعها الرجل المؤمن فينقلها إلى النبى ﷺ فيحلفون بالله أنهم ما قالوها أو لا يحلفون ، وتارة بما يظهر من تأخرهم عند الصلاة ، والجهاد ، واستثقالهم للزكاة ، ولظهور الكراهية منهم لكثير من أحكام الله تعالى ، وعامتهم يعرفون من لحن القول كما قال تعالى : (**أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم . ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم**) (١٨) .

ومنهم من كان يقول القول أو يعمل العمل فينزل القرآن يخبر أن صاحب ذلك القول والعمل منهم كما فى سورة « براءة » ، ومنهم من كان المسلمون أيضا يعلمون كثيرا منهم بالشواهد والدلالات والقرائن

---

(١٧) جامع البيان فى تفسير القرآن : ١٢٧/١٠/٦ .
(١٨) الآية : ٢٩ ، ٣٠ من سورة محمد .

والأمارات ، ومنهم من لم يكن يعرف كما قال الله تعالى : (**وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ..**) (١٩) .

ثم جميع هؤلاء المنافقين يظهرون الإسلام ويحلفون أنهم مسلمون، وقد اتخذوا أيمانهم جنة ، وإذا كانت هذه حالهم ، فالنبى ﷺ لم يكن يقيم الحدود بعلمه ولا بخبر الواحد ، ولا بمجرد الوحى ولا بالدلائل والشواهد حتى يثبت الموجب للحد ببينة أو اقرار ، ألا ترى كيف أخبر عن المرأة الملاعنة أنها إن جاءت بالولد على نعت كذا وكذا فهى للذى رميت به ، وجاءت به على النعت المكروه **فقال** ﷺ : « **لولا الأيمان لكان لى ولها شأن** »(٢٠) .

وكان بالمدينة امرأة تعلن الشر فقال : « **لو كنت راجما أحدا من غير بينة لرجمتها** »(٢١) وقال للذين اختصموا إليه : « **إنكم تختصمون إلى ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقض**

---

(١٩) الآية : ١٠١ من سورة التوبة .

(٢٠) انظر : الحديث بطوله فى مسند الإمام أحمد : ٢٣٨/١، ٢٣٩ وذكره البخارى فى تفسير سورة النور : ١٢٦/٦ بلفظ « لولا ما مضى من كتاب الله ، لكان لى ولها شأن » .

(٢١) أخرجه البخارى فى كتاب الطلاق ، باب التلاعن فى المسجد ، الحديث ٥٣١٠ ، انظر فتح البارى : ٣٦٣/٩ وانظر صحيح مسلم بشرح النووى كتاب اللعان الحديث : ٣٦٨٩ ، ٩٦/٥ ورواه النسائى فى الطلاق : ١٧٤/٥ الحديث ٣٤٧٠ ، ٣٤٧١ ، واللفظ له أما رواية الصحيحين ففيها « السوء » بدل « الشر » .

بنحو مما أسمع ، فمن قضيت له من حق اخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار »(٢٢) .

فكان ترك قتلهم مع كونهم كفارا لعدم ظهور الكفر منهم بحجة شرعية ، ويدل على هذا أنه لم يستتبهم على التعيين ، ومن المعلوم أن أحسن حال من ثبت نفاقه وزندقته أن يستتاب كالمرتد ، فان تاب وإلا قتل ، ولم يبلغنا أنه استتاب واحدا بعينه منهم ، فعلم أن الكفر والردة لم يثبت على واحد بعينه ثبوتا يوجب أن يقتل كالمرتد .

ولهذا تقبل علانيتهم وتكل سرائرهم إلى الله تعالى .. والزنديق والمنافق إنما يقتل إذا تكلم بكلمة الكفر وقامت عليه بذلك بينة وهذا حكم بالظاهر لا بالباطن ، وبهذا الجواب يظهر فقه المسألة .

الوجه الثانى : أنه عليه السلام كان يخاف أن يتولد من قتلهم من الفساد أكثر مما فى استبقائهم ، وقد بين ذلك حين قال : «**لايتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه** »(٢٣) ، وقال : « **إذا ترعد له أنف كثير بيثرب** » فانه لو قتلهم بما يعلمه من كفرهم ، لأوشك أن يظن الظان أنه إنما قتلهم لأغراض وأحقاد ، وإنما قصده الاستعانة بهم على الملك كما قال : « **أكره أن تقول العرب لما ظفر بأصحابه**

---

(٢٢) انظر صحيح البخارى بشرح فتح البارى : ٣٤٠/٥ ، كتاب الشهادات ، باب من أقام البينة بعد اليمين ، الحديث ٢٦٨٠ .
وانظر : صحيح مسلم بشرح النووى : ٦١٢/٥ ، الحديث ٤٣٩٣

(٢٣) انظر : صحيح البخارى بشرح فتح البارى : ٤١٧/٨ كتاب التفسير الحديث ٤٩٠٥ .

أقبل يقتلهم »(٢٤) وأن يخاف من يريد الدخول فى الإسلام أن يقتل مع اظهاره الإسلام كما قتل غيره ٠

وقد كان أيضا يغضب لقتل بعضهم قبيلته وأناس آخرون ، فيكون ذلك سببا للفتنة ، واعتبر ذلك بما جرى فى قصة عبد الله بن أبى بن سلول لما عرض سعد بن معاذ بقتله ، خاصم له أناس صالحون، وأخذتهم الحمية حتى سكنهم رسول الله ﷺ ، وقد بين ذلك رسول الله ﷺ لما استأذنه عمر فى قتل ابن أبى ، قال أصحابنا : ونحن الآن إذا خفنا مثل ذلك كففنا عن القتل ٠

فحاصله أن الحد لم يقم على واحد بعينه لعدم ظهوره بالحجة الشرعية التى يعلمه بها الخاص والعام ، أو لعدم إمكان إقامته إلا مع تنفير أقوام عن الدخول فى الإسلام وارتداد آخرين عنه ، وإظهار قوم من الحرب والفتنة ما يربى فساده على فساد ترك قتل منافق ، وهذان المعنيان حكمهما باق إلى يومنا هذا »(٢٥) ٠

وأما ابن حزم فانه يعلل عدم قتل الرسول ﷺ للمنافقين فى عهده بأن المنافقين فى عهده صنفان : صنف لم يعلم النبى أعيانهم ، وصنف علم أعيانهم ثم تابوا ولم يقطع بأن توبتهم غير صحيحة لذلك

---

(٢٤) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ١٢١/٤ والدر المنثور للسيوطى : ٢٦٠/٣ ٠

(٢٥) انظر الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية : ص ٣٥٥ - ٣٥٨ بتصرف ، طبعة دار الفكر ٠

لم يقتلهم(٢٦) . وقد أطال فى إبطال كل ما يعارض قوله هذا .

ويرد على ابن حزم بأن النبى ﷺ لما استأذنه بعض الصحابة فى قتل المنافقين لم يقل لهم أنهم تابوا ، ولا سبيل إلى قتل التائب من المنافقين ، بل علل عدم قتلهم بعلة أخرى ، فكيف إذا يترك ابن حزم ظاهر قول الرسول ﷺ وهو ظاهرى .

وبهذا يظهر لنا أن المنافق إذا ظهر نفاقه وثبت ببينة شرعية يقام بها الحد قتل بالسيف ، وهذا هو جهاده الثابت فى سورة « براءة » وهى آخر القرآن نزولا ، فان أنكر أنه كفر بعد قيام البينة عليه فلا يستتاب بل يقتل . أما إن أقر فإنه يستتاب ، وكذلك من تكررت ردته مرارا كثيرة ، فان ذلك متلاعب بدينه فاسد الطوية يقتل ولا يستتاب(٢٧) .

يقول ابن تيمية فى تقرير ما سبق : « ويدل على المسألة ما روى أبو ادريس قال أتى على رضى الله تعالى عنه بناس من الزنادقة ارتدوا عن الإسلام فسألهم فجحدوا فقامت عليهم البينة العدول . قال فقتلهم ولم يستتبهم . قال وأتى برجل كان نصرانيا وأسلم ، ثم رجع عن الإسلام قال فسأله ، فأقر بما كان منه ، فاستتابه فتركه ، فقيل له كيف تستتيب هذا ولم تستتب أولئك . قال : إن هذا أقر بما كان منه ، وإن أولئك لم يقروا وجحدوا حتى قامت عليهم البينة ، فلذلك لم استتبهم . رواه الإمام أحمد .

---

(٢٦) انظر المحلى له : ٢١٢/١١ وما بعدها تصحيح حسن زيدان طلبه. طبعة مكتبة الجمهورية العربية بمصر ١٣٩٢ هـ .

(٢٧) أهمية الجهاد : ص ٢٢٨ .

فهـذا من أمير المؤمنـين على بيـان أن كل زنديق كتم زندقتـه وجحدها حتى قامت عليـه البينـة قتل ولم يستتب ، وأن النبى ﷺ لم يقتـل من جحد زندقته من المنـافقين لعدم قيـام البينـة ، ويدل على ذلك قوله تعـالى : **(وممن حولكم من الأعـراب منافقون ومن أهـل المدينـة) إلى قوله : (وآخـرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عمـلا صـالحا وآخـر سيئا)** (٢٨) .

فعلم أن من لم يعترف بذنبـه كان من المنافقين ، ولهذا الحديث قال الإمام أحمـد فى الرجـل يشهد عليـه بالبدعة فيجحد : ليست له توبة ، إنما التوبة لمن اعترف ، فأما من جحد فلا توبة له .

قال القاضى أبو يعلى وغيره : وإذا اعترف بالزندقة ثم تاب قبلت توبتـه ، لأنه باعترافه يخـرج عن حد الزندقة ، لأن الزنديق هو الذى يستبطن الكفر ولا يظهـره ، فاذا اعترف به ثم تاب خـرج عن حـده فلهذا قبلنـا توبته ، ولهذا لم يقبـل على رضى الله عنـه توبة الزنادقة لمـا جحـدوا »(٢٩) .

وقال أيضـا : ويدل على جـواز قتـل الزنديق والمنـافق من غير استتابة قوله تعـالى : **(ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى) إلى قوله: (هل تربصـون بنـا إلا إحدى الحسنين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينـا)** (٣٠) .

---

(٢٨) الآية : ١٠١ ، ١٠٢ من سـورة التـوبة .

(٢٩) الصارم المسلول : ص ٣٦٠، ٣٦١ وراجع أحكام النفاق والمنافقين : ص ٤٤ - ٤٦ للشيخ حسن الهلاوى طبعة مكتبة السنة ، طبعة أولى : ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م .

(٣٠) الآيات : ٤٩ - ٥٢ من سـورة التـوبة .

قال أهل التفسير : أو بأيدينا بالقتل إن أظهرتم ما فى قلوبكم قتلناكم وهو كما قالوا ، لأن العذاب - على ما يبطنونه من النفاق - بأيدينا لا يكون إلا القتل لكفرهم ، ولو كان المنافق يجب قبول ما يظهر من التوبة بعدما ظهر نفاقه وزندقته لم يمكن أن يتربص بهم أن يصيبهم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، لأن كلما أردنا أن نعذبهم على ما أظهروه أظهروا التوبة .

وقال قتادة وغيره : قوله تعالى : (**وممن حولكم من الأعراب منافقون) إلى قوله : (سنعذبهم مرتين)**(٣١) قالوا فى الدنيا القتل وفى البرزخ عذاب القبر .

ومما يدل على ذلك أيضا قوله تعالى : (**يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه)**(٣٢) **وقوله سبحانه : (سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فاعرضوا عنهم) إلى قوله : (يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين)**(٣٣) .

دلت هذه الآيات كلها على أن المنافقين كانوا يرضون المؤمنين بالأيمان الكاذبة وينكرون أنهم كفروا ويحلفون أنهم لم يتكلموا بكلمة الكفر ، وذلك دليل على أنهم يقتلون إذا ثبت ذلك عليهم بالبينة لوجوه :

أحدها : أنهم لو كانوا إذا أظهروا التوبة قبل ذلك منهم لم

(٣٢، ٣٣) الآيات : ٦٢، ٩٥، ٩٦ من سورة التوبة .

(٣١) الآية : ١٠١ من سورة التوبة .

يحتاجوا إلى الحلف والانكار ولكانوا يقولون قلنا وقد تبنا ، فعلم أنهم كانوا يخافون إذا ظهر ذلك عليهم أنهم يعاقبون من غير استتابة .

الثانى : أنه قال تعالى : (**اتخذوا أيمانهم جنة**)(٣٤) واليمين إنما تكون جنة إذا لم نأت ببينة عادلة تكذبها ، فاذا كذبتها بينة عادلة انخرقت الجنة فجاز قتلهم ، ولا يمكنهم أن يجتنوا بعد ذلك إلا بجنة من جنس الأولى ، وتلك جنة مخروقة .

الثالث : أن الآيات دليل على أن المنافقين إنما عصم دماءهم الكذب والإنكار ومعلوم أن ذلك إنما يعصم إذا لم تقم بينة بخلافه ، ولذلك لم يقتلهم النبى ﷺ .. ومعلوم أن الكافر إذا أظهر التوبة من الكفر كان تركا له فى الظاهر ، ولم يعلم ما يخالفه ، أما المنافق فاذا أظهر الإسلام لم يكن تركا للنفاق ، لأن ظهور هذه الحال منه لا ينافى النفاق ، ولأن المنافق إذا كان جهاده بإقامة الحد عليه كجهاد الذى فى قلبه مرض وهو الزانى إذا زنى لم يسقط عنه حده إذا أظهر التوبة بعد أخذه لإقامة الحد عليه كما قد عرف ، ولأنه لو قبلت علانيتهم دائما مع ثبوت ضدها لم يكن إلى الجهاد على النفاق سبيل ، فان المنافق إذا ثبت عنه أنه أظهر الكفر ، فلو كان إظهار الإسلام حينئذ ينفعه لم يمكن جهاده .

ويدل على جواز قتل الزنديق والمنافق من غير استتابة ما أخرجا فى الصحيحين عن زيد بن أرقم قال : **خرجنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر أصاب الناس فيه شدة ، فقال عبد الله بن أبى :**

---

(٣٤) من الآية : ٢ من سورة المنافقون .

لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ، وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته بذلك ، فأرسل إلى عبد الله بن أبى فسأله ، فاجتهد يمينه ما فعل ، فقالوا : كذب زيد يا رسول الله . قال : فوقع فى نفسى مما قالوه شدة حتى أنزل الله تصديقى (إذا جاءك المنافقون) قال : ثم دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم ليستغفر لهم فلووا رؤوسهم(٣٥) .

ففى هذه القصة بيان أن قتل المنافق جائز من غير استتابة وإن أظهر انكار ذلك وتبرأ منه ، وأظهر الإسلام ، وإنما منع النبى ﷺ من قتله ما ذكر من تحدث الناس أنه يقتل أصحابه ، لأن النفاق لم يثبت عليه بالبينة ، وقد حلف أنه ما قال ، وإنما علم بالوحى ، وخبر زيد بن أرقم ، وأيضا لما خافه من ظهور فتنة بقتله وغضب أقوام يخاف افتتانهم بقتله .

وذكر بعضهم : أن رجلا من المنافقين خاصم رجلا من اليهود إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقضى النبى صلى الله عليه وسلم لليهودى، فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال انطلق بنا إلى عمر بن الخطاب فأقبل إلى عمر فقال اليهودى ، اختصمت أنا وهذا إلى محمد فقضى لى عليه فلم يرض بقضائه ، وزعم أنه مخاصم إليك ، وتعلق بى فجئت معه ، فقال عمر للمنافق : أكذلك ؟ قال نعم . فقال لهما

---

(٣٥) انظر : صحيح البخارى بشرح فتح البارى : ٥١٥/٨ كتاب التفسير، الحديث ٤٩٠٣ . ورواه مسلم فى كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ١١٩/٨، ١٢٠ وتحفة الأحوذى تفسير سورة المنافقون : ٣١٣/٩.

رويدكما حتى أخرج إليكما ، فدخل عمر البيت فأخذ السيف واشتمل عليه ، ثم خرج به إليهما فضرب المنافق حتى برد ، فقال هكذا أقضى بين من لم يرض بقضاء الله ورسوله . فنزل قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين يزعمون ..) الآية(٣٦) .

وقال جبريل : إن عمر فرق بين الحق والباطل ، فسمى الفاروق.

ففى هذه الأحاديث دلالة على أن قتل المنافق كان جائزا ، إذ لولا ذلك لأنكر النبى ﷺ على من استأذنه فى قتل المنافق ، ولا أنكر على عمر إذ قتل من قتل من المنافقين ، ولا أخبر عليه الصلاة والسلام أن الدم معصوم بالإسلام ، ولم يعلل ذلك بكراهية غضب عشائر المنافقين لهم ، وأن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ، وأن يقول القائل لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم ، لأن الدم إذا كان معصوما كان الوصف عديم التأثير فى عصمة دم المعصوم ، ولا يجوز تعليل الحكم بوصف لا أثر له ، وترك تعليله بالوصف الذى هو مناط الحكم ، وكما أنه دليل على القتل فهو دليل على القتل من غير استتابة على ما لا يخفى(٣٧) .

إذن من خلال كل ما سبق يمكن لنا أن نقول إن موقف الرسول ﷺ من المنافقين يدل على أن الأمر الصادر إليه فى قوله تعالى : **(يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم . . .)** ليس للوجوب ، ولكنه متروك لرؤية إمام المسلمين وخليفتهم ، فاذا رأى

---

(٣٦) من الآية : ٦٠ من سورة النساء .

(٣٧) الصارم المسلول ص ٣٤٣ ـ ٣٥٥ بتصرف .

أن مسالمة هؤلاء المنافقين وتركهم فيه خطر على كيان الأمة ووجودها فعليه أن يقاتلهم ، وأن يقف منهم موقفا حازما ، لا ليونة فيه ولا غفلة ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : (**لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورنك فيها إلا قليلا • ملعونين أين ما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا**) (٣٨) •

وعلى هذا النحو يفهم لفظ (الغلظة) الوارد فى (الآية) ، فليس معناها القسوة ، وشدة القلب ، وخشونة الكلام ، وتعجيل الانتقام ، كما قال بذلك بعض المفسرين(٣٩) ، بقدر ما هى الشجاعة، وعدم التردد فى مواجهة العدو والأخذ بالحذر التام ، واليقظة الكاملة وعدم الغفلة •

وبمثل هذا تفسر « الغلظة » التى وردت فى قوله تعالى : **يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين**) (٤٠) •

فان هذه وردت فى حق الكافرين ، وبعد الأمر الصريح بالقتال ضدهم ، ومعلوم أن الإسلام لا يأمر بالقسوة ، وعدم الرأفة ، بل أمرنا بالإحسان فى كل شىء ، فقد **أخرج الإمام مسلم بسنده عن**

---

(٣٨) الآية : ٦٠، ٦١ من سورة الأحزاب •

(٣٩) انظر : البحر المحيط لأبى حيان : ٧٢/٥ طبعة دار الفكر – بيروت ، وأحكام القرآن لابن العربى : ٩٧٨/٢ دار المعرفة – بيروت •

(٤٠) الآية : ١٢٣ من سورة التوبة •

شداد بن أوس • قال : ثنتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم • قال : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء • فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة • وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح • وليحد أحدكم شفرته • وليرح ذبيحته »(٤١) •

قال الإمام النووى : وقوله ﷺ : (**فأحسنوا القتلة**) عام فى كل قتيل من الذبائح ، والقتل قصاصا ، وفى حد ونحو ذلك • وهذا الحديث من الأحاديث الجامعة لقواعد الإسلام • والله أعلم(٤٢) •

كما أن أدب القتال فى الإسلام معروف بضوابطه المثالية ، وقيوده المتشددة ، فلا تمثيل ولا تشويه •

أما إذا وجد شر المنافقين محصورا نطاقه ، وتأثيرهم فى بنيان الأمة قليل حجمه ، وتحركاتهم فى داخل الأمة غير مخيفة عواقبها، فعليه أن يراقبهم من بعيد ، وأن يقدم لهم فى ظل هذا الوضع ، كل ما من شأنه أن يساعدهم على تصحيح أوضاعهم من تذكيرهم بآيات الله ، وإقامة الحجة عليهم ، علهم يهتدون إلى سواء السبيل ، وهذا

(٤٢،٤١) انظر : صحيح مسلم وشرحه للنووى ، كتاب الصيد ، باب « الأمر بإحسان الذبح والقتل •• » : ٤٤٢/٦ - ٤٤٤ • الحديث ٤٩٦٥ • وأخرجه أبو داود فى الأضاحى ، باب فى النهى أن تصبر البهائم والرفق بالذبيحة : ١٠٠/٣ الحديث ٢٨١٥ ، والترمذى فى الديات ، باب ما جاء فى النهى عن المثلة : ٢٣/٤ الحديث ١٤٠٩ ، والنسائى فى الضحايا ، باب الأمر باحداد الشفرة : ٢٢٧/٧ • وابن ماجه فى الذبائح ، باب إذا ذبحتم فأحسنوا الذبح : ١٠٥٨/٢ الحديث ٣١٧٠ •

معنى قوله تعالى : (أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فاعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا)(٤٣) .

ثانيا : وسائل الوقاية من المنافقين

لما كانت أساليب المعاملة مع المنافقين تتنوع تبعا لموقفهم فى المجتمع الإسلامى من ناحية ، وحالة المجتمع من ناحية أخرى - كما سبق بيان ذلك - فاننا نذكر هنا بعض الوسائل التى يمكن اتخاذها فى مواجهة كيد المنافقين ، وابطال فاعليتهم وأثرهم فى المجتمع الإسلامى وذلك فيما يأتى :

١ - معرفة أحوال المنافقين ودراسة صفاتهم

ذلك أن أمضى سلاح يعتمدون عليه فى مواجهة المسلمين ، هو استتارهم وخفاء سمومهم ، وتدليسهم ، وخبث أساليبهم . ومن هنا كان الجهل بأحوالهم خير بيئة لهم ، يحققون فيها مآربهم ، وأحسن العوامل المساعدة على نجاح مخططاتهم ومكائدهم . ولذلك يجب على كل مؤمن صادق فى جماعة المسلمين أن يكون لنفسه وعيا لهذا الصنف من الأعداء ، حتى لا تنطلى عليه وسائلهم . فلا يقف إلى جانبهم ، أو يقف موقفا سلبيا منهم . ومصدره فى ذلك كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ . وعلى القادة والعلماء أن ينشروا فى المجتمع المسلم هذا الوعى بين إخوانهم . ولعل كتابنا هذا قد أسهم بشىء فى معرفة أحوال المنافقين وأساليبهم فى المجتمع الاسلامى .

---

(٤٣) الآية : ٦٣ من سورة النساء .

فاذا تحصل هذا الوعى الشامل كان هذا سدا منيعا أمام المنافقين ، وذهبت جهودهم من غير أن تترك أثرا فى المؤمنين ، فمن المسلمات أن معرفة العدو وأحواله ، وأسلحته ، ووسائله هى مبدأ الطريق فى جهاده والانتصار عليه ، وكذلك معرفة أعراض المرض أول الطريق فى علاجه .

وهذا أمر واضح ومفهوم من خلال ما عرفت من إطالة القرآن فى بيان أحوال المنافقين ، فان المقصود بهذه الإطالة هو تنبيه الجماعة المؤمنة إلى ذلك العدو الخطير ، فيجب على المؤمنين أن يراجعوا كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ ليعرفوا عدوهم وعدو دينهم الذى يكيد لهم فى الخفاء .

٢ — ترك موالاتهم والتقرب إليهم

فمن بدت عليه مظاهر النفاق ، وصدرت عنه أعمال المنافقين وأقوالهم وجب على المسلمين أن لا يتخذوه وليا ولا نصيرا .

ويدل على ذلك قوله تعالى : (**فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا**) (٤٤) .

فقد نزلت هذه الآيات عندما اختلف المسلمون فى شأن المنافقين الذين رجعوا من غزوة « أحد » مع عبد الله بن أبى بن سلول ، فقالت

---

(٤٤) الآية : ٨٨، ٨٩ من سورة النساء .

طائفة من المسلمين : نقتلهم ، وقالت أخرى : هم مؤمنون . فأنزل الله هذه الآيات تبين أن المنافقين ليسوا مؤمنين ، وأنه لا يصلح للمؤمنين أن يوالوهم ويدافعوا عنهم ويحموهم .

وقيل : نزلت فى قوم كانوا بمكة قد تكلموا بالإسلام ، وكانوا يظاهرون المشركين ، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم ، فقالوا : إن لقينا أصحاب محمد ، فليس علينا منهم بأس . وأن المؤمنين لما أخبروا أنهم خرجوا من مكة قالت فئة من المؤمنين : اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم ، فانهم يظاهرون عليكم عدوكم .

وقالت طائفة أخرى من المؤمنين : سبحان الله !! أتقتلون قوما قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به ، من أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم نستحل دماءهم وأموالهم !! فكانوا كذلك فئتين ، والرسول - ﷺ - عندهم لا ينهى واحدا من الفريقين عن شىء ، فنزلت(٤٥) .

ومهما يكن من سبب النزول، فالآيات تنهى المؤمنين عن الدفاع عن المنافقين الذين يوالون الكفار ، لأن من مد يد العون للكفار ، وساعدهم على المسلمين ، وتآمر معهم عليهم ، فقد بدا منه من عداوة المسلمين ، ما لا يجوز معه أن ينصر أو يوالى ، أو يدفع عنه بالقول أو بالعمل .

---

(٤٥) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٣٢٧/٢ ، وأسباب النزول للواحدى : ص ١٢٤، ١٢٥ طبعة عالم الكتب - بيروت . وجامع النقول فى أسباب النزول لابن خليفة عليوى : ٤٩٦/١، ٤٩٧ . طبعة الاشعاع بالرياض - الأولى ١٤٠٤ هـ . والجهاد : ص ١٢٦ .

٣ - مقاطعة المنافقين واجتناب مجالسهم

ومن وسائل وقاية المجتمع الإسلامى من شرور المنافقين مقاطعتهم، واجتنـاب مجالسهم التى يخوضون فيها فيما لا يرضى الله تعـالى . وقد أشـار إلى ذلك القـرن الكريم فى قوله تعـالى : (**بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليمـا . الذين يتخذون الكافرين أوليـاء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العـزة فان العـزة لله جميعـا . وقد نزل عليـكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفـر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جـامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعـا**)(*) .

ويدخـل فى ذلك أن لا يستجـاب لهم ، وأن لا يشـاركوا فيمـا يتخذونه من مراكز الضـرار التى يضارون بها المسلمين الصادقين . هذا إذا لم يكن للجماعة المسلمة سلطان يخولها القضـاء على تلك المراكز ، أما إذا كان لهـا من القـوة والسلطـان ما يخـولها لذلك ، فيجب أن لا يسمحوا للمنافقين بانشـاء تلك المـراكز ، وإذا أنشـأوها وجب هدمها والقضـاء عليهـا(٤٦) .

٤ - وضع المنافقين فى موضع الشك وعدم الثقة بأقوالهم

لقد عـرفت - فيما سبق - أنهم يفسـدون ويرجفون ويثبطون ، ويرمون المسلمون بالإفـك والفاحشة ، وأنهم يبطنون كل ذلك ويسترونه بالمظهـر الخادع ، ويستعينون عليه بالحلف الكاذب ، والحديث الحسن فى ظاهره ، وينقلون الأخبار الكاذبة عن المسلمين وأحوالهم .

(*) الآيات : ١٣٨ - ١٤٠ من سورة النساء .

(٤٦) راجع : ص ٨٤ من هذا الكتاب .

لذلك : فيجب أن لا يسلم لهم فيما يقولون ويشيعون ويرجفون ، وأن لا يسمع لهم ، بل توضع أخبارهم موضع التهمة ، لأن الأصل فيهم الاساءة والافساد حتى يثبت خلاف ذلك ، ولقد نعى الله تعالى على من يسمع من المنافقين ، حيث قال تعالى : (**لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين**)(٤٧) .

وإذا كان الله تعالى قد أمر المؤمنين أن يضعوا أقوال الفاسقين موضع الاختبار والتبين فى قوله تعالى : (**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين**)(٤٨) . فان أقوال المنافقين واشاعاتهم أولى بأن لا تصدق ولا يسمع لها ، لأنهم أشد خطرا وأخبث طوية من كل فاسق .

٥ - الحيلولة بينهم وبين المراكز الهامة فى المجتمع

ومن وسائل وقاية المجتمع الإسلامى من كيد المنافقين وخطرهم، الحيلولة بينهم وبين المراكز الهامة ، وإخراجهم من صفوف المسلمين عند القيام بأعمال هامة وخطيرة ، وخاصة عند الجهاد ، لأن الله تعالى أمر نبيه ﷺ إذا رجع من غزوة « تبوك » أن لا يسمح للمنافقين - الذين تخلفوا عنه - بالخروج معه إلى الجهاد مرة أخرى ، فقال تعالى : (**فان رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك**

---

(٤٧) الآية : ٤٧ من سورة التوبة .

(٤٨) الآية : ٦ من سورة الحجرات .

للخـروج فقـل لن تخـرج معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدو إنكم رضيتم بالقعـود أول مـرة فاقعدوا مع الخالفين)(٤٩) ٠

فالمنافقون لا يستأمنون على ثغـور المسلمين ، لأن لهم مع العدو هوى ، وفى هزيمة المؤمنين تحقيق لمـآربهم ، فلا ينبغى أن يمكنـوا من ذلك ٠ هـذا بالإضـافة إلى ما عـرفت أنهم يثبطـون ويرجفـون ويخـذلون ، وخطـر ذلك فى أوقات الملمـات يزيد على خطـره فى الأحوال العادية أضعافا مضاعفة(٥٠) ٠

لذلك يجب على المسلمين أن لا يسمحوا لهم بالجهاد معهم ٠ فضلا عن أنه لا يجـوز أن يكون لهم مراكـز فى دولتهم أو جيوشهم ٠ وعدم الاكتفـاء بتكليفهم بما يطلبون من الأمـور السهلة التى يكون غنمهـا أكبر من غـرمها بكثير ، كما قال تعـالى : **(سيقـول المخلفـون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قـل لن تتبعـونا كذلكم قال الله من قبـل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليـلا)(٥١) ٠**

فقد قالوا ذلك يطلبون الاشتراك مع المؤمنين فى غزوة « خيبر » بعدما سمعوا ما وعد الله تعـالى عباده الصـادقين من المغانم ، فأمـر الله رسوله ﷺ أن يفوت عليهم هذه الفرصـة ، وأن يدعوهم إلى تقديم البرهان الواضح على صدقهم ، بالاشتراك فى قتـال أولى بأس شديد ،

---

(٤٩) الآية : ٨٣ من سـورة التـوبة ٠

(٥٠) انظر : أحكام القـرآن للشـافعى : ٢٨/٢ نشر مكتبة الثقـافة الإسلامية ـ الطبعة الأولى ، وانظر : كتاب الجهاد : ص ١٢٨ ٠

(٥١) الآية : ١٥ من سـورة الفتح ٠

يكون فيه تضحية بالمال والنفس ، فقال تعالى : (**قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فان تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما**)(٥٢) .

وهكذا ينبغى على جماعة المؤمنين أن لا يمكنوا المنافقين من تحقيق مآربهم بأسهل التكاليف ، بل ينبغى عليهم أن يزجوا بهم فى الأعمال الشاقة ، والامتحانات الكاشفة التى تمكن من التعرف على صدقهم ، أو تكشف عن كذبهم ونفاقهم .

ثالثا : جزاء المنافقين

لما كان المنافقون لا يختلفون فى حقيقة أمرهم عن الكافرين من حيث العقيدة ، بل قد يكونون أشد كفرا من الكافرين المجاهرين بكفرهم ، فقد جعل الله تعالى لهم جزاء كفرهم عقابا فى الدنيا وعقابا فى الآخرة .

فأما عقاب الدنيا فيتمثل فى أمرين :

الأول : حرمانهم من استغفار المؤمنين لهم والصلاة عليهم ، لقوله تعالى فى شأنهم : (**استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين**)(٥٣) .

فهذه الآية وضحت أن الله تعالى قد حرم مغفرته على المنافقين

---

(٥٢) الآية : ١٦ من سورة الفتح .
(٥٣) الآية : ٨٠ من سورة التوبة .

الباقين على نفاقهم ، وأن طلب المغفرة لهم وعدمها سواء من حيث القبول ، وأن كثرتها والمبالغة فيها لا تجدى شيئا ، لأن قوله تعالى : (**إن تستغفر لهم سبعين مرة**) زيادة فى تأكيد ذلك ، والمعنى : مهما تكثر من الاستغفار لهم ، فلن يستجاب لك فيهم ، بسبب كفرهم بالله ورسوله . ولقوله تعالى : (**سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين**)(٥٤) .

كما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين ، وأن لا يصلى على أحد منهم إذا مات ، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له ، لأنهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا على النفاق . وهذا حكم عام فى كل من عرف نفاقه ، وإن كان سبب نزول الآية فى (عبد الله بن أبى بن سلول) رأس المنافقين (٥٥) .

فقد أخرج البخارى بسنده عن عبد الله بن عمر قال : لما توفى عبد الله - هو ابن أبى - جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ، فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه ، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، تصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه ؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما خيرنى الله فقال : (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين

---

(٥٤) الآية : ٦ من سورة المنافقون .

(٥٥) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ١٣٢/٤

مرة فلن يغفر الله لهم) ، وسأزيده على السبعين • قال : إنه منافق ! فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله عز وجل آية (ولا تصلى على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره)(٥٦) •

الثانى : رد نفقاتهم وعدم قبولها ، كما قال الله تعالى : **(قل انفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين • وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون)(٥٧) •**

والآية نزلت كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما جوابا عما فى قول الجد بن قيس حين قال له رسول الله ﷺ : **(هل لك يا جد فى جلاد بنى الأصفر ؟ قال : إنى إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتن ، ولكن أعينك بمالى)(٥٨) •**

والحق أن الآية عامة تشمل (**الجد**) وغيره ، وأنها نزلت مع غيرها من هذا السياق فى أثناء السفر ، لا عقب قول الجد ما قال قبله • والمعنى : قل يا أيها الرسول لهؤلاء المنافقين أنفقوا ما شئتم من أموالكم فى الجهاد أو غيره مما أمر الله تعالى به فى حال الطوع

---

(٥٦) الحديث : أخرجه البخارى فى كتاب التفسير ، باب سورة (براءة) ٨٥/٦ وأخرجه مسلم فى كتاب صفات المنافقين وأحكامهم : ١٢٠/٨ ورواه الترمذى فى تفسير سورة (براءة) ٤٩٥/٨ – ٤٩٩ من تحفة الأحوذى الحديث ٥٠٩٥ ورواه النسائى فى الجنائز ، باب القميص فى الكفن ٣٧/٤ ، ٣٨ ، ورواه الامام أحمد فى مسنده : ١٦/١ ، ١٨/٢ ، ٣٧١/٣

(٥٧) الآية : ٥٣ ، ٥٤ من سورة التوبة •

(٥٨) انظر : جامع البيان لابن جرير : ١٠٤/١٠

للتقية ، أو الكره خوف العقوبة ، فمهما تنفقوا فى الحالين لن يتقبل الله تعالى منكم شيئا منه ، ما دمتم على شك مما جاءكم به الرسول من أمر الدين ، والجزاء على الأعمال فى الآخرة ٠

وعلل سبحانه عدم قبول نفقاتهم بقوله : (**إنكم كنتم قوما فاسقين**) ، **والفسوق** : الخروج من دائرة الإيمان ، الذى هو شرط لقبول الأعمال مع الإخلاص ، قال تعالى : (**إنما يتقبل الله من المتقين**) (٥٩)٠

فليعتبر بهذا منافقوا هذا الزمان - فى عصرنا الحديث - الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ، ويعلنون عنها فى صحف الأخبار ، ليشتهروا بها فى الأقطار عند الناس !!

وأما عقاب المنافقين فى الآخرة فيتمثل فى قول الله تعالى : (**يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنو انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ٠ ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ٠ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ٠ ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير**)(٦٠) ٠

يخبر الله تعالى فى هذه الآيات عن حال المنافقين والمنافقات - الذين كانوا فى الظاهر مع المسلمين ، وفى الباطن مع الكافرين - فى يوم القيامة ، حيث لا يدرون أين يتجهون ، فيطلبون من المؤمنين

---

(٥٩) من الآية : ٢٧ من سورة المائدة ٠

(٦٠) الآيات : ١٣ - ١٥ من سورة الحديد ٠

الصادقين أن يرشدوهم إلى الطريق ، ويأخذوا بأيديهم إلى الجادة ، ويقولون لهم : انتظرونا ، وذلك إذا رأوهم قد أسرعوا كالبرق الخاطف إلى الجنة ، أو انظروا نحونا لعلنا نقتبس من نوركم شيئا نستضىء به . فيقول لهم الملائكة أو المؤمنون - على سبيل التهكم والتوبيخ والاستهزاء - (**ارجعوا وراءكم**) أى ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا هذه الأنوار التى تتولد عن طريق الإيمان الصادق ، والعمل الصالح ، واكتساب المعارف ، أو ارجعوا خائبين وتنحوا عنا ، فالتمسوا نورا آخر ، لأنه لا سبيل لكم إلى هذا النور .

فلما رجعوا وانصرفوا يطلبون النور جعل الله تعالى بينهم وبين المؤمنين سور ضخم يحجز أنوار المؤمنين عن المنافقين ، لذلك السور (**باب**) لأهل الجنة يدخلون منه ويرى منه المنافقون المؤمنين ليكلموهم ، (**باطنة فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب**) فهو من جهة المؤمنين (**فيه الرحمة**) حيث الجنة وما فيها من رضوان الله تعالى والنعيم المقيم . ومن جهة المنافقين حيث الظلمة والعذاب الأليم ..

حينئذ ينادى المنافقون - الذين دخلوا فى الإسلام من باب وخرجوا من باب آخر المؤمنين قائلين لهم : (**ألم نكن معكم**) فى الدنيا نصلى ونصوم ونقيم شعائر الدين كما كنتم تصلون وتصومون وتقيمون شعائر الدين ؟ فلماذا حيل بيننا وبينكم ، وكتب علينا النار وكتبت لكم الجنة ؟ فيقول لهم المؤمنون : (بلى) حقا لقد كنتم معنا كما تقولون فى الظاهر ، (**ولكنكم فتنتم أنفسكم**) ، فكنتم غير صادقين فى عبادتكم ، وغير مخلصين فى إيمانكم ، وفتنتم أنفسكم ، وأوقعتموها فى البلاء ، وعملتم ما سبب لكم دخول النار ، وانتظرتم أن تدور علينا الدوائر ، فيهزمنا المشركون ، وينتصر علينا الكافرون ، وكنتم

فى شك وريب من الدعوة إلى الإسلام ، فلم تصدقوا فى العمل وتخلصوا فى الإيمان ، وخدعكم الشيطان وطول الأمل ، والأباطيل التى تقدرونها ، وتمنون أنفسكم بها ، من زوال الإسلام وانتكاس أمر المسلمين .

لقد ظللتم أيها المنافقون على هذا الحال (**حتى جاء أمر الله**) وهلكتم وفارقتم الدنيا ، وعجزتم عن اكتساب صالحات الأعمال ، وخدعكم الشيطان ، وزين لكم النفاق بما وسوس فى صدوركم من الأمانى الكاذبة ، فاليوم لا سبيل إلى النجاة ، ولا يقبل منكم ولا من الكافرين ما يفتدى به بدلا عن عذابكم وعوضا عن عقابكم،ولو جئتم بملء الأرض ذهبا ومثله معه . قال تعالى : (**إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين**)(٦١) .

نعم أيها المنافقون لا يقبل منكم اليوم ولا من الذين كفروا فداء ولا عوض ، لأنه قد ذهب الوقت وضاعت الفرصة ، والنار الآن أولى بكم وأحق ، وهى بئس المصير الذى انتهيتم إليه فى الدرك الأسفل من النار ، قال تعالى : (**إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا**)(٦٢) .

* * *

(٦١) الآية : ٩١ من سورة آل عمران .
(٦٢) الآية : ١٤٥ من سورة النساء .

رابعاً : توبة المنافقين

بعد أن عرفنا - فيما سبق - خطورة النفاق فى المجتمع الإسلامى ، ودور المنافقين التاريخى فى تمزيق وحدة المسلمين ، وتشتيت شملهم ، وتفريق كلمتهم ، وما قد يستخدم فى سبيل ذلك من وسائل التلبيس والتزييف والتغرير ، وأنهم عمال هدم ، ومعاول شر يجب الحذر منهم ، وأنهم لذلك أصبح مكانهم فى الآخرة فى الدرك الأسفل من النار ، نبحث الآن فى توبتهم ، هل تقبل منهم أو لا تقبل ؟

فنقول : اختلف العلماء فى قبول توبة المنافق ، فقال بعضهم :(٦٣) لا تقبل توبته . واستدلوا لذلك بدليل عقلى ، وهو تعذر معرفة توبته من عدمها ، لأنه كان مظهرا للإسلام ومبطنا للكفر ، فاذا ادعى التوبة من النفاق لم يزد على ما كان عليه من قبل وهو إظهار الإسلام .

وقال البعض الآخر : تقبل توبة المنافق ، إذا رجع وأناب إلى الله . وهذا القول هو الذى تسانده الأدلة ، وتقويه النصوص من الكتاب والسنة الصحيحة . وهذه الأدلة بعضها ، ورد فى شأن المنافقين خاصة ، وبعضها الآخر ، ورد فى شأن الكفار والعصاة عامة ، ومنها :

أولا : قوله تعالى : (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا . إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا

---

(٦٣) انظر : المغنى لابن قدامة : ١٢٧/٨ طبعة الرياض . وكتاب : المنافقون فى القرآن الكريم ص ٢٥٣ للدكتور / محمد يوسف عبد بن حسن ، طبعة دار التوزيع والنشر الإسلامية .

دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما . ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما)(٦٤) .

أى : إلا الذين رجعوا عن النفاق ، وأصلحوا ما أفسدوه من أحوالهم ، ونياتهم ، وتمسكوا بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، وأزالوا عنهم الشوائب من الرياء والسمعة والشك ، وتبرءوا من كل ما دون الله تعالى ، (**فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجر عظيما**) ، ولا معنى لقول بعضهم : « إن الله سبحانه وتعالى ، قال : (مع المؤمنين) ولم يقل من المؤمنين ، غضبا عليهم وكراهية لهم »(٦٥) .

فقد أخرج البخارى بسنده عن الأسود قال : « كنا فى حلقة عبد الله فجاء حذيفة حتى قام علينا فسلم ثم قال : لقد أنزل النفاق على قوم خير منكم . قال الأسود : سبحان الله ، إن الله يقول (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) . فتبسم ، وجلس حذيفة فى ناحية المسجد ، فقام عبد الله ، فتفرق أصحابه ، فرمانى بالحصا فأتيته ، فقال حذيفة عجبت من ضحكه ، وقد عرف ما قلت لقد أنزل النفاق على قوم كانوا خيرا منكم ثم تابوا ، فتاب الله عليهم)(٦٦) .

قال ابن حجر : قوله : (**ثم تابوا فتاب الله عليهم**) أى : رجعوا عن النفاق . ويستفاد من قوله تعالى : (**إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين**) صحة توبة الزنديق وقبولها

---

(٦٤) الآيات : ١٤٥ ـ ١٤٧ من سورة النساء .

(٦٥) انظر : فتح القدير للشوكانى : ٥٣٠/١ طبعة بيروت .

(٦٦) انظر صحيح البخارى بشرح فتح البارى،كتاب التفسير : ١١٥/٨

على ما عليه الجمهور ، فإنها مستثناة من المنافقين من قوله : (**إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار**) وقد استدل بذلك جماعة منهم أبو بكر الرازى فى أحكام القرآن ، والله أعلم(٦٧) .

ثانيا : قوله تعالى فى شأن المنافقين (لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين)(٦٨) .

أى لا تقدموا المبررات ، ولا تطلبوا الأعذار الباطلة ، وقد خرجتم من الإسلام ، بعد تصديقكم به ، إن يغفر لجماعة منكم بسبب توبتهم النصوح ، تعاقب جماعة أخرى ، بسبب ذنوبهم وجرائمهم ، وإصرارهم عليها ، فباب التوبة مفتوح لكم أيها المنافقون ، فمن تاب وأخلص غفر له ، ومن أصر وتمادى عذب .

روى ابن اسحاق ـ رحمه الله تعالى ـ : أن الذى عفى عنه فى هذه الآية ، مخشى بن حمير الأشجعى ، وأنه لما نزلت هذه الآية تاب عن نفاقه ، وقال : اللهم إنى لا أزال أسمع آية تقشعر منها الجلود ، وتجب منها القلوب . اللهم اجعل وفاتى قتلا فى سبيلك ، لا يقول أحد أنا غسلت ، أنا كفنت ، أنا دفنت ، فأصيب يوم اليمامة ، فلو يوجد له أثر(٦٩) .

ثالثا : ومن الأدلة العامة فى حق جميع العصاة ، قوله تعالى :

---

(٦٧) انظر فتح البارى له : ١١٦/٨

(٦٨) الآية : ٦٦ من سورة التوبة .

(٦٩) راجع السيرة لابن هشام : ١٢٢/٤ وتفسير ابن كثير : ١١٢/٤

(قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم) (٧٠) .

فهذه الآية دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة ، والإنابة ، وإخبار بأن الله تعالى يغفر الذنوب جميعا ، لمن تاب منها ، ورجع عنها ، وإن كانت مهما كانت ، وإن كثرت ، وكانت مثل زبد البحر .

ومما لا شك فيه أن الآية تشمل فيمن تشمل المنافق ، ولا سيما أن عمر وابنه عبد الله - رضى الله تعالى عنهما - يريان أنها نزلت فى عياش بن ربيعة ، والوليد بن الوليد ، ونفر من المسلمين كانوا قد أسلموا ، ثم فتنوا وعذبوا ، فافتتنوا . قال ابن عمر : وكنا نقول : لا يقبل الله من هؤلاء صرفا ولا عدلا أبدا ، قوم أسلموا ، ثم تركوا دينهم بعذاب عذبوا به ، فنزلت هذه الآية ، وكان عمر كاتبا فكتبها إلى عياش بن أبى ربيعة ، والوليد بن الوليد ، وأولئك النفر فأسلموا وهاجروا (٧١) .

وليس لأحد بعد هذا - والأدلة جد واضحة - أن يتقدم فى هذا المجال ، بدعاوى لا دليل عليها ، وأن يغلق الباب أمام توبة التائب ، ورجعة راجع إلى الله تعالى ، والاحتجاج بتعذر معرفة توبة المنافق ليس بسليم ، لأنها وإن كان فيها نوع من الصعوبة ، إلا أنها ليست متعذرة ، لأن الصفات الأربع المذكورة فى حق توبة المنافق ، وهى :

---

(٧٠) الآية : ٥٣ من سورة الزمر .

(٧١) انظر : أسباب النزول للواحدى : ص ٢٧٧

١ - التوبـة ٠

٢ - الإصـلاح ٠

٣ - الاعتصـام ٠

٤ - الإخـلاص ٠

كفيلة بتكوين رأى أخير حـول ما آل إليه حـال المنافـق ٠ والله تعالى أعلى وأعلم ٠

هذا ونسأل الله تعالى أن يجعلنـا من التوابين ومن المتطهرين ، إنه نعم المولى ونعم النصـير ، وبالإجابة جدير ٠

وصلى الله على سـيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ٠

* * *

كان الانتهاء منه فى يوم الأربعاء الموافق ٢١ من شهر جمادى الآخرة سـنة ١٤١٣هـ الموافق ١٦ من ديسمبر سنة ١٩٩٢م ٠

المـؤلف
الدكتور/السيد بن اسماعيل بن على بن سليمان
مدرس التفسـير وعلوم القرآن
بكليـة أصـول الدين بالقاهرة
جامعـة الأزهـر

أسماء المراجع والمصادر

أولا : القرآن الكريم

ثانيا : مراجع التفسير

١ ـ **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، لأبى السعود ابن محمد العمادى** المتوفى سنة ٩٨٢ هـ . تحقيق : عبد القادر أحمد عطا ، طبعة الرياض الحديثة .

٢ ـ **البحر المحيط** ، لأبى حيان الأندلسى المتوفى سنة ٧٤٥هـ ، طبعة دار الفكر ـ بيروت .

٣ ـ **التحرير والتنوير**

للشيخ الطاهر بن عاشور ، طبعة دار التونسية .

٤ ـ **تفسير القرآن العظيم**

للحافظ ،بن كثير المتوفى سنة ٧٧٤هـ طبعة دار الشعب .

٥ ـ **تفسير المنار** ، للشيخ رشية رضا المتوفى ١٣٥٤هـ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٦ ـ **التفسير الوسيط للقرآن الكريم** ، تأليف لجنة من علماء مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، طبعة مجمع البحوث الاسلامية ـ الأولى ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م .

٧ ـ **جامع البيان فى تفسير القرآن**

لابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ طبعة دار الفكر بيروت .

٨ ـ **الجامع لأحكام القرآن** ، لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى المتوفى سنة ٦٧١هـ طبعة دار الشعب .

٩ - **الدر المنثور فى التفسير بالمأثور** ، لجلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ طبعة دار المعرفة بيروت .

١٠ - **صفوة التفاسير**

محمد على الصابونى ، طبعة مكتبة الغزالى دمشق - بيروت .

١١ - **روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى**

للألوسى المتوفى سنة ١٢١٧هـ طبعة مصورة عن طبعة دار التراث.

١٢ - **الفتوحات الإلهية**

لسليمان بن عمر (الشهير بالجمل) طبعة عيسى الحلبى .

١٣ - **فى ظلال القرآن** ، لسيد قطب ، طبعة دار الشروق ، الطبعة السابعة عشرة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

١٤ - **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوب التأويل** ، لجار الله الزمخشرى المتوفى سنة ٥٢٨هـ طبعة المكتبة التجارية الكبرى - الطبعة الثانية .

١٥ - **المفردات فى غريب القرآن** ، للراغب الأصفهانى المتوفى سنة ٥٠٢هـ تحقيق : الأستاذ / محمد سيد كيلانى ، طبعة مصطفى الحلبى ١٣٨١هـ ١٩٦١م .

١٦ - **مفتاتيح الغيب - أو التفسير الكبير -** لفخر الدين الرازى المتوفى ٦٠٦هـ ، طبعة دار الغد العربى - الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١م .

ثالثا : مراجع الحديث وشروحه :

١٧ - **تحفة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى** ، للحافظ محمد المباركفورى المتوفى سنة ١٣٥٣هـ ، مطبعة الفجالة الجديدة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م .

١٨ - **الترغيب والترهيب**
للحافظ المنذرى المتوفى سنة ٦٥٦هـ ، طبعة مكتبة الدعوة الإسلامية - شباب الأزهر .

١٩ - **رياض الصالحين** ، لمحى الدين النووى المتوفى سنة ٦٧٦هـ ، طبعة دار التراث العربى ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م .

٢٠ - **سنن أبى داود** ، سليمان بن الأشعث السجستانى المتوفى سنة ٢٧٥هـ ، طبعة دار الحديث - حمص سوريا ، جمع وتعليق عزت عيد .

٢١ - **سنن ابن ماجة** ، أبى عبد الله القزوينى المتوفى سنة ٢٧٥هـ ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقى ، طبعة دار الفكر ١٣٧٢هـ .

٢٢ - **سنن الترمذى** ، لأبى عيسى الترمذى المتوفى سنة ٢٧٩هـ تحقيق: أحمد محمد شاكر طبعة مصطفى الحلبى ١٣٥٦هـ .

٢٣ - **سنن النسائى** ، أحمد بن شعيب النسائى المتوفى سنة ٣٠٣هـ ، طبعة دار البشائر الإسلامية .

٢٤ - **صحيح البخارى** ، للإمام محمد بن اسماعيل المتوفى ٢٥٦هـ ، طبعة دار الشعب سنة ١٣٧٨هـ .

٢٥ - **صحيح مسلم** ، لأبى الحسين مسلم بن الحجاج المتوفى سنة ٢٦١هـ ، طبعة دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقى .

٢٦ - **فتح البارى بشرح صحيح البخارى** ، لابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢هـ طبعة دار الريان للتراث .

٢٧ - **فيض القدير شرح الجامع الصغير** ، للمناوى المتوفى سنة ١٠٣١هـ طبعة دار المعرفة - بيروت .

٢٨ - **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** ، للحافظ الهيثمى المتوفى سنة ٨٠٧هـ تحرير العراقى ، وابن حجر ، مكتبة القدس .

٢٩ - **مستدرك الحاكم على الصحيحين** ، لمحمد بن عبد الله بن محمد المعروف بالحاكم المتوفى سنة ٤٠٥هـ ، مكتبة المطبوعات الإسلامية - حلب .

٣٠ - **مسند الإمام أحمد بن حنبل** المتوفى سنة ٢٤١هـ ، المكتب الإسلامى للطباعة والنشر ، والرابعة ١٤٠٣هـ .

٣١ - **المنهاج فى شرح صحيح مسلم بن الحجاج** ، لمحى الدين النووى المتوفى سنة ٦٧٦هـ طبعة دار الغد العربى - الأولى ١٤٠٣هـ . ١٩٨٧م .

٣٢ - **الموطأ للإمام مالك بن أنس** المتوفى سنة ١٧٩هـ ، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت . الطبعة الأولى ١٩٧٩م .

رابعاً : كتب الدراسات القرآنية :

٣٣ - **أحكام القرآن** ، لأبى بكر ابن العربى محمد بن عبد الله بن أحمد المعافرى المتوفى سنة ٥٤٣هـ ، طبعة دار المعرفة - بيروت .

٣٤ - **أحكام القرآن** ، للإمام محمد بن إدريس بن العباس الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤هـ نشر مكتبة الثقافة الإسلامية ، الطبعة الأولى .

٣٥ - **أسباب النزول** ، للإمام أبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيساوى طبعة عالم الكتب - بيروت .

٣٦ - **أسلوب السخرية فى القرآن** ، للدكتور / عبد الحليم حفنى ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م .

٣٧ - **أسلوب القرآن فى كشف النفاق**

لنفس المؤلف السابق ، وطبع الهيئة ١٩٩٠م .

قرآن

وطبع الهيئة ١٩٩٢م ٠

نزول

ة الاشعاع ـ بالرياض ، الأولى ١٤٠٤هـ٠

ه عليه وسلم صورة مقتبسة من القرآن الكريم

محمد عزة دروزه ، طبع مطابع الدوحة الحديثة ـ الثالثة ١٤٠٠هـ ٠

٤١ ـ **الصحيح المسند من أسباب النزول لآيات القرآن الكريم** ، لأبى عبد الرحمن مقبل بن هادى الوادعى،طبعة المكتب السلفى، الثانية ١٤٠١هـ ٠

٤٢ ـ **لباب النقول فى أسباب النزول** ، لجلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ طبعة عيسى الحلبى على هامش الجلالين ٠

٤٣ ـ **المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء** للشيخ محمد محمد المدنى ، طبعة مجمع البحوث الإسلامية ٠

٤٤ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** ترتيب محمد فؤاد عبد الباقى ٠

٤٥ ـ **معركة الوجود بين القرآن والتلمود** ، للدكتور / عبد الستار فتح الله سعيد ، طبعة دار الطباعة والنشر الإسلامية ـ الثالثة ١٤٠٥هـ ٠

٤٦ ـ **من مفردات القرآن (المنافقون)** للدكتور / محمد جميل غازى ، طبعة مكتبة المدنى بجدة سنة ١٩٧٢م ٠

٤٧ ـ **المنافقون فى القرآن الكريم** ، للدكتور / محمد يوسف عبد بن حسن ، طبعة دار الطباعة والنشر الإسلامية سنة ١٩٩١م ٠

٤٨ ـ **موقف القرآن من العلماء (**
للدكتور/ السيد اسماعيل
بالقاهـرة .
٤٩ ـ **نقض مطاعن فى القرآن الـ**
طبعـة مكتبة الزهراء بالقاهرة .
٥٠ ـ **النماذج الإنسـانية فى القرآن الكريم**
لأحمد محمد فارس ، طبعة دار الفكـر .

خامسـاً : المراجـع العـامة :

٥١ ـ **أحكام النفاق والمنافقين** ، للشـيخ حسن الهلاوى ، طبعة مكتبة السـنة ، الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م .
٥٢ ـ **إحياء علوم الدين** ، لأبى حامد الغـزالى المتوفى سـنة ٥٠٥هـ طبعة دار الكتب العربية الكبرى .
٥٣ ـ **الأمر بالمعروف والنهى عن المنكـر** ، لأبى بكـر أحمد بن محمد هارون الخلال ، دراسـة وتحقيق : عبد القـادر أحمد عطـا ، طبعة دار الاعتصام الأولى ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م .
٥٤ ـ **أهمية الجهاد فى نشر الدعوة الإسـلامية والرد على الطـوائف الضالة** ، للدكتور/ على بن نفيع العليانى، طبعة دار طيبة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .
٥٥ ـ **تاج العروس للزبيدى**
طبعة دار ليبيا للنشر والتوزيع ـ بنغازى .
٥٦ ـ **جوامع السـيرة النبوية**
لأبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٦هـ ، تحقيق : احسان عباس ، د/ ناصر الأسـد ، طبعة دار المعارف .

للدكتور / محمد نعيم ياسين ، شركة
... ١٤١١هـ - ١٩٩٠م ٠

العربية للطباعة والنشر، الطبعة الثانية
المجتمع الإسلامى
... الشعراوى ، طبعة دار المسلم ٠

٦٠ - **زاد المعاد فى هدى خير العباد**
لابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ طبعة المطبعة المصرية ٠

٦١ - **الزواجر عن اقتراف الكبائر**
لابن حجر المكى المعروف بابن حجر الهيتمى المطبعة المصرية ببولاق

٦٢ - **السيرة الحلبية** ، على بن برهان الدين الحلبى ، مطبعة البابى الحلبى ، الأولى ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م ٠

٦٣ - **السيرة النبوية لابن هشام** ، محمد بن عبد الملك المتوفى سنة ٢١٣هـ ، تحقيق : دكتور / محمد فهمى السرجانى ، طبعة دار التوفيقية بالأزهر ١٩٧٨م ٠

٦٤ - **الصارم المسلول على شاتم الرسول صلى الله عليه وسلم** ، لابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ ، تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بمصر ، الأولى ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م

٦٥ - **الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف**
للدكتور / يوسف القرضاوى ، مطابع الدوحة الحديثة - اصدار كتاب الأمة ، الأولى ١٤٠٢هـ ٠

٦٦ - **طريق الهجرتين وباب السعادتين**
لابن قيم الجوزية، مطبعة الدوحة الحديثة - قطر ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م

٦٧ ـ غزو فى الصميم ، لعبد الر
دار القلم ـ دمشق ١٤٤٥هـ
٦٨ ـ فقه السيرة ، للدكتور /
السابعة ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م .
٦٩ ـ الكتاب المقدس (العهد القديم
٧٠ ـ لسان العرب لابن منظور
المتوفى سنة ٧١١هـ طبعة دار المعارف
٧١ ـ المحلى بالآثار فى شرح المجلى بالاختصار
لأبى محمد على بن سعيد بن حزم الأندلس المتوفى سنة ٤٥٦هـ
تصحيح حسن زيدان طلبه ، طبعة مكتبة الجمهورية بمصر ١٣٩٢هـ
٧٢ ـ المعجم الوسيط ـ ـ
للدكتور/ ابراهيم أنيس وآخرين، الطبعة الثانية بدار المعارف .
٧٣ ـ النفاق والمنافقون فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ودور اليهود
للأستاذ/ ابراهيم على سالم ، طبعة دار الشعب ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م
٧٤ ـ جريدة (أخبار اليوم)
جريدة مصرية تصدر كل أسبوع عن دار الأخبار .
٧٥ ـ جريدة (الأهرام) جريدة مصرية يومية .
٧٦ ـ جريدة (الشعب)
جريدة مصرية تصدر نصف أسبوعية .
٧٧ ـ جريدة (الوفد) جريدة مصرية يومية .

* * *

خطــاء

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
			وان يجزيهما
			نشاة النفاق وأهم أسبابه
			وأنواعه .
[illegible]	٢	الخروج عن	والخروج عنه
١٢	٢	وزجه	وزوجه
٢٤	٩	يؤديها	يؤيدها
٣٠	١٨	وتدفعهم	وتدمغهم
٣٤	٨	هـل تحسـن فيها من جدعاء؟ ثميقول:(فطرة الله التى فطر الناس	فأبواه يهـودانه أو ينصرانه أو يمجسـانه ، كما تنتج البهيمــة بهيمة جمعا ،
٧٨	٩	وأطئت	واطئات
٩٠	٩	ليتبقى	ليتقى
٩٤	١٣	وما وسعهم	ما وسعهم
١١٢	٥	الحادية عشر	الحادية عشرة
١٣٠	١	الرابعة عشر	الرابعة عشرة
١٣٤	٧	الخامسة عشر	الخامسة عشرة
١٣٤	١٤	ما منعهم	وما منعهم
١٥٢		الأخير الدولة	الدول
١٥٧	٣	كفوسكم	كنفوسكم
١٦٩	٨	والمفكـر الجـرىء الذى لا يفرق	يلاحــظ أن فى القـــران أسلوبين
٢٠٥		الأخير والتثبيظ	والتثبيط
٢٠٥	٨	ازادوا	ازدادوا

فهرس

الموضـــــوع

الاهـــداء ... ...

المقـــدمـة ... ...

الفصـــل الأول

نشأة النفاق وأهم أسباب ...

المبحث الأول : تعـريف النفـاق ٩

أولا : معنى النفاق فى اللغة والاصطلاح ٩

ثانيا : النفاق فى معنـاه العـام ١١

المبحث الثانى : نشـأة النفـاق ١٢

المبحث الثالث : أسباب النفـاق ٢٧

المبحث الرابع : الفرق بين المنافق والكافر ٣٦

المبحث الخامس : أنـواع النفـاق ٤٢

أولا : نفـاق العقيـدة ٤٢

ثانيا : نفـاق العمـل ٤٧

الفصـل الثـانى ... ... ٥٣ ـ ١٣٨

صفـات المنـافقـــين ٥٣

الصفة الأولى : مـرض القلب ٥٦

الصفة الثانية : الخـــداع ٦٤

الصفة الثالثة : الكـــذب ٦٩

١ ـ ادعاء الإيمان بالله واليوم الآخر ٧٦

٢ ـ ادعاء شهادتهم للرسول ﷺ بالرسالة ٧٧

٣ ـ ادعاء ارادة الخير من بناء مسجد الضرار ٨١

الصفحـة

الجهاد فى سبيل الله ... ٨٤
... ... ٨٥
المظهـر ٩١
ـة الفزع والخوف ٩٧
الصفة السابعة : البحر وحب المـال ١٠٤
الصفة الثامنة : السفـه ١٠٨
الصفة التاسعة : التذبذب والتردد ١١١
الصفة العاشرة : الفساد فى الأرض ١١٦
الصفة الحادية عشرة : خلف الوعود ونقض العهود ١٢٢
الصفة الثانية عشرة : خيـانة الأمـانة ١٢٥
الصفة الثالثة عشرة : اللدد فى الخصومة ١٢٦
الصفة الرابعة عشرة : الـريـاء ١٣٠
الصفة الخامسة عشرة : الكسل عن أداء الطاعات ١٣٤
الفصـل الثـالث **١٣٩ـ٢١٤**
أساليب المنافقين وألوان نفاقهم ١٣٩
أولا : الإعراض عن حكم الله ورسوله ١٤٣
ثانيـا : موالاة الكفار ونصرتهم على المسلمين ١٤٩
ثالثـا : السخرية والاستهزاء ١٥٥
١ ـ سخرية المنافقين بالقرآن ١٥٦
٢ ـ الاستهزاء برسول الله ﷺ ١٥٩
٣ ـ السخرية والاستهزاء بالمؤمنين ١٦٣
سخرية منافقى العصر الحديث واستهزاؤهم بالمؤمنين ١٦٤
١ ـ التعصـب ١٦٥

الموضـــوع

٢ ـ الرجعيـــة ... ...

٣ ـ التنـــوير ... ...

٤ ـ التطـرف الدينى ..

رابعا : الأمر بالمنكر والنهى

خامسا : اشاعة الفاحشة فى المؤمنين

سادسا : الدس والوقيعة واشعال نار الفتن بين المسلمين ١٨٩

سابعا : التخلف عن الجهاد فى صفوف المؤمنين ١٩٤

ثامنا : التخذيل والتثبيط للمؤمنين ٢٠٥

الفصل الرابع

أساليب المعاملة مع المنافقين ٢١٥

أولا : جهاد المنافقين والغلظة عليهم ٢١٧–٢٥١

ثانيـا : وسائل الوقاية من المنافقين ٢٣٥

١ ـ معرفة أحوال المنافقين ودراسة صفاتهم ٢٣٥

٢ ـ ترك موالاتهم والتقرب إليهم ٢٣٦

٣ ـ مقاطعة المنافقين واجتناب مجالسهم ٢٣٨

٤ ـ وضع المنافقين فى موضع الشك وعدم الثقة بأقوالهم ٢٣٨

٥ ـ الحيلولة بينهم وبين المراكز الهامة في المجتمع ٢٣٩

ثالثـا : جـزاء المنـافقين ٢٤١

رابعـا : توبة المنـافقـين ٢٤٧

أسمـاء المـراجع والمصـادر ٢٥٢

تصـويب الأخطـــاء ٢٦١

فهـــرس الكتـاب ٢٦٢

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية

١٩٩٢ / ٩١١٤